منهج القرآن في الدعوة إلى الإيمان

إعداد

الدكتور علي بن محمد ناصر الفقيهي

رسالة ماجستير
قدمت في
جامعة الملك عبد العزيز - فرع مكة المكرمة
جامعة أم القرى حالياً عام ١٣٩٥هـ.
وقد أضيفت إليها بعض البحوث قبل طبعها

بسم الله الرحمن الرحيم

مَنْهَجُ القُرْآنِ
فِي الدَّعْوَةِ إِلَى الإِيمَانِ

الطبعة الأولى

١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وأنزل عليه أَظْهَرَ البينات وأقوى الحجج، قرآناً عربياً غير ذي عوج، مصدقاً لما بين يديه من الكتاب، ناطقاً بكل أمر رشيد، وهادياً الى صراط العزيز الحميد، جعله الله له شرعة ومنهاجاً، وأمره أن يدعو الناس الى الايمان بالله وباليوم الآخر به، مبيناً لهم أن ذلك ليس من عنده ﷺ، وانما هو وحي من الله جل جلاله، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾[1]. ذلك الكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير، اذ ليس بعد هداية القرآن هداية، وليس بعد ارشاده ارشاد، ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[2].

(١) سورة الانبياء، الآية ٤٥.

(٢) سورة الاسراء، الآية ٩.

وأصلي وأسلم على خير خلقه وأفضل رسله محمد بن عبدالله رسول الهدى وعلى آله وصحبه الذين سلكوا سبيله، واتبعوا نهجه.

وبعد: ـ

فان العقيدة الاسلامية، هي أساس البناء التشريعي، اذ لا يتم بناء ما لم يكن هناك أساس قوي يبني عليه هذا التشريع فلا يمكن أمر الناس بطاعة الله تعالىٰ وعبادته، الا اذا اعترفوا بوجوده وألوهيته، وعلمه، وقدرته، وارادته، وانه لا بد من يوم يبعثون فيه يجازى فيه كل عامل على عمله، ان خيراً فخير وان شراً فشر.

ومن أجل ذلك فقد مكث المصطفى ﷺ في مكة ثلاثة عشرة عاماً من دعوته والقرآن ينزل عليه لتصحيح العقيدة، وتصفية الملة الحنفية مما ران عليها مِنْ درن الكفر وشبه الضلال والالحاد، ولم ينزل عليه في هذه الفترة الطويلة من عمر الدعوة تشريع اللهم الا فرض الصلاة، وبعد أن نقيت القلوب، وأزيح عنها حجاب الكفر، وظلمات الشرك، وثبت الاساس المتين وهو (الايمان بالله وحده) قام عليه ذلك البناء الشامخ الذي لم تهزه أعاصير الشبه والشكوك، وحيث ان العقيدة الاسلامية ما زالت ولن تزال في كل عصر الهدف لشبه المبطلين، وكيد الماكرين، بكل وسائلهم المختلفة، ومنها عرض أباطيلهم بصور سهلة وميسرة لاصطياد

الشباب وايقاعهم في حبائل الشك بذلك التمويه والتزوير. كان لا بد من بيان مسلك القرآن في هذا الجانب في تثبيت العقيدة، وما من شك أن كتب العقائد الاسلامية، مملوءة بالأدلة القوية والحجج الواضحة، التي تدحض شبه هؤلاء الملحدين، وترد كيد الماكرين المنكرين لوجود الله وأولوهيته، الطاعنين في رسالاته، المنكرين للحقائق الأخروية، من البعث والجزاء، تلك الحقائق التي قرن الله عز وجل الايمان بها بالايمان به تعالى نفياً واثباتاً، ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [١].

غير ان تلك الحجج والبراهين التي ذكرت في كثير من كتب العقائد ليس من السهل ادراكها لكل أحد، لأنها قد بنيت على اصطلاحات ومقدمات لا يدركها الا القليل من الناس، وهم الذين تخصصوا في هذه الدراسة وانقطعوا لها.

ولما كان بين أيدينا القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، قد تضمن منهجاً سهلا، وأسلوباً واضحاً في الدعوة الى الايمان بالله وحده، وبرسله، وبالحقائق الأخروية من

---

(١) سورة التوبة، الآية ٤٤، ٤٥.

البعث والجزاء وغيرهما معتمداً في ذلك على مقدمات يفهمها كل مخاطب، كما اشتمل على حجج كثيرة تكفي للرد على الشبه الواردة من المبطلين، رداً يدركه كل من أعمل فكره وعقله.

لذلك كان لا بد من الكتابة عن (منهج القرآن في الدعوة الى الايمان) وذلك لأن: ـ

١) القرآن الكريم هو أساس العقيدة الاسلامية.

٢) ولأنه قد اشتمل على أكثر شبه المنكرين المبطلين، ثم ناقشها وبين بطلانها بالحجج القاطعة.

٣) ولامتيازه بالسهولة والوضوح، لأنه خطاب للفطرة البشرية ممن هو عالم بخصائصها ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [١].

هذا وقد اشتمل البحث بعد التعريف بالمنهج على ستة فصول:

١) الفصل الأول: بيان حقيقة اسم الايمان وذكر اركانه اجمالا.

٢) الفصل الثاني: مسلك القرآن في اثبات وجود الله.

---

(١) سورة الملك، الآية ١٤.

٣) الفصل الثالث: مسلك القرآن في اثبات الوحدانية.
٤) الفصل الرابع: مسلك القرآن في اثبات النبوة.
٥) الفصل الخامس: مسلك القرآن في اثبات البعث.
٦) الفصل السادس: آراء العلماء في البعث.

تعريف المنهج:

جميع تصاريف هذه الكلمة (منهج) تدل على انه الطريق الواضح البين الموصل الى الغاية المقصودة.

ففي القاموس:

(المنهج) الطريق الواضح، كالمنهج، والمنهاج.

(ونهج) كمنع، وضح، وأوضح، والطريق سلكه، واستنهج الطريق صار نهجاً. وفلان سبيل فلان، سلك مسلكه[1].

وفي لسان العرب:

(نهج) طريق نهج، بين واضح، وهو المنهج.

والمنهاج، كالمنهج، وفي التنزيل ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[2].

---

(١) القاموس المحيط ج ١/ باب الجيم فصل النون.

(٢) سورة المائدة، الآية/ ٤٨.

وانهج الطريق، وضح واستبان، وصار نهجاً واضحاً بيناً. قال يزيد بن الحذاف العبدي:

ولقد أضاء لك الطريق وأنهجب ∴ سبل المكارم والهدى تعدي

أي تعين وتقوى.

والمنهاج، الطريق الواضح، وفي حديث العباس: «لم يمت رسول الله ﷺ حتى ترككم على طريق ناهجة» أي واضحة بينة، ونهج الأمر وأنهج لغتان، اذا وضح[1].

فكل هذه التصاريف لكلمة (منهج) لغة تدور على معنى وضوح الأمر واستبانة الطريق المؤدية الى الغرض المطلوب.

والقرآن الكريم، وهو كلام الله المنزل على أكرم خلقه وأفضل انبيائه محمد ﷺ قد سلك في منهج دعوته للناس جميعاً الى الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر منهجاً واضحاً سهلا منسجماً مع الفطرة البشرية. فبدأ بالدعوة الى الايمان بالله إلها معبوداً لا شريك له فقال: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾[2]. ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا

---

(١) لسان العرب (نهج).

(٢) البقرة الآية ١٦٣.

صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [1] .

وذلك لأنه هو الخالق للعالم وحده ومن يخلق هو الذي يستحق أن يعبد ، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [2] .

﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ [3] .

﴿ هَـٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [4] .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [5] .

---

(١) الكهف : آية : ١١٠ .

(٢) البقرة : آية ٢١ .

(٣) الفرقان : آية ٣ .

(٤) لقمان : آية ١١ .

(٥) الروم : آية ٤٠ .

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (١).

وهذا من أعظم الأدلة على وجوده سبحانه، اذ لم يَدَّعِ صِفَةَ الخلق أحدٌ من البشر، ولا عبرة بمن حاج ابراهيم في ربه، لأنه لا يعرف معنى الاحياء والاماتة، أو هو مغالط لمن استخفهم فأطاعوه، وقد أفحمه ابراهيم بحجته التي أتاه الله وعلمه، وذلك بطلبه منه أن يأتي بالشمس من المغرب، اذ أن رب ابراهيم ورب العالمين جميعاً يأتي بها من المغرب فبهت الكافر ولم يحر جواباً - وسيأتي تفصيل ذلك في محله ان شاء الله.

والايمان بملائكته الموكلين بالعالم وبمراقبة الانسان نفسه ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (٢).

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (٣).

والايمان بكتبه التي أنزلها على أنبيائه ورسله المتضمنة صلاح البشرية وهدايتها.

والايمان بمن اختارهم الله واصطفاهم من خلقه رسلاً لدعوة

---

(١) النحل: آية ١٧

(٢) الانفطار: آية ١٠ - ١٢.

(٣) ق: آية ١٨.

الناس الى الخير وحثهم عليه، وتحذيرهم من سبل الشر والغواية، ولإقامة الحجة على الجاحدين: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ (١).

﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (٢).

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (٣).

كما دعاهم الى الايمان باليوم الآخر وبما يجري فيه من جزاء على الأعمال التي يقدمها الانسان في حياته الدنيا، اذ لا سعادة لمجتمع في الدنيا قبل الآخرة لا يؤمن أفرادُهُ بذلك اليوم وما يجري فيه، بل لا إيمان لمن لا يؤمن باليوم الآخر، ولأهمية الايمان بما يقع فيه من جزاء لسعادة البشرية في دنياها قبل أخراها، قرن الله إيمان المرْءِ بالله عز وجل، بالايمان باليوم الآخر نفياً واثباتاً، في آيات من كتابه العزيز منها:

١) ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ .. ﴾ (٤)

---

(١) الحج: آية ٧٥.

(٢) النساء: آية ١٦٥.

(٣) الاسراء: آية ١٥.

(٤) التوب: آية ١٨.

٢) ﴿ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَـوْمِ ٱلْأَخِرِ وَلَا
يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ... ﴾[١].

وفي الفصول التالية توضيح لذلك المنهج ان شاء الله تعالى.

(١) التوبة: آية ٢٩.

الفصل الأول

بيان حقيقة الإيمان
وذكر أركانه إجمالاً

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: المقصود بالإيمان

المبحث الثاني: مجمل اركان الإيمان.

المبحث الأول: المقصود بالايمان:

اذا نظرنا في كتاب الله عز وجل، فاننا نجد القرآن الكريم، قد خص العقيدة، وهو ما يطلب من الانسان اعتقاده والتصديق به تصديقا جازما لا شك فيه ولا تردد باسم «الايمان».

كما خص الشريعة وهي الأمور الظاهرة المطلوب من المكلف الالتزام بها وأداؤها «بالعمل الصالح».

وذلك حين يرد الايمان مقرونا بالعمل الصالح، أو بالاسلام:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (١).

(١) النحل: آية ٩٧.

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾[1].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾[2].

وقوله ﷺ : « اللهم لك أسلمت، وبك آمنت.. الحديث »[3].

وقوله صلى الله عليه وسلم: « الاسلام علانية والايمان في القلب ».

فدل على المغايرة بين الاسلام والايمان، ويؤيده حديث جبريل[4] في معنى الإسلام والايمان، حيث خص الايمان بالأعمال القلبية الاعتقادية، والاسلام بالأعمال الظاهرة.

أما اذا أفرد اسم الايمان بالذكر:

فيتناول اسم الاسلام، وذلك كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه المتفق عليه قال: قال رسول الله ﷺ : « الايمان بضع

---

(١) العصر: الآية ١ ـ ٢.

(٢) الكهف: آية ١٠٧.

(٣) مسلم/ الذكر والدعاء والاستغفار/ باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل. ٤/٢٠٨٦ ح ٦٧.

(٤) مسلم/ كتاب الايمان/ ١/٣٦ ح ١.

وستون شعبة أعلاها قول لا اله الا الله وأدناها اماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الايمان»[1].

* * *

المبحث الثاني: مجمل اركان الايمان:

لقد أشار تعالى في كتابه الكريم الى هذه الاركان الاعتقادية التي يجب على المكلفين الايمان بها، واعتقاد ما دلت عليه اعتقادا جازما بقوله:

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ..﴾[2]

وقوله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ..﴾[3].

فقد شملت الآيتان خمسة من اصول الايمان التي يلزم المكلف الايمان بها، وهي: الايمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر.

كما اشارت آيات أخرى الى الأصل السادس الذي هو الايمان

---

(١) البخاري / كتاب الايمان، فتح الباري ١/٥١ ح٩.
مسلم / كتاب الايمان / باب بيان عدد شعب الايمان ١/٦٣ ح٥٨.

(٢) البقرة: آية ١٧٧.

(٣) البقرة: آية ٢٨٥.

بالقدر خيره وشره، كقوله تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ [1]. وقوله: ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ [2].

وهذه هي أصول الإيمان الستة المذكورة في حديث جبريل السابق:

الأول: الايمان بالله تعالى ربا ومعبودا وحده:

وهو الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى حق ثابت متصف بجميع صفات الكمال، منزه عن الآفات والنقائص، فهو جل شأنه الواجب الوجود بنفسه، الذي لا شك في وجوده، يدل لذلك ما نصب من الأدلة الواضحة، والبراهين الساطعة، من مصنوعاته الموجودة، وآياته المشهودة في الآفاق وفي الأنفس، ولذلك قال تعالى على لسان رسله: ﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ ﴾ ثم يعقب ذلك بذكر الدليل على نفي هذا الشك فيقول ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ.. ﴾ [3] أي مبدعها وخالقها من العدم، وهو الأمر الذي لم يدع أحد من البشر أنه شارك الله في خلقها، بل صرح المشركون الذين أرسل إليهم محمد ﷺ والذين عبدوا غير الله تعالى

(١) التوبة: آية ٥١.
(٢) النساء: آية ٧٨.
(٣) ابراهيم: آية ١٠.

بأن خالق السموات والأرض ومدبر أمرهما هو (الله) ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (١).

والايمان بأن الله هو الاله الحق، المعبود وحده: ﴿ يَٰأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٢).

وفي كل شيء له آية ∴ تدل على أنه واحد

وسيأتي تفصيل ذلك في فصلي مسلك القرآن في إثبات وجود الله تعالى، وفي إثبات الوحدانية.

الثاني: الايمان بالملائكة:

وهو الاعتقاد الجازم بان الله تعالى خلق عالما اسماه الملائكة وهم ارواح قائمة في اجسام نورانية، قادرة على التمثل بانواع مختلفة الشكل باذنه تعالى مناسبة للحالة التي يأتون فيها، ففي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: (خُلِقَت الملائكة من نور، وخُلِق الجان من مارج من نار، وخُلِق آدم مما وصف لكم)(٣).

---

(١) العنكبوت: آية ٦١.

(٢) البقرة: آية ٢١.

(٣) مسلم / كتاب الزهد / باب احاديث متنوعة ج ٤ / ٢٩٩٤ ح رقم ٦٠.

ومن تمثلات الملائكة ما ثبت عن النبي ﷺ من أن جبريل عليه السلام كان يأتيه في صورة رجل اعرابي حسن المنظر، وكثيرا ما كان يتمثل بصورة دِحْيَةَ الكلبي حيث كان جميل الصورة.

ومن ذلك حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم اذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا يُرَى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس الى النبي ﷺ فأسند ركبتيه الى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا محمد أخبرني عن الاسلام؟ فقال: الاسلام أن تشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله.. الحديث. وفيه قال: ثم انطلق فلبث مليا ثم قال: يا عمر أتدري من السائل؟ قلت الله ورسوله أعلم. قال: فانه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم)[1].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: (لما رجع رسول الله ﷺ من الخندق ووضع السلاح، واغتسل، أتاه جبريل وهو ينفض رأسه من الغبار، فقال: قد وضعت السلاح، والله ما وضعته أخرج إليهم، فقال النبي ﷺ: فأين؟ فأشار الى بني قريظة، فخرج النبي ﷺ) متفق عليه.

---

(١) مسلم / كتاب الايمان / ١ / ٣٧ ح (١).

وفي التنزيل يقول تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾[1].

ومن ذلك تمثل الملك بصورة الأبرص، والأقرع، والأعمى، لاختبار أولئك النفر الثلاثة من بني إسرائيل، واكرام الله لهم بحسن الحال والصحة.

فليست الملائكة ضربا من الأوهام، وانما هم عالم حقيقي الوجود، يجب الاعتقاد بوجودهم، والايمان بصفاتهم، للنصوص القرآنية، والأحاديث النبوية الدالة دلالة قاطعة على حقيقة وجودهم، وانهم ذوات متصفة بصفات حميدة، وأعمال رشيدة، وليسوا عقولا مجردة عن المادة كما ادعى ذلك بعض المفكرين، وانما هم ذوات وأجسام، مطيعة لأمر ربها، لا تقع عنها المعصية، قال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[2].

وقد كلف الله تعالى العباد الايمان بهم، والتصديق بوجودهم، لأن ذلك من جملة العقائد الايمانية المذكورة في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾[3].

---

(١) مريم: آية ١٧.
(٢) التحريم: آية ٦.
(٣) البقرة: آية ٢٨٥.

فقرن الله تعالى الايمان بهم، بالايمان به جل ذكره، وذلك بعد ان عرّف بهم في كثير من الآيات القرآنية، وبأوصافهم وأعمالهم ووظائفهم المرتبطة بالأكوان عامة، وبالانسان خاصة، فلم يكن وجوب الايمان بالملائكة من باب الايمان بعالم لا صلة للانسان به.

كما جعل الله إنكارهم كفرا وضلالا كالكفر به، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (١).

أما الذين ذهبوا الى إنكار ما وراء المحسوسات واستبعدوا اثبات شيء لم تَرَهُ العين، أو تسمعه الأذن، أو تمسه اليد، فان رأيهم مردود عند العقلاء، ومرفوض لدى الحقائق العلمية، ذلك ان اثبات وجود الموجود لا يتوقف على الوجدان، ولا على رؤية العيان، فهناك أمور قطعية الوجود دون ان تكون مشهودة للعيان، وانما ثبت وجودها بآثارها الدالة عليها، كالروح المدبرة للأشباح، فلم يدرك أحد من البشر كنهها وذاتها ومع ذلك فلا يشك أحد في وجودها.

والعقول المدبِّرة للأجسام بانتظام وإحكام، يعرف ذلك من تصرفات العاقل وتخبطات المجنون، وكذلك الهواء الذي يملأ الفراغ والفضاء، وتتوقف عليه حياة المخلوقات من الأحياء جميعاً،

---

(١) النساء: آية ١٣٦.

اذ لو توقف بضع دقائق لما عاش انسان أو حيوان.

كل هذه كائنات موجودة لا شك في وجودها، مع أنها لم تُرَ بالأعين ولا دليل على وجودها إلا آثارها.

ومن العجيب فقد آمن الماديون بقانون الجاذبية، ومع ذلك لم ترها أعينهم، ولم تلمسها أيديهم، ولم تسمعها آذانهم، وكل ما هنالك أنهم شاهدوا آثارها فآمنوا بوجودها.

فكيف يمكن القول بعد ذلك أن الايمان لا يكون الا بمشاهد أو ملموس أو مسموع، وكل هذه الشروط والأوصاف غير منطبقة على الجاذبية، ولا على الروح والعقل؟؟؟.

وما دام ايمانهم بوجود هذه الأشياء لتحقق آثارها، وادراكهم لهذه الآثار، فان القرآن الكريم قد أشار الى وجود الملائكة وأثبت لهم أفعالا وآثارا، فقال عنهم في يوم الأحزاب: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ (١).

وقال تعالى عنهم في يوم حنين: ﴿ .. وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ (٢).

فبين أنه أنزل جنوداً لم تر العين ذواتهم، وإنما رأت أفعالهم،

---

(١) الأحزاب: آية ٩.

(٢) التوبة: آية ٢٦.

وتنكيلهم بالكافرين، جزاء لهم على كفرهم وبغيهم على حزب الله وجنده، وفي غزوة بدر أمد الله المسلمين بألف من الملائكة مردفين، قال تعالى ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [١].

وقد رأى المؤمنون أفعالهم بالمشركين، قال ابن عباس، « بينما رجل من المسلمين يشتد في إثر رجل من المشركين أمامه اذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول « أقدم حيزوم، فنظر إلى المشرك أمامه مستلقياً، فنظر إليه فاذا هو قد خطم أنفه وشق وجهه كضربة السوط، فاخضر ذلك أجمع، فجاء الانصاري فحدث رسول الله ﷺ بذلك، فقال « صدقت ذاك من مدد السماء الثالثة [٢] وقال إبليس في تلك الغزوة، وكان يغرر بالمشركين اذ تبدى لهم في صورة سراقة بن مالك بن جعشم بن مدلج، يعدهم ويمنيهم قائلاً لهم « اني جار لكم، فلما التقت الفئتان، ورأى الملائكة نكص على عقبيه [٣] وتركهم. يقول تعالى ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ

---

(١) الأنفال: آية ٩.

(٢) عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب، (مختصر السيرة) ص ٢١٠.

(٣) ابن كثير (التفسير) جـ ٢ / ٣١٧.

مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (١) .

والملائكة جنود الله لا يعلم عددهم إلا هو، وقد أشار القرآن الكريم إلى أعمالهم التي وكلوا بها من تدابير الكون بأمره تعالى، فمنهم من يتلقون أوامره وينفذون أحكامها ومقتضياتها، وفق ما أمرهم الله تعالى ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ .

ومنهم الموكلون بشئون الانسان خاصة، من حين تكوينه نطفه إلى نفخ الروح فيه بل إلى انتزاعها منه، يدل على ذلك حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال « حدثنا الصادق المصدوق »: ان احدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح... الحديث) (٢) .

ومنهم الحفظة الذين يحفظون الانسان من أمر الله ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ (٣) .

---

(١) الأنفال: آية ٤٨ .

(٢) مسلم كتاب القدر / باب كيفية خلق الآدمي... جـ ٤ / ٢٠٣٦ ح ١ .

(٣) الرعد / ١١ .

ومنهم المكلفون بمراقبته في حركاته وسكناته، ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (١).

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٢).

أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ (٣).

ومن فوائد الإيمان بالملائكة، أن الانسان إذا تيقن أن جميع أعماله الصادرة عنه مكتوبة عليه، علم ماذا ينبغي أن يقوم به تجاه مواقف الملائكة معه، ووظائفهم المتعلقة به فيرعاها حق رعايتها، وسيحسن الاملاء والالقاء، لعلمه أن كل ما يصدر عنه مسطر عليه في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وسوف يبسط ذلك الكتاب وينشر يوم الحساب، ويقال له في ذلك اليوم ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ (٤).

ونحن في هذه الدنيا إذا علمنا أن حاكم البلد أصدر أمراً يحذر

---

(١) ق آية / ١٧ - ١٨.

(٢) الانفطار / الآيات ١٠ - ١٢.

(٣) الزخرف / ٨٠.

(٤) الاسراء / ١٤.

فيه من ارتكاب أمر معين، وعلمنا أنه قد بث جواسيسه ليترقبوا حركات الناس وأن يسجلوا على كل مخالف لأمره ما عمله، بات كل انسان في حذر تام وتحفظ مستمر من كل فرد من أفراد الناس، اذ يظنه جاسوساً عليه، فكيف بك أيها المسلم، ومعك الرقيب والعتيد، اللذان لا يفارقانك طرفة عين، إلا في حالات معينة، يكونان فيها على مقربة منك بحيث يستطيعان أن يسجلا عليك كل بادرة منك صغيرة كانت أو كبيرة قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (١).

الثالث: «الايمان بالكتب»

وهو الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى أنزل على رسله كتباً مشتملة على هدى العباد مبينة لهم ما يصلح دينهم ودنياهم، موضحة ما عليهم من واجبات، وما لهم من حقوق. بها الأنظمة الشرعية، والتوجيهات الخلقية.

فمن انكر كتب الله المنزلة على رسله وكذب بها لم يعرف الله حق معرفته ولم يقدره حق قدره.

---

(١) الكهف / ٤٩.

قال تعالى ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (١).

وقال عن القرآن الكريم ﴿ الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ (٢).

بل إن منكرها كافر بالله ضال عن سبيل الهدى.

قال الله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ (٣).

الرابع: «الايمان بالرسل»

وهو الاعتقاد الجازم بان الله سبحانه وتعالى بعث في كل أمة

---

(١) الانعام / ٩١.

(٢) ابراهيم / ١.

(٣) النساء / ١٣٦.

رسولاً منهم يدلهم على الخير ويحذرهم من الشر رحمة بهم، قال تعالى ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [١].

وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فنزلنا منزلاً فمنا من يصلح خباءه ومنَّا من ينتضل [٢] ومنا من هو في جشرة [٣] اذ نادى منادي رسول الله ﷺ (الصلاة جامعه) فاجتمعنا إليه ﷺ فقال «انه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينذرهم شر ما يعلمه لهم، وان أمتكم هذه جعلت عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاء شديد وأمور تنكرونها، فتجيء فتنة فيرقق بعضها بعضاً [٤] فيقول المؤمن هذه مهلكتي ثم تنكشف، ثم تجيء الفتنة فيقول هذه هي، فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو مؤمن بالله واليوم

---

(١) فاطر / ٢٤.

(٢) (ومنا من ينتضل) «هو من المناضلة وهي المراماة بالنشاب».

(٣) هي الدواب التي ترعى وتَبِيْتُ مكانها. النهاية ١ / ٢٧٣.

(٤) فيرقق بعضها بعضاً «هذه اللفظة رويت على أوجه أحدها وهو الذي نقله القاضي عن جمهور الرواة، ويرقق أي يصير بعضها رقيقاً أي خفيفاً لعظم ما بعده، فالثاني يجعل الأول رقيقاً أ. هـ. تعليق عبدالباقي على صحيح مسلم.

الآخر وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى اليه» الحديث[1]. وسيأتي تفصيل ذلك في الفصل الرابع.

الخامس: «الايمان باليوم الآخر»

وهو الاعتقاد الجازم بأن هناك يوماً آخر يجازي فيه الانسان على ما قدمت يداه في دار الدنيا، الحسنة بعشر أمثالها، إلى أضعاف كثيرة، أما السيئة فبمثلها، قال تعالى ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[2].

وفي هذا اليوم يكون العرض والحساب، وقراءة الكتاب، والثواب والعقاب ففيه حياة غير هذه الحياة ينعم فيها الانسان أو يعذب على حسب أعماله كما دل على ذلك الكتاب والسنة، وسيأتي تفصيل ذلك في مسلك القرآن في اثبات البعث ان شاء الله.

السادس: «الايمان بالقدر»

القضاء والقدر عقيدة من عقائد الاسلام، المبنية على أساس

---

(١) مسلم كتاب الامارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول جـ ٣ / ١٤٧٣ ح٤٦.

(٢) الانعام / ١٦٠.

الايمان بالله كما جاء في حديث جبريل السابق، فقد جعل الايمان بالقـدر خيره وشره الركن السادس من أركان الايمان الستة التي هي الايمان بالله، وملائكتـه، وكتبـه ورسلـه، واليـوم الآخـر، والايمان بالقدر خيره وشره.

وهذه العقيدة مبنية على المعرفة الحقة بالله وباسمائه الحسنى ولذا فان مما ينبغي الايمان به واعتقاده أن العلم الواسع الشامل المحيط بكـل شيء لله وحده كما قال تعالى ﴿ إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ [1] وانه القادر على كل شيء الفعال لما يريد، اذ الايمان بذلك واعتقاده يجعل الانسان يحس بأن كل ما يحدث في آفاق الحياة من خير وشر وحزن وفرح، ونصر وهزيمة وخفض ورفع، واحياء واماتة، يشمله العلم الالهي، وتتصرف فيه قدرة الله المطلقة ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [2].

أي « أنك أنت المعطي وأنت المانع، وأنت الذي ما شئت كان وما لم تشأ لم يكن » [3].

---

(١) طه / ٩٨.

(٢) آل عمران / ٢٦.

(٣) ابن كثير (التفسير) جـ ١ / ص ٣٥٦.

وقال تعالى ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ (١).

ففي هذا الكتاب المبين سطر الله تعالى ما هو كائن ومن ذلك ما قضى وما قدر لكل انسان من شقاوة وسعادة ورزق، وأجل، وعمل، كما جاء في حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق الصدوق» أن أحدكم يجمع خلقه في بطن امه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات، بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد... (٢).

فخلق الانسان وتصويره وما طبع عليه من خصائص ومميزات وما كتب له من سعة في الرزق أو ضيق فيه، وحياة وموت، بل ونبض قلبه وحركاته،

كل هذه الأمور وما شاكلها، لا إرادة للإنسان فيها ولا اختيار بل تجري على وفق قضاء الله وقدره.

---

(١) يونس / ٦١.

(٢) مسلم (صحيح مسلم) كتاب القدر، باب كيفية خلف الأدمي في بطن أمه جـ ٤ / ٢٠٣٦ ح ١.

قال تعالى ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (١).

وقال تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (٢).

فالايمان بهذه الأمور واجب اذ فرغ منها كما في حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال له (يا غلام إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، اذا سألت فاسأل الله، واذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وان اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الاقلام وجفت الصحف) (٣).

تلك العقيدة السليمة بالقضاء والقدر والقائمة على الأدلة الشرعية الصحيحة المتفقة مع العقول السليمة، هي التي دفعت

---

(١) القصص / ٦٨.

(٢) آل عمران / ٥ و٦.

(٣) رواه الترمذي ٨ / ٢١٣ وقال حديث حسن صحيح والامام أحمد في المسند ١ / ٢٩٣ طالأولى ١٣١٣ هـ المطبعة الميمنية بمصر.

أولئك المؤمنين حقاً إلى العمل والجهاد في سبيله تعالى، وذلك لإيمانهم الجازم بأن ما أصاب الانسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فحينما عرفوا ذلك ايقنوا أن الإقدام لا ينقص من الاجل شيئاً، وان الإحجام لا يزيد في العمر شيئاً لذلك كان مسلكهم رائعاً وعملهم نافعاً، فلم يلجأوا الى الكسل والخمول لمعرفتهم. بما اشتمل عليه كتاب ربهم، وسنة نبيهم، من الدعوة إلى العمل، والاجتهاد فيه، ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [1].

فكان إيمانهم بالقضاء والقدر دافعاً لا مانعاً، وإلى الاستعداد للأعداء، باعداد القوة والعتاد الحربي، تمشياً مع قوله تعالى ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [2].

ولقوله ﷺ (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، إحرص على ما ينفعك واستعن بالله) [3].

---

(١) التوبة ١٠٥.

(٢) الانفال ٦٠.

(٣) مسلم / كتاب القدر باب الأمر بالقوة وترك العجز / ٤ / ٢٠٥٢ ح ٣٤.

الفصل الثاني

مسلك القرآن الكريم
في الاستدلال على وجود الله

وفيه تمهيد وثلاثة مباحث:

المبحث الأول: دليل الخلق ويشمل:

١ ـ خلق السماء.

٢ ـ خلق الأرض.

٣ ـ خلق الإنسان، وظاهرة الحياة.

المبحث الثاني: دليل العناية.

المبحث الثالث: دليل النظام.

المبحث الرابع: مسلك المتكلمين والفلاسفة في إثبات وجود الله.

تمهيد :

معرفة الله والإقرار بوجوده غريزة فطرية في الإنسان، إذ كل واحد من بني آدم يقر بوجود الخالق ويعترف به، أما ما يظهر على بعض الملحدين من الكفر بالله والاستهزاء بمن دعاهم إلى عبادته، فإن ذلك لا يعني الكفر المطلق المبني على اليقين الكامل، وإنما هو انحراف في الطبيعة الإنسانية، وتحويل للغريزة الفطرية المتجهة إلى الخالق الحق إلى عبادة المخلوقات الأخرى، ولذا فإننا نجد ذلك الملحد يستعمل سبل المغالطات والتفسيرات الخاطئة للأشياء تضليلا وتمويها على السذج من أتباعه، وقد صوّر لنا القرآن الكريم قصة أكبر مغالط ملحد بلسانه غير جازم بقلبه، ذلك المغالط هو فرعون الذي استخف قومه فأطاعوه، فحينما جاءه موسى عليه السلام بالبينات والهدى ودعاه إلى عبادة رب الأرض والسماء، ورب العالمين جميعا، كما أمره الله تبارك وتعالى

بقوله: ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1].

استكبر فرعون، وجحد رب العالمين، بل ادعى أنه لا يعلم لقومه إلهاً غيره قال تعالى على لسانه: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[2] وقد أخبر المولى عز وجل عنه أن ذلك الإنكار الصادر منه مغالطة بلسانه، وأنه غير مطابق للحقيقة المستقرة في نفسه، قال الله تعالى على لسان موسى عليه السلام مخاطبا فرعون: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾[3] فالانحراف والميل عن الخط السوي أمر طارىء على البشرية، وذلك حين فساد الفطرة[4]. لأن البرهان على وجود الخالق حقيقة محسوسة وأمر واضح غاية الوضوح إذ الإنسان

---

(١) الشعراء: آية ١٦.

(٢) الشعراء: آية ٢٣.

(٣) الاسراء: آية ١٠٢.

(٤) وما قررناه من أن الإقرار بوجود الخالق أمر فطري، وهو الأصل الذي نشأ عليه الإنسان، وأن الانحراف أمر طارىء على الإنسانية، وذلك حين فساد الفطرة، هو ما قرره الغزالي في كتابه (إحياء علوم الدين جـ ١ ص ٩٣ و ٩٤ مطبعة شركة دار الكتب العربية الكبرى بمصر) وشيخ الإسلام بن تيمية في كتابه (منهاج السنة وحكاه عن الجمهور جـ ٢ ص ٢٠٢ تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم، مطبعة المدني القاهرة سنة ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢ م) وابن القيم في كتابه (إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، تحقيق محمد سيد كيلاني الطبعة الأخيرة سنة ١٣٨١ هـ ١٩٦١ م). جـ ٢ ص ١٥٢.

يعيش، ويحيا في هذا الكون، فيشاهد في نفسه، وفي الأشياء من حوله تغيراً مستمراً، إذ تنعدم أشياء وتوجد أخرى كما يشاهد دقة وتنظيما [1] في كل ما يرى ويلمس فيصل من هذا عن طريق الإدراك الحسي إلى أن لهذه الأشياء موجداً أوجدها ومنسقاً لسيرها وحركاتها أراد ذلك منها، وهذا أمر طبيعي جدا غير بعيد عن فهم أي إنسان مهما كان إدراكه، فإذا شاهد الإنسان بيتا منظماً ومنسقاً، أو سمع صوتاً، أو أحس بضربة سوط، ولم ير الضاربَ أو الباني أو صاحب الصوت فإنه يوقن أن لهذا البيت

---

(١) يقول كلودم: هاشاوي، مستشار هندسي، ومصمم العقل الألكتروني للجمعية العلمية لدراسة الملاحة الجوية بمدينة لانجلي فيلد، اخصائي الآلات الكهربية والطبيعة للقياس تحت عنوان ـ المبدع الأعظم ـ قال: أما من حيث الأسباب الفكرية التي تدعوني إلى الإيمان بالله، فإنني أحب أن أبدأ بذكر الحقائق التي لا سبيل إلى إنكارها.. وهي أن التصميم يحتاج إلى مصمم.

وقد دعم هذا السبب القوي من أسباب ايماني بالله ما أقوم به من الأعمال الهندسية فبعد اشتغالي سنوات عـديـدة في عمـل تصميمات لأجهـزة وأدوات كهربية، ازداد تقديري لكل تصميم أو إبداع أينما وجدته، وعلى ذلك فإنه مما لا يتفق مع العقل والمنطق أن يكون ذلك التصميم البديع للعالم من حولنا إلا من إبداع إله أعظم لا نهاية لتدبيره وإبداعه.. حقيقة أن هذه طريقة قديمة من طرق الاستدلال على وجود الله ولكن العلوم الحديثة قد جعلتها أشد بيانا وأقوى حجة منها في أي وقت مضى اهـ. من كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) ترجمة الدكتور الدمرداش عبدالمجيد سرحان ص ٨٩ الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٨ م.

بانيا، وأن هذا الصوت صادر عن شيء سواء أكان رجلا أو حيوانا، أم آلة، وأن تلك الضربة حدثت من ضارب، فكان وجود الشيء الذي نتج عنه بناء البيت، أو ظهور الصوت، أو حدوث الضرب أمرا قطعيا عند من شاهد البيت أو سمع الصوت أو أحس بالضرب، إذ قام البرهان الحسي على وجوده، فالاعتقاد بوجود سبب أوجد هذه الظواهر أمر مسلم به عند العقلاء.

فكذلك الإنسان يشاهد تغير الأشياء الموجودة فتنعدم أشياء ويحدث غيرها كما انه يرى النظام البديع في العالم، والدقة المتناهية في سير بعض المخلوقات وترتيب حركاتها وضبط مواعيدها، فيدرك أن هذا الإبداع وذلك النظام وذاك التغير لا يمكن أن يحدث من نفس تلك الأشياء، لأنها عاجزة عن إيجاده، كما أنها عاجزة عن دفعه كل ذلك يدعوه إلى الإيمان بوجود خالق لهذه الموجودات، قائم بتدبيرها، منظم لها.

ومن هنا نرى أن وجود هذا الخالق الذي دل عليه وجود هذه الأشياء من الأمور القطعية، الذي يدل عليه الدليل الحسي، يشهد لذلك قول ذلك الأعرابي القائل (البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، ليل داج، ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، أفلا تدل على الصانع الخبير)[1] فقد أدرك هذا الأعرابي بفطرته السليمة

---

(١) أحمد الهاشمي، جواهر الأدب من خطبة قس بن ساعدة جـ ٢ ص ١٩ الطبعة =

التي فطره الله عليها أن هذه المخلوقات العظيمة التي تسير بانتظام وإحكام، ليل يعقبه نهار، ونهار يعقبه ليل، لا يمكن أن تحدث إلا بمُحدِث، وأن لا تسير بهذا النظام المتقن إلا بمقدر مختار، ولذلك جاءت براهين القرآن الكريم لافتة النظر إلى ما يقع عليه حس الإنسان للإستدلال بذلك على وجود الخالق ثم عبادته وحده كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ (٢)، وقوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ (٣).

وهكذا نرى أن قضية الخلق والإيجاد وإن كانت قضية جافة على الصعيد الفلسفي، فهي بدهية على الصعيد الحسي لا تحتاج إلى برهان، لأنها من ضرورات الفطرة ولذا فإن القرآن الكريم يطرحها على المخاطبين كقضية مسلمة لا تحتاج إلى استدلال، ولا تحتمل الجدل والمماراة، انظر إلى قوله تعالى مخاطبا الرسول ﷺ:

= التاسعة عشر ١٣٧٩ هـ والجاحظ، البيان والتبيين جـ ١ ص ١٦٣ طبعة سنة ١٩٦٨ م.

(١) الغاشية: آية ١٧.

(٢) الطارق: آية ٥ ـ ٧.

(٣) الطور: آية ٣٥ ـ ٣٦.

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ (١)، والخطاب وإن كان موجها إليه فهو لأمته جميعا، والمخاطبون حين نزول القرآن يعرفون ربهم الذي خلقهم كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (٢)، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (٣). وإنما كان انحرافهم في العبادة فيجعلون مع الله آلهة أخرى يعتقدون فيها النفع والضر، كما قال تعالى حكاية عنهم في إنكارهم على محمد ﷺ دعوته الى توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة وترك عبادة الآلهة المزعومة: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ (٤)، وإن وجد في ذلك الوقت قلة ممن فسدت فطرتهم الى أن اعتقدوا أن التأثير في الحياة والممات إنما هو من الدهر، قال تعالى حكاية عنهم: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ (٥)، ولكن الله تبارك وتعالى بيّن أن قولهم هذا قول بلا علم، وإنما هو مبني على الظن، والظن لا يغنى من الحق شيئا، قال تعالى: ﴿ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ (٦)، كما طالبهم بالدليل

---

(١) العلق: آية ١.

(٢) العنكبوت: آية ٦١.

(٣) الزخرف: آية ٨٧.

(٤) ص: آية ٥.

(٥) الجاثية: آية ٢٤.

(٦) الجاثية: آية ٢٤.

على اعتقادهم الفاسد ودعواهم الباطلة، وهي قولهم: انهم خلقوا من غير شيء، فقال: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾[1]

ولما كان القرآن الكريم آخر الكتب السماوية، والرسول الذي أنزل عليه هذا الكتاب خاتم الرسل، والدين الإسلامي خاتم الأديان، ولن يقبل من أحد التدين بسواه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[3]، كان لا بد أن يشتمل هذا الكتاب على الحجج والبراهين القاطعة التي تقمع شبهة كل منحرف أو معاند في كل زمان ومكان. وكذلك كان. قال تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾[4]. فإذا قامت للإلحاد دولة في أي عصر من العصور وأنشأت له مناهج وأعدت له مدارس لتعليم الناس الإلحاد، وأنه لا إله والحياة مادة، وجد في القرآن الكريم الأدلة القاطعة التي تبين للعقلاء أن للمادة إلهاً، وأن الحياة من صنع هذا الإله ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[5].

وإليك أدلة القرآن القاطعة التي تدحض شبه المنحرفين عن صراط الله المستقيم.

---

(١) الطور: آية ٣٥.
(٢) آل عمران: آية ١٩.
(٣) آل عمران: آية ٨٥.
(٤) الأنعام: آية ٣٨.
(٥) ابراهيم: آية ١٠.

أدلة القرآن

أولا: دليل الخلق:

ودليل الخلق والإبداع الذي يعرضه القرآن بالأساليب المختلفة والطرق المتعددة شامل لجميع مخلوقات الله كلها، العظيم منها والحقير، وقد بين القرآن الكريم في تلك المخلوقات مظاهر قدرة الله وعظيم حكمته وواسع رحمته، كما أوضح فيها أن القادر على الخلق هو الرب، وهو المعبود، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[1]، بل إنه بقضية الخلق تحدى المشركين، الذين اتخذوا آلهة معبودة من دون الله أن يدعوا هذه الآلهة لتخلق أقل موجود وأحقره فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾[2]، بل بين أنه لو سلبهم الذباب شيئا مما بأيديهم لما استطاعوا انقاذه منه، ولو اجتمعوا له، وكفى بذلك عجزا، فقال تعالى: ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾[3].

وقد تجلت آية الخلق والإبداع في أضخم مجالي الوجود، وهما

(١) البقرة: آية ٢١.

(٢) الحج: آية ٧٣.

(٣) الحج: آية ٧٣، ٧٤.

خلق السموات والأرض، وفي أعظم الظواهر الناشئة عن ذلك الخلق، كالظلمة، والنور يقول تعالى مادحا نفسه الكريمة على خلقه السموات والأرض قرارا لعباده وعلى أن جعل الظلمات والنور منفعة لهم في ليلهم ونهارهم. ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾[١] أي ومع هذه العناية واللطف بهم كفر به بعض عباده فجعلوا له شريكا وعدلا[٢].

١ - خلق السماء:

وقد تحدث القرآن الكريم عن خلق السماء فبين أنها جرم خلقه الله تعالى وبناه ورفعه، وأنها محكمة في صنعها ليس فيها خلل ولا تصدع مرفوعة بأمر خالقها محفوظة بقدرته، وأنها آية من آيات الله الكبرى المعروضة على الأنظار المصاحبة للواقع المشهود للنظر فيها بعين البصيرة لا بالبصر المجرد، حتى يأخذ المخاطب منها الدليل على وجود خالقها ومتقن صنعها فيعبده وحده. يقول تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾[٣]، ويقول تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴾[٤]، ولكونها آية دالة على وجود مبدعها وإتقان صانعها، فقد أثنى على

(١) الانعام: الآية ١.
(٢) ابن كثير (التفسير ٢/١٢٣).
(٣) ق: الآية ٦
(٤) النازعات: الآية ٢٧ - ٢٨.

المتفكرين فيها فقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[١]، فتأملهم في خلق السموات والأرض وما اشتملتا عليه من آيات دالة على قدرة موجدها، أدى ثمرته المطلوبة كما رسمته الآية الكريمة إذ رتبت النتائج على مقدمات التفكر دون فاصل بينهما، فتفكرهم دعاهم الى ذكره تعالى في كل حالة من حالاتهم، قياما وقعودا وعلى جنوبهم، ثم علموا أن هذه المخلوقات لا يمكن أن توجد عبثا، ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾ فنقلهم ذلك التفكر الواعي في هذا الكون وفي بديع صنعه إلى الإيمان بالله وبما وراء هذا العالم المشاهد وهذه الحياة الحاضرة ولذلك طلبوا من ربهم وخالقهم وقايتهم من عذاب النار، خوفا من الخزي والعار ﴿ سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ يقول سيد قطب في تفسير هذه الآية (هذه هي طريقة المنهج الرباني في التوجيه للانتقال من مرحلة التأثر الوجداني بالتفكر والتدبُّر في خلق الله، إلى مرحلة العمل الإيجابي وفق هذا التأثر تحقيقا للمنهج الذي أراده الله)[٢].

---

(١) آل عمران: الآية ١٩٠ - ١٩١.

(٢) سيد قطب: في ظلال القرآن جـ٤ ص ١٩٤.

كما ذم المعرضين عنها، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾(٢).

أي لا يتفكرون فيما خلق الله فيها من الاتساع العظيم، والارتفاع الكبير، وما زينت به من الكواكب الثوابت والسيارات، في ليلها ونهارها، ومن هذه الشمس التي تقطع الفلك بكامله في يوم وليلة فتسير غاية لا يعلم قدرها إلا الله الذي سخرها وسيرها(٣).

كما أوضح القرآن أن الله هو الممسك لهذه السموات، والحافظ لها من الزوال مع عظمها وعظم ما فيها بغير عمد تعتمد عليها، بل بقدرته تعالى العظيمة التي يفعل بها ما يشاء لطفا بعباده ورحمة بهم وليس لغيره من الكائنات قدرة علي ذلك يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾(٤).

---

(١) الأنبياء: آية ٣٢.
(٢) يوسف: آية ١٠٥.
(٣) ابن كثير (التفسير جـ٣ ص ١٧٨).
(٤) فاطر: آية ٤١.

ويقول تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾[2].

هذا ما أشار إليه القرآن الكريم عن حفظ الله تعالى لهذه الأحجام الهائلة بهذا التوازن العجيب، الذي يدركه الحس ويؤيده العقل والواقع.

أما العلم فيقول: ان هذا الإمساك يحصل بقوة الجاذبية التي شاهد العلماء آثارها وعرفوا قوانينها التي لم يعرفوا بعد أسرارها.

يقول الشيخ نديم الجسر: والحق ما قالوا فالجاذبية حق وقوانينها المحسوبة المتزنة المتناسبة المحكمة الدقيقة حق، ولكن هل يكون القانون الدقيق المحكم أثرا من آثار المصادفة العمياء؟ ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[3].

---

(١) الرعد: آية ٢.

(٢) لقمان: آية ١٠.

(٣) نديم الجسر، قصة الإيمان ٣١١ الطبعة الثالثة سنة ١٣٨٩ هـ ١٩٦٩ م.

هذا وقد تحدث ابن القيم في كتابه (مفتاح دار السعـادة) عـن آيات الله الدالة على وجوده وقدرته وحكمته، في خلقه السموات وإبداع صنعها، وما هي عليه من سعة وعظم خلق وحسن بناء، كما بين أنها أجمع للعجائب الدالة على وجود خالقها من كل المخلوقات الأخرى بـل إنـه لا نسبـة لجميـع مـا في الأرض إلى عجـائـب السموات، فقال: فالأرض والبحار والهواء وكل ما تحت السموات بالإضافة الى السموات كقطرة في بحر ولهذا قلّ أن تجيء سورة في القرآن إلا وفيها ذكرها.

إما إخباراً عن عظمتها وسعتها [1]. وإما إقساما بها. وإما إرشاداً للعباد أن يستدلوا بها على عظمة بانيها ورافعها. وإما دُعَاءً إلى النظر فيها.

---

(١) يقول تعالى: ﴿والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون﴾ الذاريات آية ٤٧. فقد تحدثت هذه الآية الكريمة عن سعة السماء وما اكتشفه العلم اليوم عن السماء وأبعادها لم يكن يخطر على قلب بشر، وقد أثبت العلم تلك السعة بما يعرف عند العلماء بالسنين الضوئية والتي اتفق العلماء فيها على أن الضوء يقطع في الثانية ١٨٦ ألف ميل أي إنه يقطع في الدقيقة ١١ مليون و ١٦٠ ألف ميل وفي السنة الواحدة من سنينا يقطع ستة ملايين مليون ميل أو ستة آلاف مليار تقريبا وعلى هذا التقدير نفهم معنى قولهم إن نجما ما يبعد عنا كذا سنة ضوئية ا هـ، قصة الإيمان، لنديم الجسر ص ٣٠٤.

وإما استدلالاً منه سبحانه بخلقها على ما أخبر به من المعاد والقيامة.

وإما استدلالاً منه بربوبيته لها على وحدانيته وأنه الله الذي لا إله إلا هو.

وإما استدلالاً منه بحسنها واستوائها والتئام بنائها وعدم الفطور فيها على تمام حكمته وقدرته.

وكذلك ما فيها من الكواكب والشمس والقمر والعجائب التي تتقاصر عقول البشر عن قليلها، فكم من قسم في القرآن بها كقوله والسماء والطارق، والسماء ذات البروج والشمس وضحاها، والقمر اذا تلاها، والنجم اذا هوى، فلا أقسم بالخنس والنجم الثاقب، فلم يقسم بشيء من مخلوقاته أكثر من السماء والنجوم والشمس والقمر، وهو سبحانه يقسم بما يقسم به من مخلوقاته لتضمنه الآيات والعجائب الدالة عليه، وكل ما كان أعظم آية وأبلغ في الدلالة كان إقسامه به أكثر من غيره ولهذا يعظم هذا القسم كقوله ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[1].

---

(١) ابن القيم (مفتاح دار السعادة جـ ١ ص ١٩٦ و ١٩٧ بتصرف الناشر مكتب الرياض مكتبة الرياض الحديثة.

ويقول سيد قطب في ظلال القرآن:

(ولم يكن المخاطبون يومذاك يعرفون عن مواقع النجوم إلا القليل الذي يدركونه بعيونهم المجردة، ومن ثم قال لهم ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾. فأما نحن اليوم فندرك من عظمة هذا القسم المتعلقة بالمقسم به. نصيباً أكبر بكثير مما كانوا يعلمون، وإن كنا نحن أيضا لا نعلم إلا القليل من عظمة مواقع النجوم. وهذا القليل الذي وصلنا إليه بمراصدنا الصغيرة المحدودة المناظر، يقول لنا إن مجموعة واحدة من مجموعات النجوم التي لا تحصى... هي مجموعة المجرة التي تنتسب إليها اسرتنا الشمسية تبلغ ألف مليون نجم)[1].

ويقول الفلكيون إن من هذه النجوم والكواكب التي تزيد على عدة بلايين نجم، ما يمكن رؤيته بالعين المجردة، وما لا يرى إلا بالمجاهر والأجهزة، وما يمكن أن تحس به الأجهزة دون أن تراه، هذه كلها تسبح في الفلك الغامض، ولا يوجد أي احتمال أن يقترب مجال مغناطيسي لنجم من مجال نجم آخر أو يصطدم بكوكب آخر، إلا كما يحتمل تصادم مركب في البحر الأبيض المتوسط بآخر في المحيط الهادي يسيران في اتجاه واحد وبسرعة

---

(١) سيد قطب في ظلال القرآن جـ٧ ص ١٤٣، ١٤٤.

واحدة، وهو احتمال بعيد، وبعيد جدا، إن لم يكن مستحيلا[1].

وكل نجم في موقعه المتباعد عن موقع إخوته قد وضع هناك بحكمة وتقدير.

٢ - خلق الأرض:

ولما كانت طريقة القرآن التي سلكها لبناء العقيدة أن يأخذ الشاهد على وجود الخالق ووحدانيته من مألوفات البشر وحوادثهم المشاهدة المتكررة ليؤكد العقيدة ويثبت قواعدها، بذلك التصور الكامل للوجود كله فلذلك نجده يلفت نظر الإنسان المقصود بتلك الهداية إلى آيات الله العظيمة في خلقه الأرض وما أودع فيها من آيات، والتي إذا تأمل فيها الناظر بفكره وعقله، علم أنها من أعظم آيات فاطرها كما قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾[2]. فقد خلقها الله فراشا ومهادا وذللها لعباده فيسر لهم فيها أرزاقهم وأقواتهم ومعايشهم وجعل لهم فيها السبل ليتمكنوا من التنقل فيها لقضاء حوائجهم وتصرفاتهم، كما أرساها بالجبال لئلا تميد بهم[3] فتضطرب حياتهم، ودحاها فمدها وبسطها

(١) سيد قطب في ظلال القرآن جـ ٧ ص ١٤٤ نقلا عن كتاب الله والعلم الحديث ص ٣٣.

(٢) الذاريات: آية ٢٠.

(٣) يقول ابن كثير وقوله (وجعلنا في الأرض رواسي) أي جبالا أرسى الأرض =

ووسع أكنافها فجعلها كفاتا للعالم، أحياء وأمواتا [1].

وقد أكثر الله تعالى من ذكرها في كتابه ودعا الناس إلى النظر إليها والتفكر في خلقها وفيما أودعه فيها من آيات وما بث فيها من خيرات، وذكرهم بما في هذا الخلق من دلائل القصد والحكمة، وبيَّن أنه هو الخالق لذلك كله، وليس لمن اتخذوهم آلهة من دونه قدرة على ذلك يقول تعالى ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ [2].

فقد بيَّن سبحانه في هذه الآية قدرته العظيمة على خلق السموات والأرض وما فيها، كما بين أنه هو الرازق لجميع مخلوقاته، وإذا كان الخلق كله إليه، ولا رازق لأحد سواه، فعبادة المشركين لهذه الأصنام التي ليس لها من الأمر شيء ظلم واعتداء على حق خالقهم، إذ يخلق ويعبد غيره، ويرزق ويشكر

= بها وقررها وثقلها لئلا تميد بالناس أي تضطرب وتتحرك فلا يحصل لهم قرار عليها لأنها غامرة في الماء إلا بمقدار الربع فإنه باد للهواء والشمس ليشاهد أهلها السماء وما فيها من الآيات الباهرات والدلالات ولهذا قال: (أن تميد بهم) أي لئلا تميد بهم ا. هـ. تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ١٧٧.

(١) ابن القيم (مفتاح دار السعادة) جـ ص ١٩٩.

(٢) لقمان: آية ١٠ ـ ١١.

سواه وأي جهل وعمى أوضح من ذلك[1]. كما حثهم على النظر فيها فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[2].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾[3].

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾[4].

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[5].

إن مَنْ يتأمل في هذه الآيات يلمس منها أن طريقة القرآن

---

(١) ابن كثير (التفسير جـ ٣ ص ٤٤٣).
(٢) الغاشية: آية ١٧ - ٢٠.
(٣) الشعراء: آية ٧، ٨.
(٤) طه: آية ٥٣، ٥٤.
(٥) النمل: آية ٦١.

لتكوين العقيدة وتثبيتها هي مخاطبة الفطرة البشرية بما هو في متناول كل فرد من المواد الأولية، إذ من هذه المشاهدات التي يراها الإنسان يبنى القرآن العقيدة وسنكتفي مما تضمنته الأرض من آيات دالة على وجود خالقها ومبدع صنعها ووحدانيته بنماذج من الآيات التي تدعو الإنسان إلى النظر فيها وهي مكررة أمامه، في كل لحظة من لحظات حياته، وهو غافل لا يلقي لذلك بالا، ولو تأمل فيها كما دعاه خالقه لكفاه آية على وجود خالقه ووحدانيته جل شأنه، فمن تلك النماذج:

أولا: قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَآئِقَ غُلْبًا وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾[1].

فطعام الإنسان ألصق شيء بحياته اليومية، هل نظر فيه؟ وهل نَظَر في مراحله التي مر بها حتى أصبح في متناول يده؟ وما دوره هو في إنشائه؟

هذه الآيات **تدعو الإنسان الى النظر في طعامه**، هذا الأمر الضروري المكرر الذي أصبح ليسره وَإلفه غير منظور إلى دلالته على القدرة التي أبدعته ويسرته، **ثم ترسم له خطوات سير طعامه**

(١) عبس: آية ٢٤ - ٣٢.

مرحلة **بعد أخرى** ليرى هل له فيها من يد؟ ثم تصل به إلى القدرة الإلهية التي تجعل من الشيء الواحد أنواعاً مختلفة، اذ أن التربة الواحدة قد سُقِيتَ بماء واحد ومع ذلك أنبتت تلك الأنواع المختلفة من الحبوب والفواكه والثمار.

فالخطوة الأولى:

صب الماء على الأرض وكل إنسان يعرف نزول المطر من السماء لا فرق بين إنسان وآخر فساكن القرية والمدينة كل منهما يعرف ذلك كما يعرفه ساكن الكوخ في الصحراء فهي حقيقة يخاطب بها كل إنسان.

أما الخطوة الثانية:

فهي شق الأرض بالنبات الطالع منها، فكما يشاهد الإنسان المطر النازل من السماء على الأرض، فكذلك يشاهد الأرض وهي تنشق عن النبات الصاعد منها فتأتي بخيراتها المختلفة الأنواع، والألوان والطعوم، من الحبوب والكروم والنخيل والفواكه الدالة على القدرة الإلهية التي جعلت من هذه التربة الواحدة والماء الواحد تلك الأنواع المتباينة في الشكل والحجم واللون والطعم والخواص.

يوضح ذلك ويبينه ما في النموذج التالي من الآيات:

ثانياً: وهو قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[1].

يخبر سبحانه وتعالى، عن قدرته في خلق الأرض وأنه هو الذي مدها وبسطها لعباده فجعلها متسعة ممتدة، كما بين أن من دلائل وجوده ورحمته بعباده أن جعل في الأرض رواسي، جبالا ترسيها، وتحفظها لئلا تميد بأهلها فلا تستقر حياتهم كما جعل في هذه الأرض أنهاراً وجداول وعيوناً جارية في وديانها لتسقي الناس والحيوان والزروع وكل ما تُنبتُ الأرض من الثمرات، ومن آياته أن جعلَ فيها من كل الثمرات صنفين اثنين، أي من كل شكل صنفان كما يقول ابن كثير[2] أو (من كل زوجين اثنين) أي أن النبات يتألف من ذكر وانثى[3] كما ينقل سيد قطب ونديم الجسر،

---

(١) الرعد: آية ٣، ٤.

(٢) ابن كثير: (التفسير جـ ٢ ص ٥٠٠).

(٣) يقول سيد قطب: «قوله ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين» يتضمن =

ثم يخبر تعالى بأن من آياته الدالة على قدرته تقلب الليل والنهار يغشى أحدهما الآخر، إذ يغطي الليل النهار بظلمته، ليستريح الناس ويهدؤوا ثم يخلفه النهار بنوره ليبتغي الناس من فضله ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [1]. وقد ختم الآية بقوله ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في آلاء الله وحكمه ودلائله لأنه لا يدرك تلك الآيات إلا من أعمل فكره فيها.

أما الآية التالية فقد شملت أنواعاً من الآيات الدالة على

= هذا المشهد من مشاهد الأرض حقيقة لم تعرف للبشرية من طريق علمهم وبحثهم إلا قريباً. وهي أن كل الأحياء وأولها النبات تتألف من ذكر وأنثى حتى النباتات التي كان مظنوناً أن ليس لها من جنسها ذكور، تبين أنها تحمل في ذاتها الزوج الآخر، فتضم أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث مجتمعة في زهرة أو متفرقة في العود. وهي حقيقة تتضامن مع المشهد في إثارة الفكر إلى أسرار الخلق. بعد تملي ظواهره ا. هـ. ظلال القرآن جـ ٥ ص ٧١ - ٧٢، قلت: ولعل الذي يعنيه من اكتشاف التذكير والتأنيث في عموم النبات، وإلا فالأصل معروف قديماً كما في قصة تأبير النخل، وفي قصة الإيمان لنديم الجسر ص ٣٧٧، ٣٧٨، ينقل تقرير هنري برغون، نفي المصادفة في ذلك التماثل والاطراد الشامل في نظام الزوجية لجميع الأحياء من الحيوانات والنبات إذ كيف اتفق ان اخترع الحيوان الذكورة والأنوثة ووفق النبات الى الطريقة نفسها وبالمصادفة نفسها.

(١) القصص: آية ٧٣.

الوجود الإلهي وهي آيات تحرك الحس والشعور بما تضمنته من دلائل حسية وعقلية ووجدانية، يقول تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ﴾[1].

فالأمر المحسوس المشهود للناس أن هذه الأرض التي يعيشون عليها فيها أماكن يتصل بعضها ببعض، ومع هذا الاتصال فهي مختلفة الطبيعة فمنها السوداء الجيدة التربة ومنها السبخة، ومنها الرملية، ومنها الصخرية، مع أن الاتصالات والتأثيرات الخارجية في تلك القطع على السوية فدل هذا على أن اختلافها في صفاتها بتقدير العليم القدير[2].

ولذلك توجد في هذه القطع المتجاورات من الأرض بساتين وحدائق فيها العنب والزرع والنخيل الصنوان[3] - المتماثل وغير المتماثل - وتلك الأصناف المختلفة تكون في القطعة الواحدة من

(١) الرعد: آية ٤.

(٢) الفخر الرازي «التفسير الكبير جـ١٩ ص٧».

(٣) الصنوان: هي الأصول المجتمعة في نبت واحد كالرمان والتين وبعض النخيل، وغير الصنوان ما كان على أصل واحد كسائر الأشجار (تفسير ابن كثير جـ٢ ص٥٠٠ قال: وقال سفيان الثوري وشعبة عن أبي إسحاق عن البراء رضي الله عنه الصنوان: أي النخلات في أصل واحد، وغير الصنوان: المتفرقات. قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وغير واحد، وهو قول الزمخشري في الكشاف جـ٢ ص٣٤٩، وفي المفردات في غريب القرآن للأصفهاني.

تلك الأرض وهي تسقى بماء واحد، فالأم واحدة والغذاء واحد، ومع ذلك يأتي الخلاف الكبير في ثمارها، فمنها الحلو ومنها المر، كما أنها تـأتي مختلفـة الألـوان والأحجـام فمنهـا الأحمر ومنهـا الأصفر، ومنها الأبيض، ومنها الكبير ومنها الصغير، فمن الذي أعطى كل مخلوق في هذه القطعة شكله ولونه وطعمه غير القدرة الإلهية التي منحت الحلو حلاوته وأعطت الحامض طعمه، إذ لو كان الأمرُ أمْرَ طبيعة وأنه ينشأ عن طبيعة الأشياء لما وجد هذا الاختلاف الواسع، إن في ذلك آيات لمن كان واعياً، بل إن هذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار الذي بقدرته وإرادته فاوت بين الأشياء ونوّع ولذلك ختمت الآية بالإشارة الى أن تلك الأمور المختلفة الناتجة عن شيء واحد آيات لقوم يعقلون حجج الله وآياته في مخلوقاته.

ثالثاً ـ النموذج الثالث:

يقول الله تعالى ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ . نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا

﴿تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾[1].

في الأنموذجين السابقين أوضحت الآيات قدرة الله وعظيم حكمته وواسع رحمته إذ جعل هذا الكون مهيئاً لعباده سهلا لسيرهم فيه وتقلباتهم في أرجائه فالأرض ممهدة مفروشة مثبتة بالرواسي، قد فتح لهم فيها السبل وشق لهم فيها الأنهار والعيون وأجرى عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، فأنبت لهم في هذه الأرض كل الثمرات، وبين لهم في ذلك عموم قدرته المبدعة التي تغاير بين الأشياء الناتجة عن المصدر الواحد والطبيعة الواحدة، ودعاهم الى النظر والتفكر في ذلك إذ أن تلك الآيات الغريبة العجيبة داعية لإعمال الفكر والعقل كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فانه لا يستفيد منها إلا من أعمل فكره وعقله.

وهذا النموذج من الآيات هو أيضاً يقرر الحقيقة السابقة ولكن بأسلوب وطريقة أخرى، فإن القرآن الكريم وهو يدعو لإثبات قضية واحدة، هي قضية العقيدة التي استغرقت من القرآن أكثره، لم تأت دعوته مكررة، وإنما قد غاير في التعبير والأسلوب، وكان ذلك من دلائل إعجازه.

وقد تضمنت هذه الآيات أموراً محسوسة مشاهدة، بل هي

---

(١) الواقعة: آية ٦٣، ٧٤.

ألصق الأشياء بحياة المخاطبين، الزرع والماء، والنار، فأيّ إنسان في أية بيئة لم تدخل هذه الأمور في مشاهدته (أفرأيتم ما تحرثون) احتجاج بما يباشرونه بأنفسهم من حرث الأرض وإلقاء البذور التي خلقها الله فيها، إذ يوجه لهم هذا الخطاب بصورة الاستفهام التقريري عن دورهم في إثبات تلك البذور وحفظها إلى أن تؤتى ثمارها (أأنتم تزرعونه) أي تنبتونه (أم نحن الزارعون) الذين فعلنا ذلك بقدرتنا وإرادتنا، أما أنتم فلم يكن لكم من عمل في ذلك إلا الحرث وهو شق الأرض وإلقاء البذور فيها، فذلك هو دوركم في هذا الزَّرع الذي فيه طعامكم والذي به قوام حياتكم ثم بعد ذلك تتركونه ليد القدرة المبدعة، فهي التي تنشئه، إذ تأخذ الحبة والبذرة طريقها فتسير سير الخبير العارف بمسالك الطريق، إلى الهدف المرسوم الذي قدر لها خالقها (أم نحن الزارعون) إن ذلك من صنعنا وبإرادتنا إذ لو شئنا (لجعلناه حطاماً) قبل أن يؤتي ثماره ولو وقع ذلك لظلتم تفكهون في المقالة أي تُلَونون الحديث فتارة تقولون (انا لمغرمون) وتارة تقولون (بل نحن محرومون)[1].

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾.

---

(١) ابن كثير (التفسير جـ ٤ ص ٢٩٦).

ذلك أن الماء أصل من أصول الحياة ويحتاج إليه كل حي كما قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾[2]. من الذي أنشأ هذا الماء فكون عناصره، من الذي أنزله من السحاب عذباً تشربونه وتسقون منه أنعامكم وزروعكم؟ وقد خصه الله تعالى بوصف من أهم منافعه المتعلقة به وهو الشرب (أأنتم أنزلتموه من المزن) أم نحن الذين أنزلناه من تلك المزن وهو السحاب المسخر بين السماء والأرض بقدرتنا وجعلناه عذباً زلالا مستساغ الطعم بمشيئتنا فلو شئنا لجعلناه أجاجاً، مالحاً لا يستساغ طعمه غير صالح لشرب ولا لإنبات زرع، فهلا تشكرون الله الذي أنعم عليكم بإنزاله المطر عذباً زلالا.

يقول سيد قطب «والمخاطبون ابتداء بهذا القرآن كان الماء النازل من السحاب في صورته المباشرة مادة حياتهم وموضع احتفالاتهم... ولم تنقص قيمة الماء بتقدم الإنسان الحضاري، بل لعلها تضاعفت.

والذين يشتغلون بالعلم ويحاولون تفسير نشأة الماء الأولى أشد شعوراً بقيمة هذا الحدث من سواهم، فهو مادة اهتمام للبدائي في الصحراء وللعالم المشتغل بالإبحاث سواء[3].

(١) النور: آية ٤٥.
(٢) الأنبياء: آية ٣٠.
(٣) سيد قطب (في ظلال القرآن) جـ ٧ ص ١٤٢.

والنار أمس الأشياء بحياة الإنسان اليومية، فلا تقوم أمور الناس إلا بها وهي التي يوريها الإنسان ويقدحها فيستخرجها من أصلها، أهو الذي أنشأ شجرتها المودعة فيها؟

أفرأيتم النار التي تورون، أأنتم أنشأتم شجرتها، أم نحن الذين أنشأناها لطفاً بكم إذ لا تقوم حياتكم إلا بها، كما جعلناها تذكرة لكم بنار الآخرة، ليحاسب كل إنسان نفسه، إذ لا طاقة له بهذه النار التي هي جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم كما جاء ذلك عن المصطفى[1] ﷺ، وكما جعلنا النار تذكرة لكم بنار الآخرة، وجعلناها أيضاً متاعاً للمقوين ـ أي ـ المسافرين لأنهم في أمس الحاجة إليها من المقيمين.

وبعد هذا العرض لهذه الدلائل الإيمانية الدالة على وجود الخالق جل وعلا الميسر فهمها وإدراكها للمخاطبين بها في كل بيئة وعلى أي مستوى، إذ أنه خطاب للفطرة البشرية، مِمَّنْ يعلم خصائصها يلتفت الى الرسول ﷺ وهو القدوة لأمته فيأمره بتسبيح ربه

---

(١) عن أبي هريرة، رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (ناركم هذه التي يوقد ابن آدم، جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم) قالوا: والله إن كانت لكافية يا رسول الله، قال: (فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلها مثل حرها). رواه مسلم. باب في شدة حر جهنم جـ ٤ ص ٢١٨٤ ترتيب محمد فؤاد عبدالباقي.

العظيم الذي أنشأ الوجود كله بقدرته وحفظه بمشيئته (فسبح باسم ربك العظيم).

(٣) خلق الانسان:

﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[١].

وكما بين القرآن للإنسان دوره في إنبات الزرع الذي به قوام حياته وأنه لا يتجاوز إلقاء البذر في الأرض، ثم يتخلى عنه، ليتولى إنْباته وحفظه العليم القدير، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ، ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾[٢].

كذلك بين له دوره في سبب وجود الجنين، وأنه لا يتجاوز أن يودع الرجل ما يمني رحم امرأة ثم ينقطع عملهما، ثم تتولى بعد ذلك القدرة المبدعة العمل وحدها، في تخليق هذا الماء المهين الذي لو ترك لحظة لتقلبات الجو لفسد وأنتن، يقول تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾[٣].

فهذه حقيقة يعلمها المخاطب من نفسه، ومن مشاهداته لأبناء جنسه فلا يستطيع ردها، وخَلْقُ الإنسان من أعظم الآيات الدالة

(١) الذاريات: آية ٢٠، ٢١.

(٢) الواقعة: آية ٦٣، ٦٤.

(٣) الواقعة: آية ٥٧، ٥٩.

على وجود الباري سبحانه وتعالى وعلى عموم قدرته وعلمه، وكمال حكمته ورحمته وإحسانه، ولما كان خلق الإنسان من أوضح الآيات والأدلة على وجود الخالق القادر، وكان خلقه وإيجاده من أقرب الأشياء إلى الإنسان نفسه، فقد دعا الله تعالى عِبَادَهُ إلى التفكر والنظر بعين البصيرة في مبدأ خلقهم، في أطوار هذا الخلق ومراحله التي مروا بها إلى أن أصبحوا بشراً ينتشرون، يقول تعالى ذكره: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴾[1]. ويقول تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾[2].

ويقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾[3].

---

(١) الطارق: آية ٥.

(٢) الحج: آية ٥.

(٣) المؤمنون: آية ١٢ ـ ١٤.

إن المتأمل في هذه الآيات التي جاء فيها تكرار لفظ النطفة التي تَكَوَّنَ منها هذا الإنسان ونشأ عنها، يتبين له أن قصد الخالق جل وعلا من هذا التعبير هو لفت نظر المخاطب إلى القدرة المبدعة، قدرة الله تعالى التي جعلت من هذه النطفة، أو جُزَيْءٍ منها بشراً سوياً، مخالفاً ومبايناً كل المباينة لتلك النطفة المهينة، ولولا هذا البيان الرائع الذي ساقه الله في القرآن الكريم، موضحاً هذه النشأة لما صدق إنسان أن وجوده بهذه الهيئة، وهذا الشكل والقدّ، مْزَوَّداً بالسمع والبصر، والعقل والأعضاء والجوارح التي تتفق مع مصالحه، من الحركة والقيام، والمشي والقعود، وغير ذلك فإن كل ذلك وجد من هذه النطفة، كما أنه كان من المستبعد أن يتصور إنسان أن هذه النخلة قد وجدت من هذه النواة لولا وجودها المشاهد فعلا.

ونعود إلى الآية الكريمة التي شرحت أطوار هذه النطفة، إلى أن صارت بشراً ناطقاً، لنرى فيها صنعة الخالق العليم القادر الحكيم، الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾ (١).

(١) المؤمنون: آية ١٢ ـ ١٤.

فقد أشارت الآية إلى أصل الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام، إذ كان خلقه من طين، كما تحدث عن ذلك الكتاب العزيز، أما نسله فقد جعله الباري جل وعلا من تلك النطفة التي خلقها، وهيأ لها الأسباب الموصلة لها إلى مستقرها، ذلك القرار المكين.

يقول ابن القيم: (فانظر الآن إلى النطفة بعين البصيرة، وهي قطرة من ماء مهين، ضعيف لو مرت بها ساعة ـ أي لحظة ـ من الزمان فسدت وأنتنت، كيف استخرجها رب الارباب العليم القدير من بين الصلب والترائب، منقادة لقدرته مطيعة لمشيئته مذلّلَة الانقياد على ضيق طرقها، واختلاف مجاريها إلى أن ساقها إلى مستقرها ومجمعها...

وكيف قدر اجتماع ذينك المائين مع بعد كل منهما عن صاحبه، وساقهما من أعماق العروق والأعضاء، وجمعهما في موضع واحد جعل لهما قراراً مكيناً، لا يناله هواء يفسده ولا برد يجمده، ولا عارض يصل إليه، ولا آفة تتسلط عليه، ثم قلَّب تلك النطفة البيضاء إلى علقة حمراء مباينة للنطفة، ثم جعلها مضغة لحم، مباينة للعلقة في شكلها ولونها وحقيقتها، ثم تحويل تلك المضغة عظاماً مجردة لا كسوة عليها مباينة للمضغة كل المباينة في الشكل والهيئة، والقدر والملمس، ثم كيف قسمت تلك النطفة الحمراء الى تلك الأجزاء المتشابهة، وبالمقدار المناسب لكل عضو، ثم اتجاه كل جزء

أو خلية إلى مكانها المناسب في وقتها وأوانها وعلى حسب الحاجة إليها، فمنها ما يتجه لإنشاء العظام كل في محله، وعلى قدره الذي قدر أن يكون عليه، فمنها الصغير، والكبير، والطويل، والقصير، والمنحني، والمستدير، والعريض، والمصمت والمجوف، فهي مختلفة الأشكال والأحجام، وذلك حسب اختلاف المنافع المنوطة بها، ثم شد تلك العظام وربط بعضها ببعض برباط قوي محكم بحيث لا يسقط عضو من آخر)[1] ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾[2].

ومنها ما يتجه لتكوين الأسنان، فلا يتجه إلا القدر المناسب لتكوين سن أو ضرس، لأن شكل الأسنان غير شكل الأضراس، نظراً لاختلاف منافعها، من طحن، وقطع، وزينة، ومنها ما يتجه إلى عمل العين، فلا يتجه إلا القدر الكافي لإنشائها، ثم إلى المكان المعد لتركيبها، ووجودها فلم تتجه خلية العين، إلى الظهر، أو البطن، أو القدم، وهكذا كل جزء أو خلية من تلك النطفة يتجه إلى إنشاء العضو الذي قدر له تكوينه، من أذن، أو لسان، أو حاسة شم، أو غير ذلك من أعضاء الجسم، وأعقد ذلك وأصعبه في نظر الإنسان التخصصات المتصلة بالجهاز الداخلي، كالقلب، والمعدة، والكبد، والطحال، والرئة، والمثانة، والأمعاء... والمدهش حقاً اتجاه المقدار المناسب للعضو المراد تكوينه، فلا

(١) ابن القيم (مفتاح دار السعادة جـ ١ ص ١٨٧ - ١٨٩) بتصرف.
(٢) الإنسان: آية ٢٨.

زيادة ولا نقصان، ثم اتجاه ذلك الجزء أو الخلية إلى المكان الذي قدر أن يكون فيه ذلك العضو، فلا يخطئه ولا يتعداه، والسؤال هو، من الذي هدى هذه النطفة إلى القيام بهذه الأعمال التي تعجز المتخصصين في علم الحياة؟؟

هل لديها القدرة الكافية على تخليق هذا الإنسان؟ وإذا كان كذلك، فكيف بعد أن تكون إنساناً سميعاً بصيراً عاقلاً، يعجز هذا الإنسان عن خلق بعوضة أو ذبابة؟؟

وصدق الله العظيم اذ يقول: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[1].

في ظلمات ثلاث:

والأعجب من ذلك أن هذا الخلق المعقد، والتركيب المشتبكة فيه الأعضاء بعضها ببعض يتم في ظلمات ثلاث كما تحدث عنه القرآن الكريم، وبين أن القادر على ذلك هو الرب الذي ينبغي أن يعبد وحده، فلا إله غيره، ولا رب سواه إذ الإنسان لا يملك من أمر هذا الوجود شيئاً.

يقول تعالى: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا، وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا

(١) لقمان: آية ١١.

هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾[1].

فقد بين سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة، قدرته المطلقة، على خلق هذا العالم كله من نفس واحدة، وهي نفس آدم عليه السلام، ثم خلق منها زوجها وهي حواء، واستمرار الخلق المتواصل بعد ذلك كان من ذكر وأنثى إلا عيسى عليه السلام، فقد كان من أم بلا أب، فالآية تشير إلى القدرة التي إذا أرادت الشيء قالت له كن فيكون بسبب وبغير سبب، فالله خالق الأسباب، ومسبباتها، ولذا فإن الآيات السابقة من سورة الواقعة بينت دور البشر في ذلك الخلق، وأنه لا يتجاوز ذلك الالتقاء بين الرجل والمرأة، فيختلط الماءان أمشاجاً، ثم يتركانه في تلك اللحظة، للقدرة التي تخط الخطة لتكوين الجنين من تلك النطفة في الظلمات الثلاث، التي هي ظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، وظلمة البطن، وفي تلك الظلمات الثلاث يتم ذلك الخلق العجيب، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[2].

والخلق بعد الخلق الذي تشير إليه الآية الكريمة، هو خلقه نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظاماً... كما بينته الآيتان من سورة الحج والمؤمنون، ثم إنشاؤه بعد تلك الأطوار خلقاً آخر مبايناً للخلق الأول، مباينة تامة فما أبعد النقلة الهائلة بين النطفة والإنسان

---

(١) الزمر: آية ٦.

(٢) آل عمران: آية ٦.

الذي صوره ربه فأبدعه وجعله في أحسن تقويم.

يقول مؤلف كتاب (إيثار الحق على الخلق)، وقد جمع الله تعالى ذكره دلالتي الأنفس والآفاق في قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ (١).

وذلك أنا نعلم بالضرورة وجودنا أحياء قادرين، عالمين، ناطقين، سامعين، مبصرين، مدركين، بعد أن لم نكن شيئاً، وأن أول وجودنا كان نطفة مهينة مستوية الأجزاء والطبيعة، غاية الاستواء، بحيث يمتنع في عقل كل عاقل أن يكون منها بغير صانع حكيم، ما يختلف أجناساً، وأنواعاً، وأشخاصاً، اما الأجناس فكما نبه عليه قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ (٢).

وأما الأنواع: فنبه عليها بقوله ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ (٣).

وأما الأشخاص: فبقوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ (٤).

---

(١) فصلت: آية ٥٣.

(٢) النور: آية ٤٥.

(٣) القيامة: آية ٣٧ ـ ٣٩.

(٤) عبس: آية ١٧ ـ ٢٠.

وبيانه أنه خلق من نطفة مستوية الطبيعة، فكيف يكون منها ما يبصر، ومنها ما يسمع، ومنها ما يطعم ومنها ما يشم، ومنها الصلب ومنها الرخو.

ونعلم أنها قد تغيرت بنا الأحوال، وتنقلت بنا الأطوار، تنقلاً عجيباً، فكنا نطفاً، ثم علقاً، ثم مضغاً، ثم لَحْماً ودماً، ثم عظاماً صلبة، متفرقة في ذلك اللحم والدم تُقَوّيْها، وعصباً رابطة بين تلك العظام صالحة لذلك الربط، مما فيها من القوة والمتانة، ثم تركب من ذلك آلات وحواس حية موافقة للمصالح، مع ضيق ذلك المكان وشدة ظلمته، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ (١).

وبعد فهذا هو حديث القرآن عن خلق الإنسان من تلك النطفة، في تلك الظلمات الثلاث، فماذا يقول العلم عن ذلك؟

الحقيقة إننا في هذا البحث لا نريد إيراد نظريات نفسر بها القرآن الكريم، ذلك لأن النظريات، أمور بنيت على التقدير والتخمين، فلم يكن لها أصل ثابت تعتمد عليه، ولذا فهي تنقض اليوم ما قررته بالأمس وقد تنقض غداً ما قررته اليوم، والقرآن

(١) ابن الوزير، إيثار الحق على الخلق جـ ١ ص ٤٤، ٤٥، مطبعة الآداب والمؤيد بمصر القاهرة سنة ١٣١٨ هـ.

كلام الله الحق الثابت الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي هو حق بإنزال الله إياه، كما قال تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾(١).

ولذا فإننا سنقتصر على ما ورد ذكره في كتاب الله تعالى ففيه الكفاية، لهداية البشرية.

وكل قول يقال، ويحمل به كتاب الله، فالخطأ الناتج عن ذلك، هو من عقم فهم ذلك القائل وتفسيره، أما القرآن فحق ثابت، وسيتسع لكل حقيقة علمية ثابتة لا تتغير، إذ أنه الكتاب الذي لا تُبلى جدَّته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ظاهرة الحياة:

يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾(٢).

من الدلائل على وجود الله تعالى ووحدانيته أفعاله تعالى التي لا يشاركه فيها أحد من القادرين، ومن تلك الأفعال الإحياء والإماتة، فإن الخلق عاجزون عنها، ذلك أن الله وحده هو القادر على ذلك دون سواه، يقول تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ

(١) الاسراء: آية ١٠٥.
(٢) الانعام: آية ٩٥.

﴿ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ ﴾ (١).

ولم يدّع أحد من البشر أنه يستطيع ذلك، ولا عبرة بدعوى أبله بليد لا يعرف معنى الإحياء والإماتة، أو معاند مكابر يسلك سبل المغالطة لقومه، فيفسر لهم معنى الإحياء والإماتة بقتل أحد الرجلين وإطلاق سراح الآخر، كما يذكر المفسرون ذلك عن نمرود إبراهيم عليه السلام الذي حاجه في ربه.

يقول تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (٢).

فحين ادعى ذلك المكابر تلك الدعوى التي يعلم إبراهيم عليه السلام كذبه فيها، عدل به إلى أمر مشاهد للناس جميعاً، فطلب منه أن يتصرف فيه بغير المألوف والمعهود للناس، إن كانت لديه القدرة الكاملة كما يدعي، ذلك الأمر هو أن يأتي بالشمس من المغرب، إذ أن رب إبراهيم يأتي بها من المشرق، فبهت الكافر، ولم يحر جواباً، والله غالب على أمره، ومظهر دينه وناصر رسله، وقد عني القرآن الكريم عناية خاصة بظاهرة الحياة فجعلها من

(١) الملك: آية ١، ٢.

(٢) البقرة: آية ٢٥٨.

الأدلة التي تنبه المخاطب الغافل عن التفكر في سر هذا الأمر العجيب الذي جعل سبباً في وجوده، ذلك أن الإنسان كان معدوماً ثم أصبح إنساناً حياً يسير على هذه الأرض متمتعاً بما أوجده له خالقه من نعم كثيرة على ظهرها، يشاهد نوع الحياة التي تدب فيه من أين جاءت وكيف سببها.

يقول الفخر الرازي: (ودليل الإحياء والإماتة دليل متين قوي، ذكره الله سبحانه في مواضع من كتابه كقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ..﴾ وقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾.

ويقول سيد قطب في تفسير الآية: ﴿فَالِقُ الحب ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ.. الخ﴾: إنها المعجزة التي لا يدري سرها أحد، فضلاً على أن يملك صنعها أحد،... وتقف البشرية بعد كل ما رأت من ظواهر الحياة وأشكالها، وبعد كل ما درست من خصائصها وأدوارها... تقف أمام السر المغيب كما وقف الإنسان الأول، تدرك الوظيفة والمظهر، وتجهل المصدر والجوهر، والحياة ماضية في طريقها... لقد عجزت كل محاولة لتفسير ظاهرة الحياة، على غير أساس أنها من خلق الله... ومنذ أن شرد الناس من الكنيسة في أوربا.. ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ وهم

يحاولون تفسير نشأة الكون وتفسير نشأة الحياة، بدون التجاء إلى الاعتراف بوجود الله.. ولكن هذه المحاولات كلها فشلت جميعاً.. ولم تبق منها في القرن العشرين إلا مماحكات تدل على العناد، ولا تدل على الإخلاص، وأقوال بعض (علمائهم) الذين عجزوا عن تفسير وجود الحياة إلا بالاعتراف بالله، تصور حقيقة موقف (علمهم) نفسه من هذه القضية، ونحن نسوقها لمن لا يزالون عندنا يقتاتون على فتات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من موائد الأوربيين، عازفين عن هذا الدين، لأنه يثبت «الغيب» وهم «علميون»[1] لا «غيبيون».

والمؤمنون الصادقون في إيمانهم، الذين يؤمنون بالله يكفيهم في ذلك ما قاله خالقهم عن خلق هذه الحياة، وما شاهدوه في الواقع أمامهم، من تكرر خلق الحياة كل لحظة، لأن عقولهم الفطرية لم تلوث بشكوك المرتابين وأباطيلهم.

وأما أولئك الذين أصابتهم لوثة الشك، فلا يؤمنون إلا (بالعلم) فمن المناسب أن ينقل لهم بعض أقوال هؤلاء العلماء الذين عجزوا عن تفسير الحياة إلا أن تكون من صنع خالق قادر هو (الله) سبحانه وتعالى.

---

(١) سيد قطب (في ظلال القرآن جـ٣/ ص ٣١١ و ٣١٢ الطبعة الثانية سنة ١٩٦١ م دار إحياء التراث العربي بيروت ـ لبنان ـ.

وفي ذلك يقول: (ايرفنج وليام نوبلوس) أخصائي الحياة البرية في الولايات المتحدة، وأستاذ العلوم الطبيعية في جامعة ميشجان، تحت عنوان ـ المادة وحدها لا تكفي ـ (إن العلوم لا تستطيع أن تفسر لنا كيف نشأت تلك الدقائق الصغيرة المتناهية في صغرها، والتي لا يحصيها عد، وهي التي تتكون منها جميع المواد، كما لا تستطيع العلوم أن تفسر لنا بالاعتماد على فكرة المصادفة وحدها كيف تتجمع هذه الدقائق الصغيرة لكي تكون الحياة. ولا شك أن النظرية التي تدعي أن جميع صور الحياة الراقية قد وصلت إلى حالتها الراهنة من الرقي بسبب حدوث بعض الطفرات العشوائية والتجمعات والهجائن نقول إن هذه النظرية لا يمكن الأخذ بها إلا عن طريق التسليم، فهي لا تقوم على أساس المنطق والإقناع)[١].

ويقول مؤلف كتاب (مصير البشرية) (ليكونت ديونوي): (... نكرر القول هنا بأنه لا توجد حقيقة واحدة في يومنا هذا تقدم تفسيراً قاطعاً لمولد الحياة وتطور الطبيعة، ولقد درسنا مسألة أصل الحياة، وسواء أردنا أم لم نرد، فإننا مضطرون إلى أن نقبل

---

(١) من كتاب الله يتجلى في عصر العلم ص ٥٢، تأليف نخبة من العلماء الأمريكيين بمناسبة السنة الدولية لطبيعيات الأرض ترجمة الدكتور الدمرداش عبدالمجيد سرحان، الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٨ م الناشر مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع القاهرة.

فكرة تدخل قوة سامية يدعوها العلماء أيضاً (الله) (عكس الصدفة) أو أن نعترف ببساطة بأننا لا نعلم شيئاً عن هذه الأمور سوى بعض الآيات، وهذه ليست مسألة اعتقاد فحسب، ولكنها حقيقة علمية لا نزاع فيها، ولسنا من أولئك الماديين العريقين الذين يتمسكون بآرائهم واعتقاداتهم رغم كونها سلبية بدون أي برهان) [١].

وقد أورد الشيخ نديم الجسر في كتابه (قصة الإيمان) بعض آيات من كتاب الله، تحدثت عن خلق الحياة وتكونها من ـ الطين اللازب والماء ـ ثم أورد بعض ما قاله العلماء حول تكون الحياة، ونحن بدورنا نقتطف بعضاً من ذلك:

ـ الآيات ـ قوله تعالى ـ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ..﴾.

وقوله تعالى ـ: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا

---

(١) ليكونت ديونوي: مصير البشرية ص ١٣٠ ترجمة الأستاذ أحمد عزت طه، وعصام طه، مطابع فتى العرب شارع الفردوس ـ دمشق التاريخ بدون.

يَذَّكَّرُونَ ، وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ هذا بعض ما جاء في القرآن الكريم عن تكون خلق الحياة وأنه بقدرة الله تكون من الماء والطين [1].

والعلماء قالوا كما جاء في القرآن بتكوّن الحياة من الماء والطين. ثم وقفوا على عتبة باب الخفاء من سرها حائرين. فقد عرفوا الشيء الكثير من فروعها وأصولها. وعناصرها وطبائعها... وعلموا ان جميع الاحياء تتألف من خلايا وأن الخلية تتكون من النطفة الأولى (بروتوبلاسما) وعلموا ان هذه النطفة الأولى مكونة من الكربون والأكسجين. والهيدروجين والنتروجين... وجربوا أن يخلقوا الحياة في شيء فعجزوا.... ثم اعترفوا كما ذكر القرآن باستحالة خلق ذبابة.

يقول (توماس اكيوناس) ـ: (ما من عالم عرف حتى اليوم حقيقة ذبابة..).

---

(١) الحياة في لغة المتكلمين عرض، والماء والطين جوهر، والعرض لا يقوم بنفسه والله القادر خلق آدم من طين، ثم نفخ فيه من روحه، فدبت فيه الحياة، وكذلك جعل نسله من ماء مهين، ثم يأخذ ذلك الماء أطواره التي تحدث عنها القرآن، وبينت السنة وقت وكيفية نفخ الروح في ذلك الجنين فتدب فيه الحياة، وكلام الشيخ نديم الجسر عن الحياة هو كلام عن الخلق، والخلق أعم من الحياة. ولكنهما متلازمان إذ الحياة لا تقوم بنفسها، وإنما تقوم في ذلك المخلوق المكون من الماء والطين، وهذا الذي يريده الشيخ بكلامه، والله أعلم.

ويقول (روجر باكون) ـ: (إنه لا يوجد عالم من علماء الطبيعة يستطيع أن يعرف كل شيء عن طبيعة ذبابة واحدة) ويقول: (بُخْنز) ـ، (إن الكرية ذاتها على بساطتها ذات بناء وتركيب يمنع معه صدورها من الجماد مباشرة بل إن ظهورها من الجماد ليعد في نظر العلم معجزة ليست أقل بعداً عن العقل من ظهور الاحياء العليا من الجماد مباشرة).

وفي القرآن يقول الله للناس: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ..﴾ (١).

إن العقول السليمة تتلاقى على الحق. وكلما ازدادت علما كان تلاقيها على الحق أيسر وأقرب. ومن أجل هذا رأينا العلماء بعد ذلك الانتكاس المادي الذي اعترى بعضهم في أواخر القرن التاسع عشر يرجعون إلى التلاقي على الحق ويكادون يجمعون اليوم إجماعا بلسان أكابرهم على أن (هذه القوانين والنواميس. التي نشأت على أساسها الحياة وتطورت تنطوي على وحدة القصد. والارادة والعناية والحكمة يستحيل معها العقل السليم المفكر أن يؤمن بأن هذه الحياة خلقت وتطورت بالمصادفة العمياء.

فهذا اللورد كلفن العالم الانجليزي يعلن هذا الإيمان على

---

(١) الحج: آية ٧٣.

الناس، ويسخر من القائلين بالمصادفة في خلق هذه الحياة ويعجب من إغضاء بعض العلماء عما في آثار الحكمة والنظام من حجة دامغة وبرهان قاطع على وجود الله ووحدانيته. حيث يقول: (يتعذر على الإنسان أن يتصور بداية الحياة واستمرارها دون أن تكون هنالك قوة خالقة مسيطرة وإني أعتقد من صميم نفسي أن بعض العلماء في أبحاثهم الفلسفية عن الحيوان، قد أغضوا إغضاء عظيما مفرطا عما في نظام هذا الكون من حجة دامغة. فإن لدينا فيما حولنا براهين قوية قاطعة على وجود نظام مدبر وخيّر، وهي براهين تدلنا بواسطة الطبيعة على ما فيها من أثر إرادة حرة، وتعلمنا أن جميع الأشياء (الحية) تعتمد على خالق واحد أحديّ أبديّ).

ويقول ـ انشتين ـ (إن جوهر الشعور الديني، في صميمه، هو أن نعلم بأن ذلك الذي لا سبيل لمعرفة كنه ذاته موجود حقا، ويتجلى بأسمى آيات الحكمة، وأبهى أنوار الجمال... وإنني لا أستطيع أن أتصور عالما حقا لا يدرك أن المبادىء الصحيحة لعالم الوجود مبنية على حكمة تجعلها مفهومة عند العقل. فالعلم بلا إيمان يمشي مشية الأعرج، والايمان بلا علم يتلمس تلمس الأعمى) ٥ هـ [1].

---

(١) الشيخ نديم الجسر (قصة الإيمان ص ٤٢٣ ـ ٤٢٥) بتصرف الطبعة الثالثة سنة ١٣٨٩ هـ ١٩٦٩ م منشورات المكتب الإسلامي، بيروت.

المبحث الثاني: «دليل العناية»:

المتأمل في هذا العالم المترابط الأجزاء يجد فيه الدلالة الواضحة على قدرة خالقه، وكمال علمه وحكمته وحسن لطفه وعنايته بالعالم كله إذ الرعاية شاملة لكل أفراده، والعلم محيط بكل جزئياته.

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾(١).

﴿... وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ..﴾(٢).

فالناظر بعين البصيرة في هذا العالم كله: علويه، وسفليه، كبيره، وصغيره، يجد فيه العناية التامة به أولا، وبمن خلق الله له هذه الموجودات وسخرها له ثانيا، فالسموات وأفلاكها والأرض ومحتوياتها، خلقت بالحق، وبه حفظت، كما قال تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾(٤).

---

(١) الأنعام: آية ٥٩.

(٢) فاطر: آية ١١.

(٣) الاحقاف: آية ٣.

(٤) الانبياء: آية ١٦.

فإذا تأمل الإنسان بفكره وعقله في بعض جزئيات هذا العالم المسخر لمصالحه والتي عليها استقرار حياته، كفاه ذلك دليلا واضحاً، وحجة بينة على أن هذا العالم مخلوق لخالق، حكيم قدير عليم قد قدر هذا العالم، فأحسن تقديره، ونظمه فأتقن تنظيمه.

فمن تلك الجزئيات، الشمس، وما تضمنته من مصالح عليها قوام حياة الناس وأحوالهم، وحياة المخلوقات جميعا، من حيوان ونبات، فإن الناظر فيها يلمس كمال العناية، واللطف من الله تعالى والرحمة بهذا الإنسان.

تعاقب الليل والنهار:

وأول ما ينتج عن طلوع الشمس وغروبها، تعاقب الليل والنهار، واللذان هما من أعجب آيات الله، وبدائع مصنوعاته، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [1].

فلولا تسخير العليم القدير لها لتعطل أمر العالم، إذ كيف يتصرف الناس، ويسعون لكسب معاشهم، وطلب أرزاقهم، إذا لم يكن هناك ضياء يبصرون به. ثم كيف يكون لهم قرار وهدوء تستريح به أبدانهم، ويستعيدون فيه قواهم، إذا لم يكن هناك ليل يسكنون فيه. فنعمة الليل والنهار الناتجين عن طلوع الشمس

(١) فصلت: آية ٣٧.

وغروبها من أعظم آيات اللطيف الخبير، الذي جعل تلك الشمس المشرقة للناس بمنزلة السراج يرفع لأهل البيت، زمناً لقضاء حوائجهم، ثم يغيب عنهم مثل ذلك الزمن، ليهدأوا ويستريحوا تماماً كما هدي الإنسان لإيقاد مصباحه عند الحاجة إليه، وإطفائه بعد قضائها، وقد نبه الله عباده إلى تلك العناية والرحمة بهم، في جعله الليل والنهار متعاقبين، ليتمكنوا من طلب المعاش والسعي في تحصيل الرزق في النهار المبصر، والهدوء والراحة في لباس الليل الهادىء، وبين ان ذلك التصريف الحكيم حاصل بأمره وتقديره، ومشيئته وإرادته، يقول تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾.

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1].

أي لعلكم تشكرون نعمة الله وإحسانه إليكم، ولطفه وعنايته بكم، في جعله الليل والنهار متعاقبين، على الدوام والإستمرار؛

(١) القصص: آية ٧١ ـ ٧٣.

وقد خص آية الليل بحاسة السمع لقوة سلطانها في هدوء الليل، إذ تسكن فيه الحركات. كما خص آية النهار بالبصر لشدة إدراكه المبصرات فيه، هذه المخلوقات التي هي السموات وأفلاكها، والأرض ومحتوياتها جميعها مسخرة بأمر خالقها محفوظة بعنايته المستمرة في كل لحظة فهو الخالق لكل شيء، الآمر له بما أراد، القائم بحفظه، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (١). وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ (٢).

فهو قيوم السموات والأرضين، فلا قيام لهما ولا استقرار إلا به سبحانه وتعالى - كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (٣).

---

(١) الأعراف: آية ٥٤.

(٢) البقرة: آية ٢٥٥.

(٣) فاطر: آية ٤١.

الإنسان:

ومع أن رعاية الله وعنايته، سبحانه وتعالى، شاملة للعالم كله، والإنسان جزء من هذا العالم، إلا أنه قد خصه الله بمزيد من تلك العناية والرعاية، فقد هيأ لـه كـل احتيـاجـاتـه الروحيـة منهـا، والجسمية.

فمن الناحية الروحية:

تعهده بإرسال رسله، وإنزال كتبه، المشتملة على الهدى والنور، ففيها طمأنينة قلبه، وإشباع روحه، وهدوء نفسه، حيث تضعه في الخط المستقيم الواضح، الذي يصله بربه وخالقه، كما بينت له السبل المتفرقة المضلة التي تؤدي به إلى ما يمزق كيانه، ويشتت أمره، بحيث تجعله كالعبد المملوك لشركاء يتشاكسون فيه، يجره أحدهم ذات اليمين، والآخر ذات الشمال، أو الكحيران الذي استهوته الشياطين، فأضلته عن سبيل الهدى حتى لا يدري إلى أين يسير، يقول تعالى: ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (١).

---

(١) الأنعام: آية ٧١.

وذلك كله من كمال رحمته بعباده، فإن رحمته جل شأنه تمنع إهمال عباده وعدم تعريفهم ما ينالون به غاية كمالهم، واسمه الرحمن متضمن لإرسال الرسل، وإنزال الكتب، أعظم من تضمنه، إنزال الغيث، وإنبات الكلأ. وإخراج الحب.

فاقتضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح، أعظم من اقتضائها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح [١].

أما من الناحية الجسمية:

فقد خلق له ما في الأرض جميعاً، وسخر له ما في السموات والأرض، وكان من عنايته أن أوجده في المكان الموافق لحياته [٢]. فالأرض التي وجد عليها، وهي المكان الذى اختاره الله ليكون مقراً لهذا الإنسان، قد زودها بكل مستلزمات الحياة، من ماء وهواء، وتربة صالحة للزرع والبناء وغير ذلك، فهي المهاد، والفراش، والمسكن الذي أعده الله بكل احتياجات البشر الضرورية منها وغير الضرورية، ففيها الغذاء والدواء، والمشرب، والملبس، والمركب، يقول تعالى في معرض الامتنان على عباده بما

(١) ابن القيم، مدارج السالكين جـ ١ ص ٨ تحقيق محمد حامد الفقي، الناشر دار الكتاب العربي بيروت لبنان، مطبعة السنة المحمدية سنة ١٣٧٥ هـ ١٩٥٦ م.

(٢) ابن رشد الكشف عن مناهج الأدلة ص ١٠٩ - ١١٠ الطبعة الثالثة سنة ١٣٨٨ هـ - ١٣٦٨ م.

أسداه إليهم من النعم التي لا تحصى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[1].

الحر والبرد:

اقتضت الحكمة الإلهية والعناية الربانية، تعاقب الحر والبرد، لما في ذلك من مصالح للبلاد والعباد، وقد ربط السميع العليم ذلك بتصريف الشمس وتقدير مطالعها في منازلها المختلفة منزلة بعد أخرى، وبسبب ذلك التنقل الذي قدره الله تحدث تلك الفصول المتعاقبة فيظهر البرد، وبظهوره تختفي الحرارة، وتبرد الظواهر، فيكون ذلك سبباً لاستكثاف الهواء، فيحصل السحاب والمطر الذي به حياة الأرض ومن عليها، ويعقب نزول المطر اخراج النبات من الأرض رزقاً للعباد، كما قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ، وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا

---

(١) ابراهيم: آية ٣٢ ـ ٣٤.

طَلْعٌ نَّضِيدٌ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾[1].

فمن عنايته بعباده ورحمته بهم إخراج تلك الأقوات والثمار، والحبوب، والفواكه متعاقبة متلاحقة شيئاً بعد شيء، ولم يخلقها سبحانه وتعالى جملة واحدة، فإنها لو خلقت كذلك، على وجه الأرض لفاتت المصالح التي رتبت على تلاحقها.

ومن كمال عنايته ورحمته دخول فصل الحر الذي به يحصل نضج تلك الثمار واستواؤها، ولولا تقديره سبحانه وتعالى لذلك وتيسيره لبقيت فجة غير صالحة لأكل ولا ادخار؛ كل ذلك حاصل بتقدير من الحكيم العليم الذي عاقب بين تلك الفصول، التي يقتضي كل فصل منها من الفواكه، والنبات ما لا يقتضيه الفصل الآخر، فهذا حار، وهذا بارد، وهذا معتدل، وكل نوع في فصل موافق للمصلحة التي خلق من أجلها؛ كما أن من رحمته أن جعل دخول أحدهما ـ الحر والبرد ـ على الآخر بتدرج، إذ جعل سبحانه بين الحر الشديد، والبرد القارس، برزخاً ينتقل فيه الحيوان، على ترتيب وتمهل، لطفاً به، ورحمة لضعفه لأنه لو انتقل دفعة واحدة، من الحر الشديد، إلى البرد القارس، لعظم ضرره، واشتد أذاه؛

وفي ذلك حكمة بالغة، وآية باهرة، ولولا العناية الإلهية،

---

(١) ق: آية ٩ ـ ١١.

والحكمة الربانية، والرحمة والإحسان لما كان ذلك؛ وهل يمكن أن يقال: إن هذا التقدير والتدبير حادث بالاتفاق والمصادفة، أو أنه صادر من فاعل مختار قدر ذلك وأراده؟ فلو قال قائل إن السبب في ذلك التدرج والمهلة، إنما كان لابطاء سير الشمس في ارتفاعها إلى مستوى خط الاستواء مثلاً ثم انخفاضها عنه.

قيل له فما السبب في ذلك الإنخفاض والارتفاع؟ ولو قال إن السبب في ذلك هو بعد المسافة بين مشارقها ومغاربها. لتوجه السؤال أيضاً عن السبب في بعد المسافة؟.

ولا تزال الأسئلة متوجهة. كلما عين سبباً حتى تفضى به إلى أحد أمرين:

- إما مكابرة ظاهرة ودعوى أن ذلك حاصل بالاتفاق من غير مدبر ولا صانع.

- وإما الاعتراف برب العالمين، والإقرار بقيوم السموات والأرضين، وأنه الفاعل المختار المقدر لذلك؛ إذ ليس بين الأمرين واسطة، إلا هوس الشياطين وخيالات المبطلين، التي إذا طلع الفجر عليها فجر الهدى كانت في أول المنهزمين والله متم نوره ولو كره الكافرون[1].

---

(١) ابن القيم مفتاح دار السعادة ج ١ - ١٩٨٠ - ٢١٥ بتصرف.

معرفة الحساب:

ولما كانت حاجة الناس إلى معرفة الحساب من الأمور الضرورية التي لا غناء لهم عن معرفتها، فبالحساب يعرفون مواقيت الديون المؤجلة، والإجارات، وعقود المعاملات على اختلاف أنواعها، كما أن به تعرف العدد، وتحدد مواعيد المعاهدات، والعبادات، وغير ذلك لأن معرفة هذه الأمور ضرورية لحياة الناس ومعاملاتهم، وهي قائمة على معرفة الحساب. الذي ربطه السميع العليم بهذين القمرين النيرين:

الشمس والقمر، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾[1].

فخلق الله تعالى للقمر من عجائب آياته الدالة على عنايته بعباده، إذ يُبديه الله تعالى كالخيط دقيقاً، ثم يتزايد نوره شيئاً فشيئاً كل ليلة إلى أن يصير بدراً، ثم يأخذ الاستدارة في النقصان حتى يعود[2] كالعرجون القديم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾[3].

---

(١) البقرة: آية ١٨٩.

(٢) ابن القيم، مفتاح دار السعادة ج ١ ص ١٩٨ وابن كثير، التفسير ج ٢ ص ٤٠٧.

(٣) يس: آية ٣٩.

فيتميز بذلك عدد الأشهر والسنين، ويقوم حساب العالم، فبالشمس تعرف الأيام وبسير القمر في منازله تعرف الشهور والأعوام، لأنه لو كان الزمن نسقاً واحداً متساوياً سرمداً، لما عرف شيء من ذلك، وقد نبه الله عباده إلى ذلك حيث يقول: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[1].

ويقول: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾[2].

المبحث الثالث ـ دليل النظام:

النظام، والإتقان والتقدير في هذا العالم، شامل لجميع مخلوقات الله كلها، ذلك أن الكون منظم ومنسق، وانتظامه مرتبط بإرادة الله وقدرته، كما أن استمراره على هذه الحال منوط باختيار الله تعالى ومشيئته.

قال تعالى: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ ﴾[3].

---

(١) يونس: آية ٥.
(٢) الاسراء: آية ١٢.
(٣) النمل: آية ٨٨.

وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[2].

فلا عبث إذن ولا فوضى. وإنما هو نظام وإتقان وتقدير وتدبير، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[4].

تعالى الله عن ظن الكافرين علواً كبيراً.

وقد بين الله في القرآن الكريم دقة هذا النظام الكوني. الذي جعله خالقه آية من آياته الدالة على وجوده، وقدرته، وعلى علمه وحكمته، وإتقان مصنوعاته، فقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ، لَا

---

(١) الفرقان: آية ٢.

(٢) القمر: آية ٤٩.

(٣) ص: آية ٢٧.

(٤) المؤمنون: آية ١١٥.

ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[1].

ودليل النظام يعتمد على دليل الخلق، غير أنه يزيد عليه التوضيح والبيان لما في ذلك الخلق من إبداع، واختراع، وتنظيم، وإتقان، وما تدل عليه هذه المخلوقات من قصد في إيجادها وحكمة في تسييرها وتدبيرها.

ودليل النظام من الأدلة التي يدركها العقل الإنساني ويرضاها بيسر وسهولة لأنه لا يحتاج في إدراك مدلوله إلى كد ذهن وإعمال فكر، وغوص في لجج الاستدلالات المنطقية الجافة، لأنه خطاب موجه ممن يعلم طبائع النفوس البشرية، فاقتضت حكمته الإلهية، أن يخاطب الناس كافة، بالدليل الأيسر، والأسهل والأوضح، والذي يزداد على مر الأيام وضوحاً، وكلما تقدمت وسائل العلم، وانكشفت أسرار النواميس الدالة على النظام[2] والإتقان، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[3].

فلو نظر الإنسان في عالم الأفلاك والكواكب. لرأى عجائب

---

(١) يس: آية ٣٧ ـ ٤٠.
(٢) الشيخ نديم الجسر، قصة الإيمان ص ٢٨١ بتصرف.
(٣) فصلت: آية ٥٣.

الخلق متجلية، ودلائل النظام والإتقان واضحة، فهي تسير على نظام ثابت لا يختل، كل كوكب منها يسير في مدار لا يتعداه، وانتظام دورته في زمن معين لا يتجاوزه، واختصاص كل كوكب بوظيفة خاصة يؤديها حسب ما قدر له، كل ذلك بحساب دقيق مقدر لا يزيد ولا ينقص، فحركتها دائبة من غير فتور ولا خلل، وذلك بتقدير من العزيز العليم.

إن ذلك كله ينبىء عن دقة في الصنع، وإحكام في النظام، وتحديد للهدف المقصود. وقد أشارت الآية الكريمة إلى تلك الدقة المتناهية، حيث تقول: ﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾، فسير الشمس والقمر بحساب دقيق جعل أحدهما لا ينبغي له أن يدرك الآخر، ولا يسبقه، لأنهما لم يوجدا بالاتفاق والمصادفة، وإنما وجدا بالقصد والإرادة والاختيار، وكان سيرهما وحركتهما بتقدير العليم الحكيم.

يقول سيد قطب في تفسير الآية ـ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار... الخ.

... ومشهد قدوم الليل، والنور يختفي، والظلمة تغشى... مشهد مكرر يراه الناس في كل طبقة من خلال أربع وعشرين ساعة « فيما عدا بعض المواقع التي يدوم فيها النهار، كما يدوم فيها

الليل أسابيع وأشهراً قرب القطبين في الشمال والجنوب، وهو مع تكراره اليومي عجيبة تدعوا إلى الأمل والتفكير، والشمس تجري لمستقر لها»..

وحين نتصور أن حجم هذه الشمس يبلغ نحو مليون ضعف لحجم أرضنا هذه، وأن هذه الكتلة الهائلة، تتحرك وتجري في الفضاء، لا يسندها شيء، ندرك طرفاً من صفة القدرة التي تصرف هذا الوجود، عن قوة وعن علم... ذلك تقدير العزيز العليم... إلى أن يقول... وأخيراً يقرر القرآن دقة النظام الكوني الذي يحكم هذه الأجرام الهائلة ويرتب الظواهر الناشئة عن نظامها الموحد الدقيق ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

ولكل نجم أو كوكب فلك أو مدار، لا يتجاوزه في جريانه، أو دورانه، والمسافات بين النجوم والكواكب مسافات هائلة، وقد قدر خالق هذا الكون الهائل أن تقوم هذه المسافات الهائلة بين مدارات النجوم والكواكب ووضع (تصميم) ـ تنظيم الكون على هذا النحو ليحفظه بمعرفته من التصادم والتصدع، ـ حتى يأتي الأجل المعلوم ـ فالشمس لا ينبغي لها أن تدرك القمر، ولا الليل يسبق النهار ولا يزحمه في طريقه لأن الدورة التي تجيء بالليل والنهار لا تختل أبداً فلا يسبق أحدهما الآخر في الجريان ـ (وكل

في فلك يسبحون)[1].

ودورة الشمس والقمر والكواكب، ليست مضبوطة بالساعة، أو الدقيقة، وإنما هي مضبوطة بسرعة الضوء أو الشعاع، الذي قدرت سرعته بقطع، (١٦٨) ألف ميل في الثانية تقريباً[2] يؤيد ذلك ما نقله ابن القيم وأقره، من اتفاق أرباب الهيئة وعلمائها، من أن الشمس بقدر الأرض مائة[3] ونيفاً وستين مرة، والكواكب التي نراها كثير منها أصغرها بقدر الأرض قال: وبهذا يعرف ارتفاعها، وبعدها، وأنت ترى الكوكب كأنه لا يسير، وهو من أوَّل جزء من طلوعه إلى تمام طلوعه يكون فلكهُ قد طَلَعَ بقدر مسافة الأرض مائة مرة مثلاً، وهكذا يسير على الدوام، والعبد غافل عنه وعن آياته[4].

المبحث الرابع ـ «مسلك المتكلمين، والفلاسفة في إثبات وجود الله تعالى»:

بعد أن عرضنا مسلك القرآن الكريم في إثبات وجود الله

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن ٧ ص ٢٥ ـ ٢٦.

(٢) الشيخ نديم الجسر، قصة الإيمان ص ٣٠٤ ومحمد قطب منهج التربية الإسلامية ص ٩٤.

(٣) قلت هذا التقدير حسب وسائلهم التي توصلوا بها إلى هذا التقدير وإلا فالعلماء اليوم يقدرون الحجم أكبر بكثير من ذلك. كما ذكر سيد قطب في النص الذي نقلناه عنه.

(٤) ابن القيم مفتاح دار السعادة ج ١ ص ١٩٨.

تعالى، وهو الأصل في هذا البحث، ذلك أن معرفة الله تعالى، المعرفة الحقة وإثبات وحدانيته هما المطلب الأول، رأينا أن نذكر فكرة موجزة عن المسالك الأخرى في إثبات وجود الله تعالى، حتى يطلع القارىء على الفرق بين المسلكين، وسأتبع في ذلك مسلك الايجاز، وسيكون كلامي هنا مختصراً لا إطناب فيه، إذ المقصود هو التمايز بين منهج القرآن الكريم وغيره من المناهج، لقول القائل: فبضدها تتميز الأشياء، فيدرك الفرق بينهما، ويتضح مسلك القرآن اتضاحاً كاملاً، ويمتاز امتيازاً تاماً، ولأنه قد قيل أيضاً:

ألم تر أن السيف ينقص قدره
إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

أولاً ـ مسلك المتكلمين: يذهب جمهور المتكلمين [١] إلى إثبات وجود الله تعالى، عن طريق حدوث العالم، ذلك أن الحدوث عندهم هو العلة المحوجة إلى المؤثر، فإذا ثبت أن العالم حادث فلا بد له من محدث، يبرزه من حيز العدم إلى حيز الوجود، وهذه قضية بدهية عندهم، فمن رأى بيتاً مبنياً منسقاً علم أن له بانياً ضرورة، إلا أن بعض مشايخ المعتزلة يرون أن هذه القضية استدلالية، وليست بدهية [٢] والواقع خلاف ما قالوا.

(١) وإنما قلت جمهور المتكلمين، لأن منهم من يستدل على وجود الله بإمكان العالم كالفلاسفة.
(٢) الايجي، شرح المواقف جـ ٨ ص ٣.

ولا شك أن القرآن الكريم، قد أشار في مسلك إثبات وجود الله تعالى إلى مسلك حدوث العالم أيضاً بالإضافة إلى المسالك الأخرى التي أرشد إليها، ولكن الفرق بين المسلكين، مسلك المتكلمين، ومسلك القرآن هو في الطريق إلى معرفة كيفية إثبات هذا الحدوث. فبينما نجد القرآن الكريم يسلك بالمخاطبين سبيل الحس والمشاهدة، لإدراك حدوث العالم، عن طريق حدوث أعيان الأشياء وتغييرها، كحدوث السحاب المسخر بين السماء والأرض، وكإنزال الماء من السماء، وإحياء الأرض بالنبات، (وبث فيها من كل دابة) وكخلق السماء والأرض، والإبل، والإنسان نفسه، كما في هذه الآيات. التي يقول الله تعالى فيها: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ، وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ، وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[1].

فقد جعل الله تعالى هذه الأعيان الحادثة، التي يدركها الإنسان إدراكاً مباشراً آيات ودلائل على وجود خالق ومحدث لها، حيث يقول جل شأنه: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ الرعد كما أنها أشارت إلى حدوث الأعراض أيضاً، فالرياح أعيان،

(١) البقرة: آية ١٦٤.

وتصريفها وحركتها أعراض[1] لها، وكلاهما يدرك بالحس.

وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾[2].

وقوله: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾[3].

وقوله: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾[4].

فهذه المذكورات في هذه الآيات أعيان حدثت بعد أن لم تكن، فدل وجودها بعد عدمها على أن لها موجداً، إذ لو كانت واجبة الوجود بنفسها لامتنع عليها العدم، هكذا يثبت القرآن الكريم حدوث العالم، ويبين تغيره المستمر، الذي لا يختص بمعرفته شخص دون آخر، إلى غير ذلك من الآيات التي تخاطب الناس بما يشاهدونه ويلمسونه في حياتهم اليومية، بل وفي أنفسهم.

ولهذا يقول أبو الحسن الأشعري: (إن الإنسان إذا فكر في خلقه من أي شيء ابتدأ، وكيف دار في أطوار الخلقة طوراً بعد طور، حتى وصل إلى كمال الخلقة، وعرف يقيناً أنه بذاته لم يكن ليدبر خلقته، وينقله من درجة إلى درجة، ويرقيه من نقص إلى

(١) ابن تيمية، النبوات ص ٥٠.

(٢) الغاشية: آية ١٧.

(٣) الطارق: آية ٥، ٦.

(٤) الطور: آية ٣٥.

كمال، علم بالضرورة، أن له صانعاً قادراً عالماً مريداً، إذ لا يتصور حدوث هذه الأفعال المحكمة من طبع، لظهور آثار الاختيار في الفطرة، وتبين آثار الإحكام والإتقان في الخلقة، فله تعالى صفات دلت أفعاله عليها لا يمكن جحدها [1].

ويؤكد ابن تيمية أن أحسن استدلال وأوضحه على وجود الله تعالى، هو الاستدلال بخلق الإنسان نفسه، كما كرره القرآن، إذ هو الدليل وهو المُسْتَدَل ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [2] ثم بما يحدثه الله في هذا العالم من آثار [3].

بينما نجد القرآن الكريم يسلك هذا المسلك، إذا بالمتكلمين يسلكون لإثبات حدوث العالم طريقاً صعب المنال حتى على المتخصصين، فضلاً عن الجمهور، وذلك لاصطلاحاتهم التي بنوا عليها حدوث العالم، فهم يقولون مثلاً: العالم جواهر وأعراض، وقد يستدل على إثبات الصانع بكل واحد منهما، إما بحدوثه أو بامكانه، والأعراض بعضها حادث بالمشاهدة، كالضوء بعد الظلمة والوجود بعد العدم، والحركة بعد السكون، وبعضها بالدليل،

---

(١) الشهرستاني: الملل والنحل جـ ١ ص ٩٤ طبعة دار الاتحاد العربي للطباعة سنة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٨ م الناشر مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع - القاهرة.

(٢) الذاريات: آية ٢١.

(٣) ابن تيمية الفتاوي جـ ١٦ ص ٢٦٢ الطبعة الأولى سنة ١٣٨٢ هـ مطابع الرياض.

وهذه الأعراض تقوم بالجواهر، فدل حدوثها على حدوث الجواهر.

فهذه المقدمات يصعب فهمها على الإنسان.

فما الجوهر؟ وما العرض؟ مثلاً. لقد اختلف المفكرون في تحديد كل منهما اختلافاً بيناً.

فهل يمكن أن يُدْرَك كل واحد منهما بالحس إدراكاً مباشراً، كما يدرك الإنسان حدوث أعيان السحاب والماء؟ وأعراض تصريف الرياح؟؟.

أو أنه يحتاج إلى الاستدلال على وجود الجواهر، وعلى تعلق الأعراض بها، إذ أنها لا تنفك عنها في نظرهم، ثم يقيم الدليل على حدوث الأعراض، ثم على حدوث الجواهر، لقيام الأعراض بها، ويثبت كل ذلك أولاً، فإذا ثبت له ذلك استدل على أن لها محدثاً ثانياً.

الواقع أنهم يذكرون هذه المقدمات، ليستدلوا بها على إثبات حدوث الجواهر، والجَوْهر المقصود به الذات المتحيزة، مبني على نظرية الجواهر الفردة، وهي التي تقول: إن العالم مكون من ذرات، أي من أجزاء لا تتجزأ، ثم من اجتماع تلك الذرات تتكون

الأجسام، فالذي يحدث في الأجسام هـو تجمعهـا [1]، والتجمـع عرض.

اما حدوث الجواهر فيعلم بالاستدلال بحدوث تلك الأعراض، لا بمشاهـدة حـدوث الأعيـان ذاتها، وذلـك لأن الجواهـر التي تكونت منها هذه الأجسام قبلت الاجتماع والافتراق، وما كانت صفته كذلك فهو حادث، على قولهم ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث.

ولكن هذه النتيجة غير مسلمة، بل يعترض عليها من يثبت لله تعالى صفات الأفعال الاختيارية الواردة في النصوص الشرعية من الكتاب والسنة فهي قضية مطعون فيها.

فكأن المستدل على وجود الله تعالى بحدوث العالم عن هذا الطريق يحتاج إلى ما يأتي: -.

أولاً: إلى إثبات الجواهر الفردة.

ثانياً: إلى إثبات حدوثها.

ثالثاً: ثم الاستدلال بعد ذلك على أن لها محدثاً.

---

(١) ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان ص ٧٩، ٨٠.

وهكذا نرى أن طريقة المتكلمين في إثبات وجود الله تعالى، شاقة، وصعبة المنال حتى على المتخصصين فضلاً عن الجمهور، مع الاعتراضات الموجهة إليها، والواردة عليها، ثم بطلان نظرية الجوهر الفرد علمياً الآن، فالجوهر الفرد عندهم هو الجزء الذي لا يتجزأ، وقد أثبت العلم الحديث تجزأه، فدل ذلك على فساد النظرية، ثم إن هذه النظرية مأخوذة عن الماديين الطبيعيين، من فلاسفة اليونان ذلك أن الواضع لنظرية (الجوهر الفرد) هو (ديمقريطي[1] ٤٧٠ ق.م) الفيلسوف الذي قرر أن هذا العالم يتركب من جزئيات غاية في الصغر، وأنها لا نهاية لها، وهي (الجواهر الفردة)، ورأى أن هذه الجواهر تتجمع، وتتفرق من تلقاء نفسها، وبواسطة حركة ذاتية فيها، فيتكون من اجتماعها الأجسام ومن تفرقها عدم الأجسام، وهذه الحركة لم تستمدها الجواهر من أية قوة أخرى أو أصل آخر، وإنما من طبيعتها)[2].

وهذه نظرية من لا يؤمن بخالق لهذا الكون ومن فيه.

---

(١) فيلسوف يوناني، وجد في القرن الخامس الميلادي، الدكتور محمد السيد نعيم والدكتور عوض الله جاد حجازي، في الفلسفة الإسلامية وصلاتها بالفلسفة اليونانية ص ٣١ الطبعة الثانية سنة ١٣٧٩ هـ - ١٩٥٩ م.

(٢) ا. س رايوبرت، مبادىء الفلسفة، ترجمة أحمد أمين ص ٢٥٢، الناشر، دار الكتاب العربي بيروت سنة ١٩٦٩ م.

وقد أثبت العلم بطلان هذه النظرية، كما أثبت الشرع أن كل حركة لا بد لها من محرك.

ثانياً ـ مسلك الفلاسفة:

أما الفلاسفة الإلهيون فلم يسلكوا في الاستدلال على وجود الله تعالى مسلك المتكلمين، وهو الاستدلال بالحادث على المحدث، أو بالصنعة على الصانع، وإنما سلكوا مسلكاً آخر، هو ما يسمى في عرف العلماء بدليل الإمكان، كي يثبتوا به الواجب.

فقد قالوا: إن الموجود لا يخلو من أن يكون واجباً أو ممكناً، والواجب ما كان وجوده من ذاته، والممكن ما كان وجوده من غيره، أي أنّ الممكن ما لا يكون وجوده أولى من عدمه بحسب ذاته، وحينئذ فلا بد له من مؤثر يرجح جانب الوجود على جانب العدم، هذا المؤثر إما أن يكون واجب الوجود بذاته، أو ممكن الوجود، فإن كان واجب الوجود بذاته ثبت وجود الواجب وهو المطلوب.

وإن كان ممكن الوجود احتاج إلى علة ترجح وجوده على عدمه، وتسلسل الممكنات إلى غير نهاية ممتنع، إذ لا بد من الانتهاء إلى علة غير محتاجة إلى علة أخرى توجدها، هذه العلة عندهم هي (واجب الوجود) أي الله تعالى.

وفي ذلك يقول ابن سينا في كتابه: النجاة:

(لا شك أن هنا وجوداً، وكل وجود فإما واجب أو ممكن، فإن كان واجباً فقد صح وجود الواجب وهو المطلوب.

وإن كان ممكناً فإنا نـوضـح أن الممكـن ينتهـي وجـوده إلى واجب الوجود... ثم ينهي ابن سينا سلسلة الممكنات إلى علة واجبة الوجود، إذ ليس لكل ممكن علة ممكنة بلا نهاية[1].

ويقول في كتابه: الإشارات والتنبيهات، مشيراً إلى هذا المعنى:

(كل موجود إذا التفت إليه من حيث ذاته من غير التفات إلى غيره فإما أن يكون بحيث يجب له الوجود في نفسه، أو لا يكون، فإن وجب فهو الحق بذاته الواجب الوجود من ذاته، وهو القيوم.

وإن لم يجب لم يجز أن يقال إنه ممتنع بذاته بعد ما فرض موجوداً، أي في قولنا كل موجود بل إن قرن باعتبار ذاته شرط مثل شرط عدم علته صار ممتنعاً، أو مثل وجود علته صار واجباً. وإن لم يقرن بها شرط، لا حصول علة ولا عدمها بقي له في ذاته الأمر الثالث وهو الإمكان؛ فيكون باعتبار ذاته الشيء الذي لا يجب ولا يمتنع.

(١) ابن سينا، النجاة ص ٢٣٥ الطبعة الثانية سنة ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م.

فكل موجود إما واجب الوجود بذاته.

أو ممكن الوجود بحسب ذاته [١]

وعلى ذلك فالممكن في نظر الفلاسفة ليس وجوده من ذاته بل من غيره، فإن من الممكن في حد ذاته ليس وجوده بأولى من عدمه، فإذا وجد فلا بد أن يكون ذلك بمؤثر خارج عن ذاته، وفي ذلك يقول ابن سينا:

(ما حقه في نفسه الإمكان فليس يصير موجوداً من ذاته، فإنه ليس وجوده أولى من عدمه، من حيث هو ممكن، فإن صار أحدهما أولى فلحضور شيء أو غيبته) [٢].

ولكن قد يقال: هذا الواجب بذاته الذي أثبته ابن سينا، والفارابي [٣] من قبله، هل هو الله الخالق للعالم بقدرته ومشيئته واختياره، كما قال تعالى: ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون﴾ [٤].

---

(١) ابن سينا، الاشارات والتنبيهات ص ٤٤٧ جـ ٣، القسمان الثالث والرابع تحقيق د. سليمان دنيا، مطبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٧ م.

(٢) ابن سينا، الاشارات والتنبيهات ص ٤٤٨ جـ ٣.

(٣) الدكتور محمد السيد نعيم، والدكتور عوض الله حجازي في الفلسفة الإسلامية، وصلاتها بالفلسفة اليونانية ص ٢٢٠، الطبعة الثانية سنة ١٣٨٩ هـ - ١٩٥٩ م دار الطباعة المحمدية بالأزهر بالقاهرة.

(٤) القصص: آية ٦٨.

وكما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[1].

الواقع أن فلاسفة الإسلام لم يثبتوا للعالم خالقاً ومدبراً أوجد العالم بمشيئته واختياره، وإنما أثبتوا واجب وجود بذاته، هو - (الله) وجعلوه علة تامة، صدر عنها معلولها من غير اختيار ولا مشيئة، كصدور شعاع الشمس عنها.

أما خلق العالم وتدبيره، فقد أحالوه على العقول والأفلاك التي انفصلت عنه تعالى: عند تعقله لذاته، بدون اختياره ومشيئته، وبواسطة تلك العقول كان الخلق والتدبير، والإيجاد والإعدام.

أما الله - واجب الوجود - عندهم -، فلا صلة له بالعالم، لا من ناحية الخلق، فالخلق والتأثير إنما هو للعقول والأفلاك الناشئة عنه بطريق العلية، ولا من ناحية العلم فهو لا يعلم الجزئيات الكائنة في العالم، بل يعلم النظام العام للكون، ذلك لأن الجزئيات ناقصة، والله كامل، وعلم الكامل بالناقص ينقصه في نظرهم.

وبعد: فهذه نبذة عن بعض آراء الفلاسفة في إثبات وجود الله سبحانه وتعالى، وبعض صفاته.

---

(١) الزمر: آية ٦٢.

والمتأمل فيها، مع ما سبق عرضه من كتاب الله تعالى في إثبات وجود الله سبحانه وتعالى، يدرك أن ـ الإله ـ الذي أثبته الفلاسفة، هو غير ـ الإله ـ الذي جاء وصفه في كتاب الله تعالى ـ القرآن الكريم ـ من أنه الخالق، القادر، المدبر، الحافظ لهذا العالم بمشيئته واختياره، الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، والقائل مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[1].

وهو الذي علم عباده المؤمنين به أن يدعوه في السراء والضراء.

أما إله الفلاسفة، فلا يعلم عن العالم شيئاً، لأنه لم يخلقه باختياره، ولذلك فهو لا يفكر فيه وإنما تفكيره في ذاته فلا يعقل سواها.

لأن واجب الوجود بذاته عندهم، عقل، وعاقل، ومعقول[2].

---

(١) البقرة: آية ١٨٦.

(٢) ابن سينا ـ النجاة ص ٢٤٣.

الفصل الثالث

مسلك القرآن الكريم
في إثبات الوحدانية

تمهيد :

توحيد الألوهية : هو توحيد الله بأفعال عباده.

ولما كان هذا النوع من أنواع التوحيد هو مناط الإيمان بالله وحده، واخلاص العبادة له ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ [1]. ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [2] فقد أفصح عنه القرآن الكريم كل الافصاح، وأبدا فيه وأعاد وضرب لذلك الأمثال المحسوسة والمشاهدة التي يعيشها المخاطب ويتعامل معها بعقله ومشاعره لذا نجد في كل سورة من سور القرآن الكريم الدلالة على هذا التوحيد إذ أن الخصومة بين الأنبياء

(١) الزمر : آية ٣.

(٢) البينة : آية ٥.

وأممهم إنما كانت في هذا النوع من أنواع التوحيد. فالشرك الذي حدث من جميع الأمم إنما كان في هذا النوع.

أما توحيد الربوبية: والتي سبقت الأدلة الواضحة عليه من القرآن الكريم فعامة مشركي الأمم مقرين بالخالق إلا من فسدت فطرته فانحرف عن خط العقلاء، ولكنهم مع اقرارهم به أشركوا معه غيره يقول عز من قائل: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [1].

أما توحيد الألوهية: فقالوا عنه ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [2]، ومن أجل ذلك تتابعت الرسل لدعوة الناس إلى عبادة الله وحده، وترك ما يدعون من دونه. ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [3] ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [4].

وعبادة الله شاملة لكل أفعال العباد قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى

---

(١) الزخرف: آية ٨٧.

(٢) ص: آية ٥.

(٣) فاطر: آية ٢٤.

(٤) النساء: آية ١٦٥.

﴿وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[1].

ثم ان عقيدة التوحيد أقدم في تاريخ البشرية من العقائد الوثنية جميعاً، ذلك أنها وجدت كاملة منذ اللحظة الأولى، لأنها ليست نابعة من أفكار البشرية كما يرى أصحاب مذهب التطور. وإنما هي فطرة الله التي فطر عباده عليها، فقد خلقهم حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم وأضلتهم، هذا ما يقرره القرآن الكريم، والسنة النبوية، وعليه التصور الإسلامي، فقد أهبط الله عز وجل آدم عليه السلام إلى الأرض ليقوم فيها بالخلافة التي اختاره الله للقيام بها، بعد أن تلقى كلمات من ربه فتاب عليه وأخذ عليه العهد والميثاق أن يتبع ما يأتيه من هدى الله، وأن لا يتبع الشيطان فيضله عن سبيله. قال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[2].

وما من شك أن آدم عليه السلام علَّم بَنِيه الإسلام وهو عقيدة التوحيد جيلاً بعد جيل، وأن الإسلام كان أول عقيدة عرفتها

---

(١) الأنعام: آية ١٦٢ ـ ١٦٣.

(٢) البقرة: آية ٣٨ ـ ٣٩.

البشرية في الأرض، ثم انحرفت عن منهج الله وهديه، قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ...﴾ (١) أي كان الناس أمة واحدة على الإيمان ودين الحق، دون الكفر بالله والشرك به، فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين (٢).

يوضح ذلك قوله تعالى في سورة يونس: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٣). فحين اختلفوا أرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين، يبشرون من أطاع الله بجزيل الثواب وكريم المآب، وينذرون من عصى الله فكفر به بشدة العقاب وسوء الحساب والخلود في النار.

فكان أول رسول إلى الناس بعد اختلافهم نوح عليه السلام دعاهم إلى عبادة الله وحده كما قال تعالى حكاية عنه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ (٤).

---

(١) البقرة: آية ٢١٣.

(٢) ابن جرير / التفسير ٢ / ٣٣٥ - ٣٣٧.

(٣) يونس: آية ١٩.

(٤) نوح: آية ٢ - ٣.

وقوله: ﴿ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾. وقد ردوا عليه دعوته متمسكين بعبادة آلهتهم التي اتخذوها من دون الله: ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا. وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا ﴾[(١)].

فنوح عليه السلام أرسل لاعادة الناس إلى دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها كما قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[(٢)].

ويقول رسول الهدى ﷺ: (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه)[(٣)]. وقوله ﷺ: قال الله تعالى: ﴿ خلقت عبادي حنفاء كلهم وأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ﴾[(٤)].

وهنا نقول كذب علماء الأديان المقارنة القائلين بتطور العقيدة،

---

(١) نوح: آية ٢٣ ـ ٢٤.

(٢) الروم: آية ٣٠.

(٣) خ في الجنائز فتح الباري ٢١٩/٣ ح ١٣٥٨، ١٣٥٩. و م / في القدر ٢٠٤٨/٤ ح ٢٤.

(٤) م / في الجنة / ٢١٩٧/٤ ح ٦٣.

من التعدد إلى الانتخاب ثم التوحيد[1]. وإنما كانت البشرية على دين الإسلام وهو دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها حتى اجتالتهم شياطين الجن والإنس، فإشركوا بالله خالقهم وعبدوا معه غيره، فأرسل الله إليهم الرسل ليعيدوهم إلى الطريق السوي قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[2].

وقد عالج القرآن الكريم انحراف الناس عن توحيد الله بأنواع من الأساليب الواضحة المتصلة بحياة الناس ومشاعرهم، وبين لهم أن كثيراً من أعمالهم التي يتوجهون بها لغير الله هي حق لله لا يجوز صرفها لغيره، حتى استقاموا على أمر الله واتبعوا رسوله الذي تركهم على المحجة البيضاء، ثم اختلط هذا الأمر بعد ذلك على كثير من الناس لا سيما في العصور المتأخرة فخلطوا بين ما هو حق خالص لله لا يجوز صرفه لغيره، وبين أمور من هذا الباب ظنوا أنها من الأمور التي يجيزها الشرع.

ومن هذه الأنواع المشتبهة:

١ ـ الدعاء.

٢ ـ الحب القلبي.

---

(١) انظر كتاب الدين. ص ١١١ ـ ١١٩ للدكتور محمد عبدالله دراز.
(٢) فاطر: آية ٢٤.

٣ ـ الشفعاء.

٤ ـ النية والقصد.

٥ ـ حق التشريع.

وسنعرض لهذه الأنواع بشيء من التوضيح بأمثلة من الكتاب والسنة.

كما سنذكر في هذا البحث نماذج من طريقة القرآن في إثبات الوحدانية.

فنقول:

المتأمل في كتاب الله تعالى يجد أن أكثر الحوار الذي دار بين الأنبياء وأممهم إنما هو في إثبات قضية الوحدانية لله تعالى.

أما ما حدث من بعضهم من مثل ما حكاه الله عز وجل عن الدهرية في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[١].

فهو من قلة من الناس ممن فسدت فطرتهم فانحرفوا عن منهج العقلاء، كما هو الحال في أتباع الماركسية في عصرنا الحاضر، وإلا

---

(١) الجاثية: آية ٢٤.

فوجود الله تبارك وتعالى من بدهية الفطرة، ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ .. ﴾[١].

وفي كـل شيء لـه آيـة تـدل على أنـه واحـد.

ولا دليل عند أولئك في نفي وجود الخالق. إنما عندهم الظن. فقد قال الله لهم، ﴿ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ فالجهل بالشيء لا يدل على عدم وجوده، والظن لا يغني من الحق شيئاً، وقد نفى الله العلم عنهم، وبين قصور الحجة عندهم، وبين أن دعواهم بأنهم خلقوا من غير شيء دعوى باطلة، إذ كل عاقل يعلم أنه لم يخلق نفسه ولا أولاده، ولا السموات والأرض، قال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾[٢].

وقد بين القرآن الكريم، بأن المشركين جميعاً حتى المدعين للربوبية الحاداً يعترفون بهذه الحقيقة، أي أنه لا خالق إلا الله تبارك وتعالى، إذ لم يدع أحد صفة الخلق والايجاد عبر تاريخ البشرية كلها. ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾[٣].

---

(١) ابراهيم: آية ١٠.

(٢) الطور: آية ٣٥ ـ ٣٦.

(٣) لقمان: آية ٢٥.

أما ما ادعاه النمرود بن كنعان، كما ذكر الله ذلك عنه في محاجته لإبراهيم عليه السلام في ربه قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[1].

وفيها دعواه أنه يحي ويميت، كما أن إله إبراهيم يحي ويميت. فهو يماثل إله إبراهيم في هذه الخاصة كما يزعم.

وهو لعناده ومغالطته، أو لبلاهته، فقد فسر الحياة بالعفو عمن يستطيع قتله، والإماتة بمن ينفذ فيه حكم الاعدام.

ولذلك فإن إبراهيم عليه السلام قطع لجاجته ودحض حجته، حيث بين له، أن الله وهو إله إبراهيم ومعبوده يأتي بالشمس من المشرق، فعليه إن كان رباً وإلهاً معبوداً كما يدعي أن يأتي بها من المغرب، فبهت الذي كفر وانقطعت حجته. والله لا يهدي القوم الظالمين.

والملحد الآخر المدعي للربوبية والألوهية، هو فرعون، فقد

---

(١) البقرة: آية ٢٥٨.

تظاهر بادعاء الربوبية لنفسه كما حكى الله ذلك عنه بقوله: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ (١) ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي..﴾ (٢).

وقد بين القرآن الكريم حين تحدث عن فرعون وملئه أنهم قد عرفوا الحق، ولكنهم استكبروا عن اتباعه ظلماً وعلواً في الأرض. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٣).

والماركسيون يعترفون بوجود قوة خفية تحرك هذا الكون وتدبره أسموها الطبيعة، وهو في الواقع إلـهَهُمْ إذ ينسبون إليها إيجاد هذه الموجودات، فهم لم يدعوا خلق أنفسهم، وعليه فهذه القوة التي أسموها الطبيعة هي الله عند المؤمنين به، كما أن الفلاسفة سموا الإله المحرك الاول.

ولذلك فإن الأدلة التي سبقت في مبحث إثبات وجود الله تعالى هي أدلة قاطعة على إثبات وحدانيته سبحانه وتعالى فالله يقول

---

(١) النازعات: آية ٢٣ ـ ٢٤.

(٢) القصص: آية ٣٨.

(٣) النمل: آية ١٣، ١٤.

مبينا وموضحاً هذه الحقيقة: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[1].

وهذا المسلك في الاستدلال: هو ما يسميه علماء الكلام بدليل التمانع.

وهو انتظام الكون وسلامته من الخلل، الذي يدل على أن هذا النظام والأحكام من تدبير إله واحد.

وتقرير الدليل هكذا:

لو كان هناك آلهة متعددة لحصل الفساد في نظام هذا الكون، إذ لكل إله إرادة تخالف إرادة الآخر، فمثلا هذا يريد احياء شخص والآخر يريد إماتته، أو هذا يريد طلوع الشمس، وهذا يريد غروبها، فتحصل معارضة الإرادتين، فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين، والواجب لا يكون عاجزاً، ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد، وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد فيكون محالا، فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر، كان الغالب هو الواجب وهو الإله الحق، والآخر المغلوب ممكنا.

والواقع المشاهد يؤكد صلاح العالم وانتظام الكون وسلامته من

---

(١) الانبياء: آية ٢٢.

الخلل والفساد، فثبت بذلك الوحدانية لله تعالى، التي بها صلاح العالم، وبطل ما يؤدي إلى فساده وهو تعدد الآلهة.

ومن هذا الباب(١) قوله تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾(٢).

حال العرب عند نزول القرآن:

والجاهليون حين نزول القرآن الكريم كانوا يؤمنون بالله وأنه هو الخالق وحده إلا من فسدت فطرته وإنما كانوا يشركون معه آلهة أخرى لا يدّعون لها الخلق والايجاد وإنما يتقربون بها لتشفع لهم عند الله، ولذلك عجبوا حين دعاهم رسول الله ﷺ إلى عبادة الله وحده، واتهموه بالسحر والكهانة والكذب.

يقول تعالى مخبراً عن ذلك: ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾(٣).

---

(١) ابن كثير (٣/٢٥٤).

(٢) المؤمنون: آية ٩١.

(٣) ص: آية ٤، ٥.

وقوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾[1].

ومع هذا الانكار الشديد على توحيد الألوهية فهم يعترفون بتوحيد الربوبية قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ..﴾[2].

فكأنهم يقولون، فالله إذا كان خالقاً وحده، لا يلزم من ذلك أن يكون منفرداً بالعبادة ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً﴾ ذلك أن عبادتنا لغيره ما هي إلاّ وساطة بتلك المعبودات كي تقربنا إلى الله زلفى ﴿.. مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ..﴾[3].

وسبب هذا التمسك والمحافظة على هذه الوسائط والاستمرار في اتخاذها شفعاء عند الله وإن كانت لا تنفع نفسها، هو الألف والعادة فلا مجال للعقل أن يفكر بل ما تلقوه عن الآباء وورثوه عن الأجداد هو الدين، ولو كان الآباء والأجداد لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون. ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[4].

---

(١) يونس: آية ٢.
(٢) لقمان: آية ٢٥.
(٣) الزمر: آية ٣.
(٤) الزخرف: آية ٢٣.

وقال أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية لأبي طالب عند الوفاة: أترغب عن ملة عبدالمطلب. ورسول الله ﷺ يقول له: قل لا إله إلا الله أحاج لك بها عند الله فكان آخر كلامه أن قال: هو على ملة عبدالمطلب[1].

فلما دعاهم رسول الهدى ﷺ إلى خلع هذه الأنداد المتخذة مع الله وطلب منهم أن يفردوا الله وحده بالعبادة لأنه الإله الحق، وأن يتركوا تلك الوسائط والشفعاء التي لا تدفع عن نفسها شراً. فضلا عن أن تنفع غيرها، أعظموا ذلك الأمر واستغربوه وتعجبوا من قائله، وانطلق سادات القوم وكبراؤهم يحثون أتباعهم على الاستمرار على دينهم والسدور في شركهم، يحثونهم على الصبر على آلهتهم، وأن لا يستجيبوا لدعوة محمد ﷺ التي يدعوهم فيها إلى توحيد الخالق في العبادة، الذي يعترفون له بأنه الواحد في الخلق، متهمين رسول الله أنه إنما يريد بهذه الدعوة الشرف والاستعلاء عليهم، وما دعواه النبوة وإنزال الوحي عليه إلا افتراء واختلاق إذ كيف اختصه الله من بينهم بذلك، يقول الله في ذلك: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا

(١) خ / التفسير باب إنك لا تهدي من أحببت... فتح الباري ٨/٥٠٦، ح ٤٧٧٢.

ٱخۡتِلَٰقٌ ۝ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴾[1].

هكذا كان حال أولئك المشركين حين يدعون إلى توحيد الله وافراده بالعبادة.

وقد سلك القرآن الكريم في دعوتهم إلى ترك هذه الآلهة المزعومة مسالك متعددة منها:

١ - بيان عجز الآلهة المدعوة من دون الله:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ۝ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[2].

يبين تبارك وتعالى لعباده أن هذه الآلهة المزعومة المدعوة من دونه عاجزة وضعيفة فلو اجتمعت كلها لإيجاد مخلوق حقير مثل الذباب لا تستطيع ذلك، بل إن الذباب الحقير لو أخذ منهم شيئاً من حقير المطاعم، وطار به، لما استطاعوا انقاذه منه وهذا يؤكد

---

(١) ص: آية ٦، ٨.

(٢) الحج: آية ٧٣، ٧٤.

عجز هذه الآلهة وضعفها أمام هذا المخلوق الضعيف (ضعف الطالب والمطلوب). أفمن كانت هذه صفته يصلح لأن يعبد ليَرْزق ويسْتنصر، إذاً فالغارقون في عبادة هذه الأوثان، لم يقدروا الله حق قدره وهو القوي العزيز. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(١).

٢ ـ بيان أن الخلق عنوان العبادة:

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾(٢).

﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾(٣).

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾(٤).

وقد تعددت الآيات التي تنبه عقول المخاطبين وتبين لهم بأن أولئك الشركاء المدعوين مع الله لا يستطيعون تقديم شيء لمن دعاهم، بل إنهم عاجزون عن نصرة أنفسهم فيما إذا اعتدى عليهم فكيف يسوغ دعاؤهم عند أصحاب العقول والفطر السليمة، يقول

(١) البقرة: آية ٢١.
(٢) النحل: آية ١٧.
(٣) لقمان: آية ١١.
(٤) الأنعام: آية ١٠٢.

تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (١).

فهذه الآيات تضمنت الانكار الشديد من الله تبارك وتعالى على المشركين الذين يعبدون مع الله غيره من الأنداد والأصنام والأوثان، إذ كيف يسوغ لمخلوق منحه الله العقل والسمع والبصر أن يعبد مخلوقاً مثله، مصنوع مربوب لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا يملك من الأمر شيئاً، بل إن أكثر هذه المعبودات جماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تبصر، وعابدوها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم، ولهذا قال: أيشركون به من المعبودات مالا

---

(١) الأعراف: آية ١٩١ ـ ١٩٨.

يخلق شيئاً ولا يستطيع ذلك.. [1].

ثم يتابع تبارك وتعالى بيان ضعف هذه الآلهة فيقول: ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ [2]. فهي لا تستطيع نصر عابديها، بل ولا نصر أنفسها ممن أرادها بسوء كما كان الخليل عليه السلام يحطم أصنام قومه التي يعبدونها: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴾ [3]. ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ [4].

ولننظر لقصة عمرو بن الجموح سيد قومه مع صنمه الذي كان يعبده، ويطلب منه أن يدفع عن نفسه الشر إن كان فيه خيراً بعد أن يقدم له السلاح. وكان من خبره أن له صنماً في داره اتخذه من خشب سماه مناة. كما كانت الأشراف يصنعون تتخذ إلهاً تعظمه وتطهره. فكان يطيب صنمه هذا وينظفه، فلما أسلم فتيان بني سلمة معاذ بن جبل، وابنه معاذ بن عمرو بن الجموح في فتيان منهم، ممن أسلم وشهد العقبة، كانوا يَدْلجون بالليل على صنم عمرو

---

(١) ابن كثير / ٢/...
(٢) الأعراف: آية ١٩٢.
(٣) الصافات: آية ٩١ ـ ٩٣.
(٤) الأنبياء: آية ٥٨.

فيحملونه فيطرحونه في بعض حفر بني سلمة، وفيها عذر الناس منكساً على رأسه، فيلتمسه فيرى ما صنع به، فيغسله ويطيبه، ثم يقول: أمَا والله لو أعلم من فعل هذا بك لأخزينّه. فإذا نام وأمسى عمرو، عدوا عليه ففعلوا به مثل ذلك، فيغدوا فيجده في مثل ما كان فيه من الأذى. فلما أكثروا عليه استخرجه من حيث ألقوه، فغسله وطهره وطيبه، ثم جاء بسيفه فعلقه عليه، ثم قال: إني والله ما أعلم من يصنع بك ما ترى، فإن كان فيك خير فامتنع فهذا السيف معك، فلما أمسى ونام عمرو عدوا عليه، فأخذوا السيف من عنقه، ثم أخذوا كلباً ميتاً فقرنوه به بحبل، ثم ألقوه في بئر من آبار بني سلمة، فيها عذر من عذر الناس ثم غدا عمرو بن الجموح فلم يجده في مكانه الذي كان به، فخرج يتبعه حتى وجده في تلك البئر منكساً مقروناً بكلب ميت، فلما رآه وأبصر شأنه، وكلّمه من أسلم من رجال قومه، فأسلم وحسن إسلامه.

فقال حين أسلم وعرف من الله ما عرف وهو يذكر صنمه ذلك ويشكر الله تعالى الذي أنقذه مما كان فيه من العمى والضلالة:

والله لـو كنـت إلها لم تكـن   أنت وكلب وسط بئر في قـرن
أف لملقــاك إلها مستـــدن   الآن فتشناك عن سـوء الغبن
الحمــد لله العلي ذي المنـن   الواهب الرزاق ديـان الديـن
هو الذي أنقذني من قبـل أن   أكـون في ظلمـة قبر مـرتهن

بـــأحمد المهـــدي النبي المرتهن[1]

كما بين سبحانه في هذه الآيات أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها، ولا تبصر من تقرب إليها، فلا فرق بين دعائكم إياها وعدم دعائكم في أنها لا تسمع ولا تجيب ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾[2]. ذلك أنهم عباد الله أمثالكم.

وكما قال إبراهيم عليه السلام لأبيه كما حكى الله ذلك عنه: ﴿... يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾[3].

وأخيراً يوجه لهم الرسول ﷺ بعد أن بين لهم ضعف آلهتهم وعجزها تحدياً لأن يجتمعوا هم وشركاؤهم فيكيدون له إن استطاعوا. ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾[4].

وذلك لأنه لا يعبد إلهاً عاجزاً مثل آلهتهم وإنما إلهه ومعبوده ووليه هو الله جل جلاله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين بالنصر والتأييد. أما آلهتهم فلا تستطيع أن تعمل من ذلك شيئاً لأنها لا تسمع ولا تبصر وإن مثلت بصورة من يسمع ويبصر.

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٤٥٢ - ٤٥٣.

(٢) الأعراف: آية ١٩٣.

(٣) مريم: آية ٤٢.

(٤) الأعراف: آية ١٩٥.

﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (١).

وهكذا يُسلك القرآن الكريم هذا المسلك ليقطع طمع هؤلاء في التعلق بهذه المعبودات فيبين لهم عجزها من الواقع المحسوس لهم، فكما انها لا تستطيع ايجاد ذباب، ولا أن تستنقذ منه ما سلبه منها، ولا تستطيع نصر أحد ولا تدفع الضر عن نفسها، فكذلك هي أوهى من بيت العنكبوت.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ (٢).

ب ـ بيان أنهم عند الشدة يلجؤون إلى الله وحده:

فيلزمهم أن يخلصوا له الدين دائماً.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ

---

(١) الأعراف: آية ١٩٦ ـ ١٩٨.

(٢) العنكبوت: آية ٤١.

﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١).

هكذا كان حالهم، ففي حال الرخاء يشركون بالله تعالى. أما في حال الأزمات والضيق والشدة فيعلمون أن المفرج لتلك الكربات، والمنجي من تلك المهلكات هو الله تعالى القدير، فيخلصون له العبادة فلا يدعون معه غيره، كما قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ (٢). ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ . قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ (٣).

وفرعون واحد من هؤلاء فقد رفض الإيمان بإله موسى، وحين رأى الهلاك وأدركه الغرق، انجلى عن الفطرة ما كان قد شابها، فكرر الإيمان ثلاثاً علّه يستجاب له فينجو، ولكن كان ذلك في

---

(١) يونس: آية ٢٢ ـ ٢٣.

(٢) الاسراء: آية ٦٧.

(٣) الانعام: آية ٦٣ ـ ٦٤.

وقت لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل.

قال تعالى: ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[1].

ولكن الله يقول: ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ ﴾[2].

ولذلك قال له: ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[3].

وفي الحديث: عن عمر أن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ لأبي، كم تعبد اليوم إلهاً؟

قال: سبعة... ستة في الأرض وواحد في السماء.

قال: فأيهم تعده لرغبتك ورهبتك؟

قال: الذي في السماء.

قال: أما إنك لو أسلمت علمتك كلمتين ينفعانك، فلما أسلم الحصين.

---

(١) يونس: آية ٩٠.

(٢) النساء: آية ١٨.

(٣) يونس: آية ٩١.

قال: يا رسول الله علمني الكلمتين اللتين وعدتني.

قال: اللهم ألهمني رشدي وأعذني من شر نفسي[١].

وإذا كانوا يخلصون لله العبادة في حال الشدة فيلزمهم أن لا يشركوا في حال الرخاء لأن الله لا يقبل من الدين إلا ما كان خالصاً.

كما قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۞ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾[٢].

وفي الحديث القدسي: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه)[٣].

جـ- تذكير المخاطبين بالنعم التي انعم الله بها عليهم:

من الأساليب التي سلكها القرآن الكريم لرد الفطرة إلى طبيعتها التي فطر الله الناس عليها، تذكيرهم بالنعم التي أسداها إليهم والتي يدركون بالحس أنهم لم يحدثوا منها شيئاً، وإنما الله هو الذي تفضل بها عليهم.

---

(١) سنن الترمذي ٥/١٥٧ ح٣١٧٩ (تحقيق إبراهيم عطوة).
(٢) الزمر: آية ٢، ٣.
(٣) م / كتاب الزهد / باب من أشرك في عمله غير الله ٤/٢٢٨٩ ج٤٦ (تحقيق فؤاد عبدالباقي).

ثم يعقب ذلك بعرض بعض قصص الأنبياء في دعوتهم لأممهم لمثل ما دعاهم إليه رسول الله ﷺ من اخلاص العبادة لله وحده. وبيان ما حل بأولئك الذين لم يستجيبوا لدعوة أنبيائهم من العذاب. تحذيراً للمخاطبين أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك المكذبين وقد عرض القرآن الكريم كثيراً من ذلك في سور متعددة نذكر من ذلك نموذجين:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾[1].

وبعد أن عدد الله تبارك وتعالى هذه النعم، وهي في نفس الوقت آيات واضحات ودلالات بينات على وحدانيته سبحانه وتعالى، اتبع ذلك بذكر الأنبياء مع أممهم وبيان ما حل بالمكذبين منهم. قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ

(١) المؤمنون: آية ١٧ - ٢٢.

مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾[1].

إلى قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[2].

وهكذا يقص الله تبارك وتعالى على هذه الأمة ما حل بالأمم السابقة التي كذبت رسلها فأهلكهم الله جميعاً فأصبحوا أحاديث وكأنهم لم يوجدوا، ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا

(١) المؤمنون: آية ٣١ ـ ٣٤.

(٢) المؤمنون: آية ٤١ ـ ٤٤.

كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ﴾[1].

النموذج الثاني:

قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾[2].

ينزه الله تبارك وتعالى نفسه عن الشركاء فهو الواحد الأحد، ليس له شريك في الملك، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[3].

ويقرر أمر النبوة، بإنزال الملائكة بالوحي من السماء، على من اختارهم واصطفاهم من عباده ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾[4]. لينذروا الناس ويبينوا لهم أن الإله المعبود هو الله وحده، وأن هذه الآلهة المزعومة والشركاء المدعوين من دونه لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً.

---

(١) القمر: آية ٤١ ـ ٤٣.
(٢) النحل: آية ١ ـ ٢.
(٣) الحج: آية ٣١.
(٤) الحج: آية ٧٥.

(إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم. . . .).

ثم يتبع ذلك بالأدلة على من يستحق العبادة، تلك الأدلة التي تخاطب العقل والوجدان معاً. أدلة ملموسة محسوسة يعيشها المخاطبون يشاهدونها بأبصارهم، ويدركونها بعقولهم منها:

١ - خلق السموات التي يدرجون تحتها.

٢ - وخلق الأرض التي يعيشون عليها.

٣ - وخلق المخاطبين أنفسهم، فهم الدليل والمستدل عليه ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[1].

٤ - وخلق ما به استقامة حياتهم وصلاح معاشهم.

يقول الله تعالى في ذلك: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[2].

(١) الذاريات: آية ٢١.

(٢) النحل: آية ٢ - ٧.

هكذا يبين الله تعالى الأدلة على وحدانيته فالموجد لجميع المخلوقات يجب أن يكون هو المعبود وحده ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١).

ويخبر عن النقلة الهائلة بين خلق الإنسان من نطفة ضعيفة حقيرة مهينة لا تكاد تكون شيئاً مذكوراً، وبين أن يصبح خصيماً مبيناً، ومن يخاصم، يخاصم خالقه الذي أوجده من العدم: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾ (٢).

ثم يذكر الإنسان بأن من نعم الله عليه هذه المركوبات التي سخرها له، من الخيل والبغال والحمير، والتي يتخذها زينة، ويشير إلى ما سيخلقه مما لا يعلمه المخاطبون في عصرهم من انواع المركوبات، والحاملات للأثقال التي يشق عليهم حملها، والأنواع المعدة للزينة (ويخلق ما لا تعلمون).

ثم يتبع ذكر الآيات المحسوسة والمشاهدة التي هي جزء من حياة الإنسان: ويطلب منه أن يتفكر ويتعقل هذه الآيات، ثم يتذكر لعله بذلك يشكر الله الذي أوجد له هذه النعم ويسرها له حتى يعبده وحده لأن الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة، بخلاف

---

(١) البقرة: آية ٢١.

(٢) يس: آية ٧٨.

الذي لا يستطيع الخلق والايجاد.

يقول الله تعالى في ذلك: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَـٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلَـٰمَـٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (١).

ثم يلفت أنظار المخاطبين الغافلين عن التعقل والتدبر في هذه المشاهد، ويذكرهم بأن موجد هذه الأشياء وخالقها ومسخرها لهم هو المستحق للعبادة وحده، وينفي سبحانه التسوية بين المعبود الحق، والمعبودات الباطلة التي لا تخلق شيئاً وذلك في استفهام انكاري فيقول:

---

(١) النحل: آية ١٠ – ١٦.

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

ويختم هذا العرض لهذه الآيات ببيان علمه الشامل لما تكنه الصدور أو تظهره إذ لا فرق عنده سبحانه بين ما توسوس به الأنفس، وبين ما تظهره فهو يعلم السر وأخفى ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.

ويعقب ذلك ببيان حال الآلهة المدعوة من دونه، وأنهم عاجزون لا يخلقون شيئاً، وهم يخلقون فكيف يسوغ دعاؤهم، ومنهم أموات لا يشعرون بالوقت الذي فيه يبعثون.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾[2].

أما الإله الحق فهو واحد، لا تعدد فيه لأن تعدد الآلهة يحصل به الفساد في الكون ولا ينكر الوحدانية إلا المتكبرون الكافرون باليوم الآخر.

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ

---

(١) النحل: آية ١٧ ـ ١٨.

(٢) النحل: آية ٢٠ ـ ٢١.

وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ [1].

فمن أسباب الاعراض عن الحق الكبر، والكبر غمط الحق، وقد بين تعالى في آيات كثيرة أن جزاء المتكبرين النار.

وبعد هذا العرض الموجز لهذه النماذج التي سلكها القرآن الكريم لاثبات الوحدانية في الالوهية، تبين أن المشركين لم يدعوا لمعبوداتهم أنها تخلق أو ترزق أو تحي أو تميت، وإنما ذلك كله لله.

وكل الذي يطلبونه منها هو التوسط لهم عند الله، فهم يدعونها ويتقربون إليها بالنذور والقرابين لتقربهم إلى الله زلفى. ﴿ ... مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [2].

فما عبادتهم تلك؟ أوضحت الآيات السابقة أن من عبادتهم لها:

١ ـ دعاؤها.

٢ ـ حبها والخوف منها ـ الاستفشاع بها.

والعبادة في الإسلام ليست محصورة في الصلاة والصوم وأركان الإسلام مثلاً؟ لأن الله يقول: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [3].

---

(١) النحل: آية ٢٢.

(٢) الزمر: آية ٣.

(٣) الذاريات: آية ٥٦.

فهل يستطيع البشر أن يصلوا فلا يفتروا ، وان يصوموا الدهر فلا يفطروا ، ليس ذلك في استطاعتهم ولم يهيئوا لذلك. فالإنسان مركب من روح وبدن ولكل مطالبه.

وإنما معنى العبادة أوسع من ذلك وقد بينت الآية التالية شمولها وهي قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١).

ومن هنا يتضح شمول العبادة لأنواع كثيرة من أفعال العباد يصرفها كثير من الناس لغير الله ظناً منهم أن ذلك من الأمور الجائزة وهي من صميم العبادة التي لا يجوز صرفها لغير الله ومن ذلك:

١ ـ الدعاء:

وقد نص الله تبارك وتعالى في كتابه أن الدعاء عبادة. قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (٢).

وقال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا

---

(١) الانعام: آية ١٦٢ ـ ١٦٣.

(٢) غافر: آية ٦٠.

تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ (1).

فقد بين الله في الآيتين أن الدعاء عبادة، ففي الآية الأولى، قال: ادعوني... إن الذين يستكبرون عن عبادتي، فالعبادة هي الدعاء.

وقول إبراهيم: وأعتزلكم وما تدعون من دون الله... فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله. فدعاء غير الله عبادة والعبادة لا يجوز صرفها لغير الله.

وفي الحديث «الدعاء مخ العبادة».

ولذلك فإن المشركين كانوا يخلصون الدعاء لله في وقت الشدة، كما في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (2).

---

(1) مريم: آية ٤٨ - ٤٩.

(2) يونس: آية ٢٢.

يقول الشيخ محمد الغزالي في كتابه عقيدة المسلم ص ٦٤ تحت عنوان: توحيد العامة وما يعلوه من غبار. (ينبغي لهذه الأمة أن تكون مثلاً عالياً في إسلام الوجه لله وافراده بالنية والعمل. بيد أننا نلحظ ـ آسفين ـ أن هناك مسالك شائعة بين الجماهير الغفيرة من المسلمين، لها دلالتها الخطرة على فساد التفكير، وضلال الاتجاه واضطراب المقصد. ولا نحب أن نوارب في الكشف عن هذه العلة، فإن أي خلل في دعائم التوحيد معناه الخبل الذي يدرك موطن القيادة الفكرية في هذا الدين الحنيف.

إن التوحيد في الإسلام حقيقة وعنوان، وساحة وأركان، وباعث وهدف، ومبدأ ونهاية.

قال: ولسنا ـ كذلك ـ ممن يحب تصيد التهم للناس، ورميهم بالشرك جزافاً، واستباحة حقوقهم ظلماً وعدواناً.

ولكننا أمام تصرفات توجب علينا النظر الطويل، والنصح الخالص والمصارحة بتعاليم الكتاب والسنة كلما وجد عنها أدنى انحراف.

ثم يضرب الأمثلة على هذا الانحراف من واقع الأمة المسلمة في هذا العصر فيقول:

لقد اهتمت حكومة انجلترا ـ في سبيل مكافحة الشيوعية ـ

بالحالة الدينية في مصر! فكان مما طمأنها على إيمان المصريين (!): أن ثلاثة ملايين مسلم زاروا ضريح أحمد البدوي بطنطا هذا العام.

قال: والذين زاروا الضريح ليسوا مجهولين لدي، فطالما أوفدت رسمياً لوعظهم، فكنت أشهد من أعمالهم ما يستدعي الجلد بالسياط لا ما يستدعي الزجر بالكلام. ثم يبين حالهم ولماذا جاءوا إلى صاحب الضريح، فيقول: جاءوا للوفاء بالنذور والابتهال بالدعاء.

ولمن النذور؟ ولمن الدعاء؟ إنه أول الأمر للسيد.

فإذا جادلت القوم قالوا: إنه لله عن طريق السيد البدوي.

وأوضح بعد ذلك: أن من بدهيات الإسلام الأولى، أن الطلب ووسيلته جميعاً يجب أن يكونا من الله.

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[1].

أقول: إن ما ذكره الشيخ محمد الغزالي عن حال أولئك الملايين عند ضريح السيد البدوي، هو حال أكثر العالم الإسلامي في شرق الأرض وغربها، وقد شاهدت بعيني وسمعت بأذني من يطلب من السيد الإدريسي ـ وهو متمسك بالحلة الخضراء المكسي بها الضريح داخل المسجد ـ الولد والشفاء من المرض، ورد الغائب، وكل ما لا يطلب إلا من الله الواحد الأحد.

---

(١) الفاتحة: آية ٥.

إن هؤلاء إذا قلت لهم: قولوا: لا إله إلا الله. امتدت بها حناجرهم وارتفعت بها أصواتهم وقالوها أكثر من سبعين مرة. وهم مع ذلك سادرون في هذا العمل لأنهم لا يعرفون معناها، وماذا تريد منهم أن يلتزموا به أمام خالقهم عبادة وحكماً وسلوكاً.

أما الذين قال لهم رسول الله الهدى ﷺ: قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا. فمن وفقه الله، قالها وعمل بمقتضاها فلم يدع غير الله ولم يتحاكم إلى سواه.

ومن لم يوفق قال: أجعل الألهة إلهاً واحداً. وسلّ سيفه فكان الأب يقتل ابنه والابن يقتل أباه. فهل إن ذلك لمجرد النطق بلفظ: لا إله إلا الله..! لا..

لأن من كان في آخر لحظة من حياته كأبي طالب حين طلب منه رسول الله ﷺ أن يقول: لا إله إلا الله ليحاج له بها عند الله، لم يقلها، فأبو جهل كان عنده يقول له: أترغب عن ملة عبدالمطلب فكان آخر كلامه أن قال: هو على ملة عبدالمطلب وأَبى أن يقول لا إله إلا الله فكان من أهل النار، وأنزل الله فيه قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾(١).

---

(١) القصص: آية ٥٦.

ومن هنا نوجه نداءنا إلى الأساتذة الفضلاء، وهم من قادة الفكر الإسلامي المهتمين بتوجيه شباب الأمة الإسلامية إلى الخير، الشباب الذي تعلق عليه آمال الأمة في قيادتها إلى ما فيه عزها وفلاحها في الدنيا والآخرة، أن يرجعوا أولاً لدراسة دعوة المصطفى ﷺ في مكة وهي ثلاثة عشر عاماً قضاها رسول الله من عمر الدعوة، إلى أي شيء كان يدعو الناس، وما طريقته وأسلوبه في مخاطبة الأمة التي بعث فيها.

الواقع أنه مكث تلك الفترة لاصلاح قلوب الناس وتخليصها من الشركاء المتشاكسين، دعاهم إلى كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» ووعدهم بأنهم إن قالوها دانت لهم العرب والعجم، وكان المخاطبون يفهمون معناها، وما تضمنته من نفي واثبات.

وقد تحقق ذلك الوعد لمن قال تلك الكلمة ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾(١).

أولئك الذين رباهم رسول الهدى ﷺ تلك التربية الفريدة في

(١) النور: آية ٥٥.

نوعها حتى عمرت قلوبهم بالإيمان، تلقوا الأحكام عند نزولها بصدور رحبة وإيمان راسخ، فلبوا داعي الله قدموا نفوسهم رخيصة في سبيله، يرجون إحدى الحسنيين وإلا فما الذي حمل الصحابي الجليل أن يرمي التمرات من يده ويتقدم للقتال حين علم أن ليس بينه وبين الجنة إلا الشهادة في سبيل الله. وما الذي حمل الغامدية أن تقدم نفسها للعقوبة حين ارتكبت معصية الزنا.

أولئك طبقوا قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾[1].

وقد استمر التمكين للمؤمنين حين بقوا على الشرط - يعبدونني لا يشركون بي شيئاً - إن تنصروا الله ينصركم.

أقول هذا لأعود إلى كلمة قالها الشيخ الغزالي، عن حال هؤلاء الملايين من المسلمين الذين يتهافتون على زيارة الأضرحة مقدمين لها النذور والقرابين، يقول عن هؤلاء: «ولو دعوا لواجب ديني لفروا نافرين، وإن كانوا أسرع إلى الخرافة من الفراش إلى النار».

لماذا كانوا كذلك ونحن نرى أن الذين رباهم رسول الله ﷺ

(١) الأحزاب: آية ٣٦.

حينما دعوا للواجبات الدينية استجابوا لله ولرسوله، والناس هم الناس.

والجواب: إن قلوب أولئك نقيت من شوائب الشرك بالله فأصبحت خالصة له، لا يوجد بها شركاء متشاكسون.

وفي الحديث: إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب.

فبصلاح القلوب تنقاد الجوارح، فالقلب ملكها، وفي المثل الشائع: الناس على دين ملوكهم.

وقد بين الشيخ الغزالي في كتابه عقيدة المسلم ص ٦٦ - ٦٧ بأن القول بأن هؤلاء الذين يهرعون إلى هذه الأضرحة يعرفون الله، ويعرفون أنه وحده مجيب كل سؤال، وباعث كل فضل، ومن دونه لا يملكون من ذلك شيئاً، إن هذا الدفاع لا يغنى شيئاً، لأن هذه المعرفة لا تصلح ولا تقبل إلا إذا صحبها إفراد الله بالدعاء والتوجه والاخلاص، فإن المشركين القدماء كانوا يعرفون الله كذلك.

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن

يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾(١).

ومع أنهم يقولون « الله » بصراحة وجلاء فلم يحسبوا بهذا القول مؤمنين، لأن الإيمان - إذا عرفت الله حقاً - ألا تعرف غيره فيما هو من شئونه. ولذلك يستطرد القرآن في مخاطبة هؤلاء:

﴿ .... فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾(٢).

إن العامة عندما يشدون الرحال إلى قبور تضم رفات بعض الناس. وعندما يهرعون بالنذور والحاجات والأدعية إلى من يظنون أنهم أبواباً لله. إنما يرتكبون في حق الإسلام مآثم شنيعة. ومهما قلبنا عملهم هذا من جميع وجوهه فلن نجد فيه ما يطمئن إليه ضمير المؤمن أبداً. ومحبة الصالحين وبغض الفاسدين من شعائر الإسلام حقاً.

ثم قال: ومظاهر الحب والبغض معروفة... وهي مصادقة للأحياء أو منافرة، واستغفار للموتى أو لعنة. وأين من عواطف الحب والبغض هذا الذي يصطنعه المسلمون اليوم؟؟ إن الواحد

(١) يونس: آية ٣١.
(٢) يونس: آية ٣١ - ٣٢.

منهم قد يصادق أفسق الناس، وقد يقطع والديه ـ وهما أحياء ـ ثم تراه مشمراً مجداً في الذهاب إلى قبر من قبور الصالحين، لا ليدعوا له ويطلب من الله أن يرحم ساكن هذا القبر، بل ليسأل صاحب القبر من حاجات الدنيا والآخرة ما هو مضطر إليه وذلك ضلال مبين. اهـ.

والإسلام بصفائه ونقائه، ومنهجه الذي سلكه في المحافظة على سلامة فكر وسلوك اتباعه قطع دابر كل وسيلة تصل الإنسان بالشرك، فالبناء على قبور الصالحين قباباً واتخاذ المساجد عليها الذي كان تقليداً قديماً قضى عليه الإسلام، إذ أن ذلك من مظاهر الوثنية، فقد أرسل النبي ﷺ علي بن أبي طالب وأمره أن يسوي بالأرض كل قبر مشرف، وأن يهدم كل صنم، فجعل الأضرحة العالية والأصنام المنصوبة سواء في إضلال الناس.

وكان النبي ﷺ يحذر أمته عند وفاته مما صنعته الأمم السابقة: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، ألا لا تتخذوا القبور مساجد إني أنهاكم عن ذلك».

وكان يرفع الخمرة عن وجهه في مرض الموت ويكرر هذا الدعاء: «اللهم لا تجعل قبري من بعدي وثناً يعبد».

يقول الشيخ الغزالي بعد ذكر هذه الأحاديث التي حذر فيها رسول الله ﷺ من اتباع اليهود والنصارى: «ومع هذا التحذير

كله ومع كثرة الدلائل التي انتصبت في الإسلام دون الوقوع في هذا المحظور فقد أقبل المسلمون على بناء المساجد فوق قبور الصالحين، وتنافسوا في تشييد الأضرحة حتى أصبحت تبن على أسماء لا مسميات لها بل قد بنيت على ألواح الخشب وجثث الحيوانات. ومع ذلك فهي مزارات مشهورة ومعمورة تقصد لتفريج الكرب وشفاء المرضى وتهوين الصعاب»[1]. ا هـ.

٢) أ ـ الحب القلبي:

حين نزل القرآن الكريم كان المخاطبون يتخذون انداداً من دون الله، حسية مثل الأصنام المتخذة من الأحجار والأخشاب وغيرها، إذ كان على الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً. ومعنوية كالقبيلة وغيرها من أوثان الجاهلية التي لا يستطيع المرء الخروج عليها وان تأكد له خطأ سلوكها، فقد قال قائلهم في التمسك بما عليه قبيلته ولو كان ظلماً وعدواناً:

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

هذه الأنداد يحبها المشركون حباً يجعلهم يقدمون محبتها على محبة الله. ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ

(١) عقيدة المسلم ص ٦٨.

﴿ كَحُبِّ ٱللَّهِ.... ﴾[1]. فتسويتهم محبتها بمحبة الله شرك أكبر. فكيف إذا قدموا حبها على حبه.

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[2].

وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك.

وقد أخبر الله عن حال كثير من الناس الذين يتخذون مع الله الأنداد، كيف تشمئز قلوبهم وتنقبض نفوسهم كلما دعوا إلى الله وحده إلهاً في العبادة، وإلى شريعته وحدها قانوناً في الحكم، وإلى منهج الله وحده نظاماً للحياة، أما إذا ذكرت المناهج الأرضية نظاماً للحياة وشريعة في الحكم فرحوا واستبشروا يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾[3].

أما المؤمنون بالله فقد وصفهم الله بأنهم اشد حباً لله ﴿ والذين

---

(١) البقرة: آية ١٦٥.
(٢) الأنعام: آية ١٣٦.
(٣) الزمر: آية ٤٥.

آمنوا أشد حباً لله﴾ أي المؤمنون بالله أشد حباً له من حب المشركين لآلهتهم[١]. لذلك فهم يقدمون أنفسهم رخيصة في سبيله فقد باعوها له ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ...﴾[٢].

ب - محبة رسول الله ﷺ:

إن محبة رسول الله ﷺ من صميم الدين، ولا يؤمن أحد حتى يكون الرسول أحب إليه من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين.

ومن علامات حب المؤمن للرسول ﷺ نصر دينه بالقول والفعل والذب عن سنته، والتخلق بأخلاقه، وتقديم ما شرعه وأمر به على هوى النفس وشهواتها، وكذلك كثرة ذكره بالصلاة عليه فمن صلى عليه مرة واحدة صلى عليه بها عشراً.

ثم إن محبة الرسول ﷺ تستلزم طاعته واتباعه وبذلك يستحق العبد حب الله له.

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[٣].

---

(١) ابن جرير ٢ / ٦٦، طبعة ثانية ١٣٧٣ هـ.

(٢) التوبة: آية ١١١.

(٣) آل عمران: آية ٣١.

فمن ادعى محبة الله وخالف سنة رسوله ﷺ فكتاب الله يكذبه.

والمطلوب من العبد ديناً أن يحب الله، وأن يحبه الله، ولا يحب الله عبده إلا إذا اتبع نبيه ظاهراً وباطناً، وصدقه خبراً وأطاعه أمراً، وآثره طوعاً واختياراً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ....﴾[1].

﴿....وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ...﴾[2].

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده.

وفي رواية أنس رضي الله عنه: لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين[3].

وفي البخاري في كتاب الأيمان والنذور... من حديث عبدالله ابن هشام أن عمر بن الخطاب قال للنبي ﷺ: لأنت يا رسول الله

---

(١) النساء: آية ٥٩.

(٢) الحشر: آية ٥٩.

(٣) خ / الإيمان ـ فتح الباري ١ / ٥٨ ح ١٤، ١٥.

أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي. فقال: لا. والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك. فقال عمر: فإنك الآن أحب إلي من نفسي. فقال: الآن يا عمر(١).

ولا شك أن حظ أصحابه الذين كانوا معه من هذا الحب كان أتم، ذلك أن المحبة ثمرة المعرفة، وهم يقدره ومنزلته أعلم من غيرهم، والناس يتفاوتون في ذلك وقد عبر بعض الصحابة عن هذا الحب المكين بأقوالهم وأفعالهم.

يقول عمرو بن العاص رضي الله عنه: وما كان أحد أحب إلي من رسول الله ﷺ ولا أجل في عيني منه. وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه اجلالاً له. ولو سئلت أن أصفه ما أطقت. لأني لم أكن أملأ عيني منه(٢).

هكذا كانت محبة الصحابة لرسول الله ﷺ يحبونه أكثر من أنفسهم، يقتدون به يطيعون أوامره يجتنبون ما نهى عنه.

وما نشأت البدع إلا من تقديم هوى النفس على متابعة الرسول ﷺ والاقتداء بسنته ولذلك سُميّ منتحلوها بأهل الأهواء.

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ

---

(١) خ / الأيمان والنذور ـ فتح الباري ج / ١١ / ٥٢٣ ح ٦٣٢.
(٢) مسلم: كتاب الإيمان ١ / ١١٢ ح ١٩٢.

﴿مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(١).

ولا يعصم من الهوى إلا طاعة الله والاقتداء بسنة رسول الله ﷺ. ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ﴾.

يقول ابن القيم في النونية ص ٥٧٩:

فهو المطاع وأمـرهِ العـالى على ... أمر الورى وأوامـر السلطـان
وهو المقدم في محبتنـا على الـ ... أهلين والأزواج والولـــدان
وعلى العباد جميعهـم حتى على ... النفس التي قد ضمها الجنبـان

فهل ما يعمله كثير من الناس بدعوى المحبة للرسول من أمور لم يعملها الصحابة الذين عرفنا اجلالهم وتقديرهم لرسول الله ﷺ من مديح واطراء يكون محبة.

ففي حديث عمر: أن رسول الله ﷺ قال: لا تطروني كما اطرت النصارى ابـن مـريم، إنما أنـا عبـد، فقـولـوا: عبـدالله ورسوله(٢).

ولكن ما نهى عنه ﷺ وخشيه على أمته وقع الناس فيه.

ففي نظم البوصيري قوله:

---

(١) القصص: آية ٥٠.
(٢) أخرجاه في الصحيحين.

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم
إن لم تكن في معادي آخذاً بيدي فضلاً وإلا فقل يا زلة القـدم

وقوله:

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللـوح والقلم

فاذا كانت الدنيا وضرتها من جود الرسول ﷺ. ومن بعض علومه علم اللوح والقلم لأن «**من**» للتبعيـض، فماذا للخالق جل وعلا، والله يقول لنبيه: ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ... ﴾.. وقـالـت عـائشـة رضي الله عنهـا لمسروق كما في صحيح مسلم ١/١٥٩ ح / ٧٨١ (ومن قال إن محمداً ﷺ يعلم ما في غدٍ فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول: ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾[1].

فهذا الغلو والاطراء هو الذي حذر الرسول أمته ﷺ منه. حيث قال: لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم. وقد صار حظ أكثر هؤلاء منه ﷺ مدحه بالاشعار والقصائد والغلو الزائد، مع عصيانهم له في كثير من أمره ونهيه[2].

---

(١) النمل: آية ٦٥.
(٢) تيسير العزيز الحميد ص ١٨٦ - ١٨٧.

٣) الشفعاء :

لقد سلك المشركون في اتصالهم بالله مسلك اتخاذ الوسطاء ليتشفعوا لهم عند الله.

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (١).

تبين الآية الكريمة أن هؤلاء يعبدون آلهة لا تنفعهم ولا تضرهم في الدنيا حال عبادتهم إياها. فقولهم عنها إنها تشفع لهم في المآل عند الله جهل شنيع، ولذلك أمر الله رسوله ﷺ أن يخاطبهم خطاب المنكر عليهم.

﴿ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ كما بين لهم أن هذا زعم باطل فالشفاعة لا تكون عند الله إلا باذنه.

﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ (٢).

إن اتخاذ شفعاء يخافون ويرجون ويطلب منهم أن يشفعوا لهم عند الله شرك بالله، لأن الشفاعة لا تكون عند الله إلا بإذنه. والله

---

(١) يونس: آية ١٨.

(٢) البقرة: آية ٢٥٥.

لا يعلم لنفسه شريكاً ولا شفيعاً.

وقد اتخذ كثير من الناس هذا العمل المنافي لتوحيد الله وسيلة إلى الله وأسموه توسلاً بالصالحين وقد لبس إبليس وأعوانه على كثير من الناس في هذا الباب وحرمهم من حق تمتع هو به فقد قال لهم:

أ ـ إنكم عصاة والله إنما يتقبل من المتقين، فلو ذهب الإنسان ليدعو ربه وهو متلبس بالسيئات لم يجب الله سؤاله ـ لذا فلا بد من واسطة مقبولة ولا تكون تلك الواسطة إلا الولي الصالح.

ب ـ إن هذا العمل ليس شركاً لأن النية هي معيار الحكم على الأعمال، وأنتم لم تنووا شركاً.

جـ ـ ثم إن مثل هذا العمل جائز فقد كان العلماء يتوسلون إلى الله بالأنبياء وغيرهم من الصالحين.

هذه بعض الشبه التي تلقى ليتقبل الناس مثل هذه الأعمال.

ونرى أن نبدأ أولاً بذكر التوسل المشروع، ثم نبين بعد ذلك وجهة الرد على الشبه التي سبق ذكرها والتي لبس بها على كثير من الناس فنقول: إن التوسل المشروع هو:

١ ـ التوسل بالإيمان بذات الله ـ ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾. فقد جاء عن رسول الله ﷺ وسلم قوله: (اللهم اني أسألك بأنك أنت الله الذي لا إله إلا هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد)[١].

٢ ـ التوسل بالعمل الصالح ـ كما في قصة الثلاثة الذين آواهم الغار، فانطبقت عليهم صخرة، فكل واحد منهم دعا الله بعمله الخالص الذي قدمه لله تعالى وطلب منه أن يفرج عنهم ما هم فيه وهكذا دعا الثلاثة حتى ازيحت الصخرة عنهم فخرجوا يمشون[٢].

٣ ـ دعاء المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب، ولا فرق في ذلك بين الفاضل والمفضول فقد طلب النبي ﷺ من عمر بن الخطاب أن يدعو له، بل والمسلمون يدعون له ويطلبون له الوسيلة دائماً.

٤ ـ إذا توسمت في شخص ما أنه من أهل الصلاح والتقوى، وأحببت أن يدعو لك جاز لك ذلك فتطلب منه أن يدعو الله وأنت تؤمن على دعائه.

---

(١) حم ٤ / ٣٣٨ من حديث محجن بن الأذرع عن رسول الله ﷺ.
وس. س / الدعاء ٣ / ٤٥ من حديث محجن.

(٢) متفق عليه. خ / م / كتاب الذكر والدعاء / باب قصة أصحاب الغار ٤ / ٩٩، ح ١٠٠.

هذه الأنواع هي الأنواع المعروفة في هذا الباب وعمل بها سلفنا الصالح. أما تلبيس إبليس وأعوانه على الناس بأنهم عصاة والله إنّما يتقبل من المتقين فلا بد من واسطة، وهم يقولون هذا عند التوجه إلى الأضرحة والطلب من أصحابها ما لا يقدر عليه إلا الله فهذه مغالطة:

فالمشركون دعو الله مباشرة بدون واسطة واستجاب الله دعاءهم. ﴿...دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[1].

وإبليس نفسه دعا ربه مباشرة بدون واسطة جبريل أو غيره من الملائكة ممن لم يعص الله وأجيب.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾[2].

فكيف يجوز هذا الحق للمشركين، ولإبليس وهو رئيس العصاة وقائد الكفار إلى النار، ولا يسوغ لجمهور المسلمين العصاة أن يلجؤا إلى الله ويستغفروه مباشرة.

---

(١) يونس: آية ٢٢، ٢٣.

(٢) الحجر: آية ٣٦ ـ ٣٨.

والله يقول: ﴿ ... وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[1].

﴿ ... غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ .... ﴾[2].

وأما كون النية هي معيار الحكم على الأعمال.

فالجواب: إن العمل الصالح المقبول يشترط فيه شرطان:

١ - النية الخالصة ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾[3] (إنما الأعمال بالنيات).

٢ - أن يكون موافقاً لما أمر به الله ورسوله. ودعاء الأموات والتقرب إليهم ممنوع شرعاً بل هو شرك بالله. ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[4].

والقول بأن العلماء كانوا يفعلون ذلك غير صحيح، فالعلماء ما كانوا يتوسلون بالموتى اطلاقاً، فإن الصحابة رضوان الله عليهم في زمن عمر بن الخطاب حين اجدبوا طلبوا منه أن يستسقى لهم فلما

(١) آل عمران: آية ١٣٥.
(٢) غافر: آية ٣.
(٣) الزمر: آية ٣.
(٤) الأحقاف: آية ٥.

فرغ من الصلاة قال: اللهم إنا كنا نستسقي بنبيك فتسقنا والآن نستسقي بعم نبيك[1]. قم يا عباس فادع الله لنا فقام ودعا لهم والمسلمون يؤمنون على دعائه ومن دعائه:

«اللهم لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولا يكشف إلا بتوبة وقد توجه بي القوم إليك لمكاني من نبيك، وهذه أيدينا إليك بالذنوب ونواصينا إليك بالتوبة فاسقنا الغيث».

ولم يثبت عن الصحابة ولا التابعين ومن سلك منهجهم أنهم توسلوا بذوات الأحياء، إنما كان توسلهم بدعائهم، كما في قصة عمر هذه مع العباس.

٤) النية والقصد:

الأعمال الصالحة المقبولة عند الله تعالى: هي ما كانت خالصة لوجهه تعالى، موافقة لشرعه.

قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾. ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[2].

---

(١) خ / الاستسقاء / باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء اذا قحطوا / فتح الباري ٢ / ٤٩٤ ح ١٠١٠.

(٢) البينة: آية ٥.

وفي الحديث: «إنما الأعمال بالنيات».

وقد شاع عند الكثير من الناس القول بأن العمل لا ينظر إليه وإنما تعتبر النية المصاحبة له.

وهذا القول غير صحيح في الشريعة الإسلامية. وإنما العمل المقبول المثاب عليه عند الله يشترط فيه شرطان:

١ - النية الصالحة لقوله ﷺ: إنما الأعمال بالنيات. وهذا معنى قوله: ألا لله الدين الخالص. فإذا خالط هذه النية أمراً آخر بأن يعمل هذا العمل من أجل أن ينال دنيا، أو يثني عليه من يشاهده كان مرائيا وذلك يحبط عمله هذا الذي صار فيه الرياء.

٢ - أن تكون صورته موافقة للشرع، وإلا كان مبتدعاً. وهذا معنى قول العلماء في العمل المقبول عند الله «أن يكون خالصاً صواباً».

يقول الله تعالى في ذلك منبهاً عباده إلى أن تكون أعمالهم التي يتقربون بها إليه تعالى خالصة له.

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[1].

(١) هود: آية ١٥، ١٦.

قال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية إن أهل الرياء يعطون بحسناتهم في الدنيا وذلك أنهم لا يظلمون نَقيراً، فكل من التمس الدنيا بعمل الآخرة أوفى الذي التمس في الدنيا من المثابة، وحبط عمله الذي كان يعمله، وهكذا روى عن مجاهد والضحاك وغير واحد، وقيل إن الآية نزلت في اليهود والنصارى، ولكن حكمها عام لكل من اتصف بهذا الوصف[1].

٥) حق التشريع:

قال الله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[2].

١ ـ الاحبار جمع حبر وهم علماء اليهود.

٢ ـ الرهبان جمع راهب وهم علماء النصارى.

والرب هو الخالق المالك المتصرف في خلقه كيف يشاء. وهو المشرع لهم فهو أعلم بما يصلح حال عباده في حالهم ومآلهم ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[3]. وقد وصف الله من تصدى

---

(١) ابن كثير ٢ / ٤٣٩.

(٢) التوبة: آية ٣١.

(٣) الملك: آية ١٤.

لذلك بأنه مفتر على الله كذاب في تشريعه لأنْ نص التحليل والتحريم لله وحده. ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ (١). فهذا حق له تعالى لا يجوز لمخلوق أن يتقدم بين يدي الله فيشرع لعباده من دونه، ان ذلك مشاركة الله فيما هو من خصائصه والذين يتقبلون هذا التشريع وتطمئن نفوسهم إليه ويعملون به هم مشركون بالله.

فاتخاذ الأحبار والرهبان أرباباً هو في التشريع إذ الأحبار والرهبان مخلوقون لله كغيرهم من البشر، إلا أنهم شاركوا الله في تشريعهم لخلقه بالتحليل والتحريم الذي هو من خصائص الخالق سبحانه وتعالى، يفسر هذا حديث عدى بن حاتم رضي الله عنه الذي رواه الإمام أحمد والترمذي وغيرهما حين جاء والرسول ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله﴾ الآية. قال: قلت إنهم لم يعبدوهم، فقال: «بلى إنهم حرموا عليهم الحلال واحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم».

وهكذا قال حذيفة بن اليمان وعبدالله بن عباس وغيرهما في تفسير «اتخذوا احبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله». إنهم

---

(١) النحل: آية ١١٦.

اتبعوهم فيما حللوا وحرموا، وقال السدي: استنصحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ أي الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام وما حلله فهو الحلال وما شرعه اتبع وما حكم به نفذ ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [1].

يقول سيد قطب في ظلال القرآن ج ٤ / ٢٠٣ بعد أن نقل كلام ابن كثير وغيره في تفسير الآية: (ومن النص القرآني الواضح الدلالة، ومن تفسير رسول الله ﷺ - وهو فصل الخطاب، ثم من مفهومات المفسرين الأوائل والمتأخرين، تخلص لنا حقائق في العقيدة والدين ذات أهمية بالغة نشير إليها هنا بغاية الاختصار).

* إن العبادة هي الاتباع في الشرائع بنص القرآن وتفسير رسول الله ﷺ.... فاليهود والنصارى لم يتخذوا الأحبار والرهبان أرباباً بمعنى الاعتقاد بألوهيتهم أو تقديم الشعائر التعبدية إليهم... ومع هذا فقد حكم الله - سبحانه عليهم بالشرك في هذه الآية - وبالكفر في آية تالية السياق - لمجرد أنهم تلقوا منهم الشرائع فأطاعوها واتبعوها.. فهذا وحده - دون الاعتقاد

(١) ابن كثير ح ٢ / ٣٤٨ - ٣٤٩.

والشعائر يكفي لاعتبار من يفعله مشركاً بالله الشرك الذي يخرجه من عداد المؤمنين ويدخله في عداد الكافرين.

* إن النص القرآني يسوي في الوصف بالشرك واتخاذ الأرباب من دون الله بين اليهود الذين قبلوا التشريع من أحبارهم وأطاعوهم واتبعوهم، وبين النصارى الذين قالوا بألوهية المسيح اعتقاداً وقدموا إليه الشعائر في العبادة. فهذه كتلك سواء في اعتبار فاعلها مشركاً بالله، الشرك الذي يخرجه من عداد المؤمنين ويدخله في عداد الكافرين.

* إن الشرك بالله يتحقق بمجرد اعطاء حق التشريع لغير الله من عبادة ولو لم يصحبه شرك في الاعتقاد بألوهية، ولا تقديم الشعائر التعبدية له.

ويخلص بعد ذلك إلى القاعدة المعروفة عند المفسرين والأصوليين أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب لأن القرآن تشريع عام للبشرية كلها في كل زمان ومكان.

فيقول: «إن دين الحق الذي لا يقبل الله من الناس كلهم ديناً غيره هو (الإسلام).. والإسلام لا يقوم إلا باتباع الله وحده في الشريعة ـ بعد الإعتقاد بألوهيته وحده وتقديم الشعائر التعبدية له وحده ـ فاذا اتبع الناس شريعة غير شريعة الله صح فيهم ما صح

في اليهود والنصارى من أنهم مشركون لا يؤمنون بالله ـ مهما كانت دعواهم في الإيمان ـ لأن الوصف يلحقهم بمجرد اتباعهم لتشريع العباد لهم من دون الله بغير انكار منهم يثبت فيه أنهم لا يتبعون الا عن اكراه واقع بهم لا طاقة لهم بدفعه وَأَنَّهم لا يقرون هذا الافتئات على الله ».

الفصل الرابع

مسلك القرآن الكريم في إثبات النبوّة

وفيه تمهيد وخمسة مباحث:

١) التمهيد يشمل:

أ - بيان حاجة البشرية إلى الرسل.

ب - نماذج من دعوة الرسل ومحاجتهم لأممهم.

٢) المباحث:

المبحث الأول: في تعريف النبي والرسول والفرق بينهما.

المبحث الثاني: صفات الأنبياء.

المبحث الثالث: عصمة الأنبياء.

المبحث الرابع: الوحي.

المبحث الخامس: دلائل صدق النبوّة.

تمهيد :

اقتضت حكمة الله تعالى ، ورحمته بعباده ، أن يختار بمحض فضله وكرمه من يصطفيهم من خلقه ، ممن ميزهم بخصائص لا يشركهم فيها غيرهم ، رسلاً في كل أمة ، ليبينوا للناس طرق الخير وسبل السعادة ، في الدارين فيدعونهم الى عبادة الله وحده ، ويحذرونهم من عبادة غيره ، ويأمرونهم بمكارم الأخلاق ، ومحاسن العادات ، وينهونهم عن قبيحها : وقد بين الله ذلك في كتابه العزيز بقوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [1].

وبقوله : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا

(١) سورة النحل آية ٣٦.

خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (١) ولكن القرآن الكريم لم يذكر لنا أسماء جميع الأنبياء والمرسلين، فالأنبياء والرسل الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم، ليسوا كل أنبياء الله ورسله، وانما هم بعض هؤلاء الرسل بدليل قوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ (٢) وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ (٣).

ولقد ذكرنا في الفصل الثاني من هذا البحث أن للعالم خالقاً ومدبراً أوجده من العدم، ثم حفظه ورعاه بعنايته التامة، وأن الانسان نوع من ذلك العالم الذي نال أكمل العناية وأتم الرعاية من خالقه جل شأنه، فقد سخر له ما في السموات وما في الأرض جميعاً، واذا كان للانسان بحسب طبيعته وتركيبه جانبان، جانب الجسم، وجانب الروح، وقد أشارت الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه﴾ الى ما يتناول حفظ الجسم وكيانه أولا، وليس من المعقول أن يترك جانب الجسم ليطغى على جانب الروح، بل لا بد من تعادلهما،

---

(١) سورة فاطر آية ٢٣.

(٢) سورة النساء آية ١٦٤.

(٣) سورة غافر آية ٧٨.

ليستقيم أمر الانسان وتسعد حياته، فلا بد اذاً من ارشاد وتعليم يقيم هذا الجانب، ويوصله الى المقصود منه، وما يجب عليه في هذه الحياة، لا سيما في الأمور التي لا يستطيع الانسان الوصول اليها بنفسه. وكان من نعم الله على هذا الانسان أن منحه العقل وجعله قوة يدرك بها بعض حقائق العالم الحسي، ويميز بها بين الضار والنافع، الا أن الانسان لا يستطيع عن طريقه إدراك حقائق العالم الغيبي، وما وراء هذا العالم المحسوس، لأنه من طبيعة مختلفة عن طبيعة العالم الحسي - ثم هو مع ذلك مسؤول عن أمور يحس بوجودها، ويلزمه اعتقادها والايمان بها، ولكن لا سبيل الى الوصول الى معرفة شيء عنها بنفسه وذلك مثل الايمان بالجنة والنار وما فيهما من ثواب وعذاب، ومن هنا كانت الحاجة الى النبوة والرسالة، كي يبين له الرسول عن طريق الوحي الالهي، ما يحتاج اليه من أمور يجهلها ويجب عليه اعتقادها، ولا يمكن الوصول اليها بعقله، لقصور العقل الانساني عن ادراكها، فكان لا بد له من معلم يعلمه، ومرشد يدله، وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام.

مهمة الرسل:

ان من أهم أهداف الرسل أن يحرروا البشرية من عبادة العباد وتأليه الأحجار، والأشجار، والكواكب، وأن يوصلوها الى عبادة الله وتوحيده، وبيان أسمائه وصفاته.

ثم يبينون لهم الحقائق الأخرى التي لا يمكن للانسان أن يدركها بعقله، كالبعث، والحساب، والجزاء على الأعمال في اليوم الآخر، حتى يؤمنوا ويصدقوا بها.

ثم بيان طرق الخير والشر، ووضع قواعد الحق والعدل ليسود الأمن والاستقرار المجتمع الانساني.

يقول الاستاذ محمد عبده في (رسالة التوحيد - تحت عنوان - حاجة البشرية الى الرسالة).

وللكلام في بيان الحاجة الى الرسل مسلكان:

الأول: يبتدىء من الاعتقاد ببقاء النفس الانسانية بعد الموت وأن لها حياة أخرى بعد الحياة الدنيا تتمتع فيها بنعيم أو تشقى فيها بعذاب أليم، وأن السعادة والشقاء في تلك الحياة الباقية معقودان بأعمال المرء في حياته الفانية، سواء كانت تلك الأعمال، قلبية، كالاعتقادات والمقاصد والارادات، أو بدنية، كأنواع العبادات والمعاملات، ثم بين أنه ليس في مدارك العقول، ولا طرق التفكير، وأساليب النظر، ما يمكن الانسان من الاهتداء الى معرفة ما قدر له في تلك الحياة، التي يشعر بها، وبأن لا مندوحة عن القدوم عليها، لأنه لم يوهب من القوة ما ينفذ الى تفصيل ما أعد له فيها.

فكان من حكمة الصانع الحكيم، الذي أقام أمر الانسان على

قاعدة الارشاد والتعليم... ارسال الرسل لبيان ذلك.

الثاني: يؤخذ من طبيعة الانسان نفسه، ويعني به احتياج بعض الناس الى البعض الآخر، وما ينتج عن ذلك التعامل من خلاف ومنازعات، والعقول لا تقف عند حد، لذا كان لا بد من اختيار أفراد من البشر يضعون للناس حدوداً يقفون عندها ويشعرونهم بأن ذلك من أمر الله[1].

ثم فصل ذلك تحت عنوان وظيفة الرسل، ونحن نذكر ذلك باختصار. قال: إنهم «**يرشدون العقل** الى معرفة الله، وما يجب أن يعرف من صفاته، ويبينون الحد الذي يجب أن يقف عنده في طلب ذلك العرفان.

كما يبينون للناس ما اختلفت عليه عقولهم وشهواتهم، وتنازعته مصالحهم ولذاتهم، فيفصلون في تلك المخاصات بأمر الله الصادع.

ثم يضعون لهم بأمر الله حدوداً عامة يسهل عليهم أن يردوا اليها أعمالهم كاحترام الدماء الا بحق مع بيان الحق الذي تهدر له، وحظر تناول شيء مما كسبه الغير الا بحق مع بيان الحق الذي يبيح تناوله، واحترام الأعراض... الخ.

---

(١) الشيخ محمد عبده ـ رسالة التوحيد ص ٨٩ ـ ١٠٧ بتصرف، الطبعة الحادية عشرة، سنة ١٣٦٥ هـ.

ثم يعلمونهم من أنباء الغيب، ما أذن الله لعباده في العلم به، مما لو صعب على العقل اكتناهه، لم يشق عليه الاعتراف بوجوده[1] كالملائكة والجن وأحوال الآخرة[2].

ب - نماذج من دعوة الرسل:

سبق أن ذكرنا حاجة البشرية الى الرسل، اذ أن العقول لا تهتدي الى ما ينفعها في دينها ودنياها، ولذا اقتضت حكمة الله عز وجل بعث الرسل ليكون بواسطتهم انزال الوحي الالهي الذي باتباعه تهتدي البشرية لما يسعدها في الدنيا والآخرة.

كما أشرنا في فصل - مسلك القرآن في اثبات الوحدانية - الى ان الناس كانوا على الفطرة التي فطر الله الناس عليها. وهي توحيده والاتجاه اليه وحده، لأن الله خلق عباده حنفاء - أي مائلين اليه دون سواه، فاجتالتهم الشياطين عن دينهم وأضلتهم. فكانت مهمة الرسل اعادة الناس الى ما كانوا عليه من عبادة الله وحده.

وما سبق ذكره في الفصل المشار اليه هو نماذج عن دعوة محمد

---

(١) الشيخ محمد عبده، رسالة التوحيد، من ص ١١٨ - ١٢٣ بتصرف، الطبعة الحادية عشرة سنة ١٣٦٥ هـ.

(٢) من الحاشية لرسالة التوحيد، للمعلق رشيد رضا ص ١٢١.

ﷺ لأمته، فقد أمره الله أن ينذر قومه بالوحي، وأن يتلو عليهم القرآن الذي تضمن كل أساليب الهداية الى الخير، فان اعرضوا فينذرهم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود.

يقول تعالى:

﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ (١).

ويقول تعالى:

﴿ حمٓ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾ الى قوله: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ (٢).

---

(١) سورة النمل، الآية ٩١، ٩٢.

(٢) سورة فصلت، الآية ١ - ١٣.

ولذا فسنذكر هنا نماذج من القرآن الكريم عن دعوة بعض الرسل لنعرف كيف كانوا يدعون أممهم الى الايمان بالله وحده، ثم ما كان يتحلى به أولئك الصفوة المختارة من رفق ولين وعطف وشفقة على أممهم، من ان يسلكوا سبل الغواية التي تؤدي بهم الى الهلاك في الدنيا والعذاب المقيم في الآخرة.

وما تضمنته تلك القصص، من بيان لسبب إهلاك تلك الأمم التي كذبت رسلها هو تحذير لأمة محمد ﷺ من أن يصيبهم ما أصاب تلك الأمم الكافرة التي كذبت رسلها، اذ ليس كفار أمته خير من كفار تلك الأمم ولذا يقص الله تبارك وتعالى على نبيه ما حل بأولئك من العذاب بعد ان يخاطب المكذبين من أمة محمد فيقول:

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾.

وبعد أن ذكر ما حل بقوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وآل فرعون. قال:

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ

﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾[1].

ونبدأ بدعوة نوح عليه السلام اذ هو أول الرسل بعد آدم عليه السلام.

١) نوح عليه السلام:

في النموذج التالي بيان لما كان يدعو قومه اليه، وبيان موقف رؤساء الضلال منه، والتهم التي وجهوها اليه، ثم تلطفه معهم، وبيان أنه مرسل اليهم من الله تبارك وتعالى، وانه الناصح الأمين لهم، ثم بيان ما حل بهم من الهلاك حين كذبوه واصروا على كفرهم وعنادهم، يقول تعالى:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾[2].

---

(١) سورة القمر، الآية ١ - ٤٦.
(٢) سورة الاعراف، الآية ٥٩ - ٦٤.

وقد ذكرت دعوة نوح لقومه في عدد من سور القرآن الكريم بأساليب مختلفة في الدعوة محاولة لاصلاحهم ورجوعهم الى الله تبارك وتعالى، ونزلت سورة كاملة باسمه بين الله فيها دعوته لقومه وصبره عليهم، واستمراره في تلك الدعوة ليلا ونهاراً سراً وجهاراً، اذا مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فلم تزدهم تلك الدعوة إلا اصراراً واستكباراً.

يقول الله تعالى في ذلك:

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾ (١).

ومع هذا الاستمرار في الدعوة المقرونة بالترغيب والترهيب،

---

(١) سورة نوح، الآية ١ ـ ١٠.

وذكر النعم التي أنعم الله بها عليهم، وبيان أنها آيات يستدل بها العقلاء على وحدانية الخالق عز وجل إلا أنهم عصوا نوحاً وضاق بهم ذرعاً بعد طول مدة قضاها في دعوتهم، فقد اخبر تعالى عنه أنه مكث فيهم الف سنة الا خمسين عاماً ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [1].

ولذا قال:

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [2].

ففي صبر نوح وطول مكثه مع قومه توجيه لمن يتصدون الى

(١) سورة العنكبوت، الآية ١٤، ١٥.

(٢) سورة نوح الآية ٢١ - ٢٧.

الدعوة الى الله بأن لا يستعجلوا النتائج، وانما عليهم البلاغ وعلى الله الحساب.

وفي اهلاك الظلمة وتدميرهم بسبب كفرهم ومعاصيهم، واضطهادهم لأهل الحق الذين لا ذنب لهم إلا ان يقولوا لهم اتقوا الله وراقبوه وحكموا شرعه، انذار بأن بطش الله بالظالمين ليس ببعيد.

٢) هود عليه السلام:

وهود عليه السلام دعا قومه الى عبادة الله وحده، فرماه قومه بالكذب والسفه، وادعوا ان ما هم عليه هو الحق، لأنهم على خلق الأولين، الذين مضوا قبلهم، فهم على آثارهم مقتدون، فلن يتركوا ما وجدوا عليه آباءهم، ولو كان آباءهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون، وقد بين لهم هو بأنه ليست به سفاهة، وانما هو رسول رب العالمين، ارسله الله اليهم ليبين لهم الحق من الباطل، وأنه لا يسألهم على ما يبلغهم من الخير أجرا، وانما هو ناصح لهم، أمين فيما يبلغه اليهم من ربه، كما بين لهم ان تماديهم في الباطل، واتخاذهم القصور التي يتصورون انها لا تكون الا للخالدين، وبطشهم بالضعفاء والمساكين بطش الجبارين المتكبرين، ان هذا الكفر والطغيان سيحل بهم نقمة الله وعقابه للظالمين، وان عليهم ان يرجعوا الى الله ويتقوه، فهو الذي أمدهم بهذه النعم، من الأنعام

والبنين والجنات والعيون، وان تمادوا في كفرهم وطغيانهم فسينالهم عذاب يوم عظيم.

ولكنهم قالوا له في عناد وغطرسة (سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين) في عدم استجابتنا لدعوتك. فوقع عليهم رجس وغضب من ربهم، فنزل عليهم الهلاك المحتم لكل مكذب لله ورسله.

يقول الله تعالى في ذلك مبينا وموضحاً ما حل بهم حين أصروا على تكذيب رسوله وطلبوا منه أن يأتيهم بالعذاب الذي يعدهم به.

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى

فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١).

وقد ورد ذكر قوم عاد مع نبيهم هود في عدد من سور القرآن

فذكرت القصة في السورة التي سميت باسمه « هود » مفصلة، إذ قالوا له بعد جدل وعناد: ﴿ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ (٢).

وقد أوضحت الآيات بعد ذلك ان الله أنجا هودا والذين آمنوا معه برحمة منه، وحل العذاب بالجاحدين لآيات ربهم العاصين لرسله المتبعين لكل جبار عنيد، أهلكوا ثم أتبعوا اللعنة في الدنيا والآخرة. ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٦٤ - ٧٢.

(٢) سورة هود، الآية ٥٣ - ٥٥.

ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [1].

كما فصلت الآيات ١٢٣ ـ ١٣٩ من سورة الشعراء بعضاً مما جرى بين هود وقومه من جدل وحوار حتى صرحوا بأنهم لا يسمعون لدعوته ولا يصغون لموعظته إذ لا فرق بين استماعهم وعدمه في قبول دعوته ﴿قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين. ان هذا إلا خلق الأولين. وما نحن بمعذبين، فكذبوه فأهلكناهم انَّ في ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين﴾.

أما كيفية هلاكهم فقد جاءت مفصلة في سورة الحاقة قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [2].

وهكذا عاقبة كل طاغية معاند مكابر للحق في كل زمان ومكان.

٣) صالح عليه السلام:

دعوة الأنبياء في الأصول واحدة، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ

---

(١) سورة هود، الآية ٥٨ ـ ٦٠.

(٢) سورة الحاقة، الآية ٦ ـ ٨.

﴿ رَسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ﴾ [1]. وإنما الاختلاف في الشرائع حسب الزمان والمكان. ﴿ .. لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا .. ﴾ [2].

ولذلك فقد دعا صالح قومه إلى عبادة الله وحده، وطلب منهم ان يتقوا الله ويطيعوه، وبين لهم أنه لا يريد منهم على دعوته لهم إلى عمل الخير والصلاح أجراً، وإنما كلفه ربه وربهم جميعاً أن يبلغهم رسالته، لأنه أمين على حمل تلك الرسالة وابلاغها، وناصح لهم في دعوته اياهم، كما بين لهم ان هذه النعم المتوالية والتي لا يحصونها عدا، ومنها الجنات ذات النخيل، والزروع وما اجراه الله من العيون، وما أمدهم به من قوة حتى استطاعوا على نحت الجبال بيوتاً، كل تلك النعم الظاهرة والباطنة تحتاج لشكر المنعم بها عليهم، ومن شكره الإيمان به وعبادته وحده، وتصديق رسوله، ليزيدهم الله من فضله، ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾، وكما قال نوح لقومه: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴾ [3].

(١) سورة النحل، الآية ٣٦.

(٢) سورة المائدة، الآية ٤٨.

(٣) سورة نوح، الآية ١٠ ـ ١٢.

كما حذرهم من أنهم ان لم يتركوا ما هم عليه من كفر وضلال، واتباع لأمر المسرفين المفسدين في الأرض، فلن يتركهم الله آمنين مطمئنين، بل سيحل بهم العقاب وينزل عليهم العذاب الأليم، فلم يسمعوا لنصح نبيهم بل تمادوا في غيّهم، واتهموه بالسحر، وقالوا له ﴿ما انت إلا بشر مثلنا فأت بآية ان كنت من الصادقين﴾.

فأمده الله بآيةٍ تبين صدقه، وهي الناقة، واوضح لهم ان لها شرب يوم، ولهم شرب اليوم الآخر، وتوعدهم بأنهم ان مسوها بسوء فسوف يأخذهم العذاب الأليم.

فتمادوا في غيهم وعتوا عن امر ربهم، فعقروا الناقة فحل بهم العذاب وهكذا مصير كل أمة كذبت نبيها.

يقول الله تعالى في ذلك:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ

ٱلْمُسَحَّرِينَ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ
قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ
فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ مِنَ النَّادِمِينَ
فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (١).

وقد جاء ذكر قوم صالح في عدد من سور القرآن، بأساليب في دعوتهم إلى الله مختلفة فيها الترهيب والترغيب، فقد ذكرهم في سورة الأعراف من الآية ٧٣ ـ ٧٩. دعاهم فيها إلى عبادة الله وحده لأنه لا إله لهم غيره، وقد جاءتهم الآية البينة التي طلبوها منه وهي الناقة. وحذرهم من ان يمسوها بسوء. كما ذكرهم بنعم الله عليهم إذ جعلهم خلفاء من بعد عاد، ومكنهم في الأرض يتخذون من سهولها قصوراً، وينحتون في جبالها بيوتاً. وحذرهم من الفساد في الأرض، ولكن الملأ المستكبرين من قومه انكروا رسالته وهزءوا من المستضعفين المؤمنين به فعقروا الناقة وعتو عن أمر ربهم ﴿وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين﴾ فجاءهم ما وعدهم به من عذاب الله ﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ هامدين موتى لا حراك لهم.

---

(١) سورة الشعراء، الآية ١٤١ ـ ١٥٩.

وقد ذكرت صفة هلاكهم في سورة القمر قال تعالى في معرض ذكر المكذبين لأنبيائهم من الأمم السابقة وما حل بهم من العذاب، تحذيراً لأمة محمد ﷺ من ان يصيبهم ما اصاب أولئك إذ لا فرق بين كفار هذه الأمة والأمم السابقة إذ الكفر ملة واحدة.

قال: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ إِنَّا مُرْسِلُوا ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴾ (١).

٤) شعيب عليه السلام:

ونختم هذه النماذج بقصة شعيب مع قومه الذين أضافوا إلى الشرك بالله، الصد عن سبيله وعمل الفساد في الأرض ببخس الناس أشياءهم، فقد دعاهم أولا إلى عبادة الله وحده لأنه لا إله حق لهم سواه، مقدماً لهم الآيات البينات الواضحات على ذلك.

ثم طلب منهم حسن المعاملة في مجتمعهم، وان لا يظلم بعضهم

(١) سورة القمر، الآية ٢٣ ـ ٣١.

بعضاً، فأمرهم بايفاء الكيل والوزن في معاملاتهم في بيعهم وشرائهم، وأن لا يبخسوا الناس حقوقهم، لأن ذلك فساد في الأرض بعد صلاحها، ورغبهم انهم إن أقاموا العدل بينهم كان خيراً لهم في دنياهم ومعادهم، لأن ذلك هو عمل المؤمنين بالله الذين يستحقون ثوابه، كما نهاهم عن غيهم واعتدائهم على المؤمنين في طرقاتهم مهددين لهم بالوعيد الشديد صادين عن سبيل الله من آمن به. سالكين في ذلك سبيل المفسدين في الأرض الذين لا يصلحون.

وبين لهم ان عاقبة المفسدين الهلاك، فعليهم ان يتعظوا بما حل بالمفسدين قبلهم.

ولكن رؤساء الكفر والضلال ـ وهكذا هم في كل زمان ومكان ـ استكبروا عليه وعلى من آمن بدعوته، فهددوهم بإخراجهم جميعاً من قريتهم ان لم يعودوا معهم في ملة الكفر ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ (١). ولكن شعيباً ومن معه من المؤمنين لم يزعزع ايمانهم بربهم هذا التهديد والوعيد، فاعلنوا لهم أنهم لن يعودوا إلى ملة الكفر ابداً بعد إذ نجاهم الله منها.

ثم لجؤا إلى الله تبارك وتعالى مولاهم فتوكلوا عليه توكل

---

(١) البقرة: آية ١٢٠.

المخلصين، وطلبوا منه ان يحكم بينهم وبين هؤلاء الكفرة الطغاة، بالحق إذ هو خير حاكم في ذلك.

وقد تحول الملأ من الكفار الى تخويف اتباع شعيب لزعزة ايمانهم بالله قائلين لهم بأنهم ان استمروا على ذلك فسيناالهم الخسران المبين، ولكن المؤمنين بالله حقاً لا يلتفتون إلى أكاذيب المرجفين.

وحين تجاوز الكفار حدهم، وهموا بالنيل من المؤمنين، جاءهم نصر الله فحكم على الكافرين المكذبين بالهلاك، فأخذتهم الرجفة ـ وهي الزلزلة الشديدة ـ فأهلكتهم جميعاً فأصبحوا في دارهم جاثمين موتى، كأن لم يغنوا في ديارهم ناعمين مرفهين.

فتبين بذلك أن المكذبين لشعيب هم الخاسرون.

وحين رآهم شعيب على تلك الحال تولى عنهم قائلاً لقد ابلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، ولكن كيف الأسى على قوم كافرين.

وهكذا يكون مصير كل ظالم واقف في طريق الحق صاد عن سبيل الله من آمن بالله ودعا اليه في كل عصر ومصر، فالعاقبة للمتقين. ا هـ.

وحيث قد جرت عادة الكتاب عن الأنبياء والرسل، التعرض

لمباحث في هذا الباب تشمل:

التعريف بهم، وبيان صفاتهم، وعصمتهم، وكيفية الوحي اليهم، ودلائل صدقهم فيما يدعون الناس اليه، فاني سأعرض هذه المباحث بشيء من التفصيل، وذلك بذكر أقوال العلماء في ذلك مختصرة، ثم اتبع ذلك بما جاء في القرآن الكريم.

* * *

المبحث الأول:

تعريف النبي والرسول، والفرق بينهما.

أولاً: التعريف: النبي لغة:

المنبىء، أي المخبر، واشتقاقه إما من النبأ بمعنى الخبر، وإما من النبوة، أو النباوة بمعنى الشيء المرتفع، ومنه قيل: نبا بفلان مكانه، أي أنه ذو شرف على سائر الخلق، والنبي موصوف بذلك لرفعة محله على سائر الناس في عصره.

وفي الاصطلاح:

هو الذي ينبئه الله بأن يعمل بشريعة من قبله، ولم يرسل إلى كفار خالفوا امر الله ليبلغهم رسالة من الله اليهم، وقد يوحى اليه وحي خاص في قصة معينة، فالأنبياء يأتيهم وحي من الله بما يفعلونه ويأمرون به المؤمنين بهم(١).

والرسول لغة:

هو الذي يتابع أخبار من بعثه، أخذاً من قولهم جاءت الابل

---

(١) النبوات لابن القيم ص ١٧٢ - ١٧٣.

رسلا ، أي متتابعة. وسمي الرسول رسولاً لأنه ذو رسالة والرسول اسم من أرسلت وكذلك الرسالة. وأرسلت فلاناً في رسالة، فهو مرسل، ورسول [1].

وفي الاصطلاح:

هو الذي ينبئه الله ثم يأمره بأن يبلغ رسالته من خالف أمره، كنوح، فقد ثبت في الصحيح انه أول رسول بعث إلى أهل الأرض، وقد كان قبله أنبياء كشيت وادريس [2].

ثانياً: الفرق بين النبي والرسول:

هذا الموضوع مما اختلفت فيه وجهات نظر العلماء [3]، وذلك الاختلاف ناتج عن فهم كل منهم للنصوص الواردة في هذا الباب، وقد تمخض عن هذا الخلاف رأيان: -

الأول: رأي القائلين بالفرق بينهما، وأنه ليس كل نبي رسولاً، وقد أيدوا وجهة نظرهم هذه بأدلة من الكتاب والسنة، مع

---

(١) ابن منظور، لسان العرب ج١ ص١١٦٦ طبعة دار لسان العرب بيروت لبنان.

(٢) النبوات لابن القيم ص ١٧٢ - ١٧٣.

(٣) اعتقد انه ليست هناك ثمرة للخلاف في هذا الموضوع من الناحية العملية، وإنما هي مسألة علمية تعرض لها أكثر الباحثين في هذا الباب، وسوف أشير لما أراه الصواب في نظري.

اختلاف بينهم في تحديد معنى كل من النبي والرسول.

الثاني: رأي القائلين بعدم الفرق بينهما، بل يرون أنه لا يصح اثبات نبي ليس بمرسل، ولهم أدلتهم التي يؤيدون بها وجهة نظرهم، من الكتاب العزيز أيضاً. ونحن هنا سنعرض أدلة الفريقين ووجهة كل منهما، ثم نعقب ذلك بمسلك القرآن لنرى موقفه من ذلك.

استدل القائلون بالفرق بين النبي والرسول من الكتاب بقوله تعالى:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ [1].

قالوا: فقد عطف النبي على الرسول، والقاعدة، أن العطف يقتضي المغايرة، فدل على أن النبي غير الرسول، يقول الكلبي في تفسير الآية:

(النبي أعم من الرسول، فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً. فقدم الرسول لمناسبته لقوله أرسلنا، وأخر النبي لتحصيل العموم، لأنه لو اقتصر على رسول لم يدخل في ذلك من كان نبياً غير رسول) [2].

---

(١) سورة الحج، الآية ٥٢.

(٢) الشيخ محمد بن احمد بن جزي الكلبي كتاب التسهيل لعلوم التنزيل ج ٣ ص ٤٤ الطبعة الأولى سنة ١٣٥٥ هـ.

ويقول الألوسي في تفسير الآية أيضاً: (هذا دليل بين على تغاير الرسول والنبي. والرسول انسان أرسله الله إلى الخلق لتبليغ رسالته وتبيين ما قصرت عنه عقولهم من مصالح الدارين، وقد يشترط فيه الكتاب، بخلاف النبي فأنه أعم، ويعضده ما روى أنه عليه السلام سئل عن الأنبياء فقال: (مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً) قيل فكم الرسل منهم؟ قال: (ثلاثمائة وثلاثة عشر جماً غفيراً) [1].

واستدلوا بأنهما جاءا وصفين لشخص واحد، كما في قوله تعالى في وصف موسى عليه السلام:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾[2]. وفي وصف اسماعيل عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾.[3] فذكر الوصفين معاً في مكان واحد يدل على التغاير.

واستدلوا من السنة:

بحديث أبي ذر الغفاري قال: قلت يا رسول الله أي الأنبياء كان أول؟ قال: آدم. قلت يا رسول الله ونبي كان؟ قال: نعم،

---

(١) الأولسي، روح المعاني جـ٦ ص٤٨، ٤٩.

(٢) سورة مريم آية ٥١.

(٣) سورة مريم آية ٥٤.

نبي مكلم. قلت يا رسول الله كم المرسلون؟ قال: ثلاثمائة وبضعة عشر جماً غفيراً؛ وفي رواية أبي أمامة قال أبو ذر قلت يا رسول الله كم وفاء عدة الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً)[1].

فالحديث يدل على أن النبي غير الرسول، إذ لو كان معناها واحداً لتساوى عدد الأنبياء والرسل.

ويقول أبو منصور عبدالقاهر البغدادي في كتابه أصول الدين:

(أجمع أصحاب التواريخ من المسلمين على أن عدد الأنبياء عليهم السلام مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً. كما وردت به الأخبار الصحيحة، أولهم أبونا آدم عليه السلام وآخرهم نبينا محمد ﷺ. وأجمعوا على أن الرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر[2]. هذه أدلة القائلين بالفرق بين النبي والرسول.

---

(١) قال في شرح المسايرة ص ٢٢٦ ومدار الحديث على علي بن يزيد وهو ضعيف، ورواه الطبراني في الأوسط والبزار باسناد فيه المسعودي، وهو ثقة لكنه اختلط. قلت: والحديث في مشكاة المصابيح ج ٣ ص ١١٢ رقم الحديث ٥٧٣٧، رواه أحمد، قال المحقق لأحاديث المشكاة الشيخ محمد ناصر الدين الباني: ان الحديث صحيح.

(٢) عبدالقاهر البغدادي، كتاب أصول الدين ص ١٧٠ الطبعة الأولى سنة ١٣٤٦ هـ ١٩٢٨ م وطبعة الدولة. استانبول.

القول الثاني:

وهو رأي القائلين بعدم الفرق بين النبي والرسول:

وهذا القول يعزى للمعتزلة، فقد أورد الفخر الرازي قولهم وأدلتهم في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾، وذلك بعد ذكره لرأى القائلين بالفرق بينهما، قال: (وقالت المعتزلة، كل رسول نبي، وكل نبي رسول، ولا فرق بينهما، واحتجوا على فساد القول الأول ـ ويعني به قول القائلين بالفرق بينهما ـ بوجوه:

أحدهما: هذه الآية فانها دالة على ان النبي قد يكون مرسلاً، وكذلك قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا في قرية من نبي﴾.

ثانيها: أن الله تعالى خاطب محمداً مرة بالنبي، ومرة بالرسول، فدل على أنه لا منافاة بين الأمرين.

ثالثها: أنه تعالى نص على أنه خاتم النبيين.

رابعها: أن اشتقاق لفظ النبي، اما من النبأ وهو الخبر، أو من قولهم نبا إذا ارتفع، والمعنيان لا يحصلان إلا بقبول الرسالة.

ثم يذهب إلى ترجيح قول القائلين بالفرق بينهما، فيقول:

(أما القول الثاني)[1] فاعلم أن شيئاً من تلك الوجوه لا يبطله، بل هذه الآية دالة عليه، لأنه عطف النبي على الرسول، وذلك يوجب المغايرة وهو من باب عطف العام على الخاص. قال وقال الله في موضع آخر: ﴿وكم أرسلنا من نبي في الأولين﴾ فدل ذلك على أنه نبياً فجعله الله مرسلاً، وهو يدل على قولنا، ثم أورد حديث أبي ذر السابق الذي أشار إلى أن عدد الأنبياء أكثر من عدد الرسل.

ويقول القاضي عبدالجبار في كتابه المغني: فصل - في الكلام على من جوز ظهورها - يعني المعجزة - على يد نبي غير مرسل، قال: (اعلم أن الذي قدمناه قد دل على أنها (لا)[2] تظهر الا على يد مدعي الرسالة، لكي يعرف بها صدقه بما تحمله من مصالح الأمة وبيان أن الغرض في ذلك ما يعود على المبعوث اليه، فاذا صح ذلك، فان كان في العباد من يكون نبياً، ولا يكون رسولاً، فظهور المعجز عليه، في أنه لا يحسن، ويكون مفسدة في أعلام الرسل على ما قدمناه، بمنزلة ظهوره على الصالحين؛ قال: ثم يقال لهم ما الذي تريدون بقولكم انه نبي وليس برسول لأنه لا بد من فائدة معقولة تعتقدونها فيه. فان قالوا: نعني بذلك أنه تعالى يظهر

---

(١) يعني به القول بالفرق بين النبي والرسول.

(٢) ساقط حرف «لا» ولا يستقيم الكلام إلا بها.

المعجزات فتحصل له رتبة النبوة وان لم يحمله الرسالة. قيل لسنا ننازع إلا في ذلك، فمن أين ان هذا جائز حتى يصح ما زعمته من اثبات نبي ليس بمرسل [1].

غير ان قول عبدالجبار هذا، الذي يقول فيه: انه لا يصح اثبات نبي ليس بمرسل، والذي أخذنا منه نسبة القول إلى المعتزلة بعدم الفرق بين النبي والرسول، وما جزم به الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي﴾ من أن القول بعدم الفرق بينهما هو قول المعتزلة، يناقضه ما ذكره عبدالجبار نفسه في كتابه المغني، بعد أن ذكر أن لفظة «نبي» في اللغة تفيد الرفعة، وأنه يجب أن تنقل عن عمومها في اللغة إلى ما يختص بالأنبياء وتكون بمنزلة سائر الأسماء الشرعية لدلالة السمع على أن هذه المزية لا تحصل إلا للرسول، فيجب أن يدل على أن الأسم المفيد لها لا يحصل إلا له... فاذا صح ذلك ثبت أن هذا الاسم بالتعارف، يختص بالأنبياء عليهم السلام. ولا فرق بين أن يكونوا من البشر أو من الملائكة في هذا الوجه، فلذلك يستحق جبريل، صلوات الله عليه وغيره هذا الاسم كما يستحقه سائر

---

(١) القاضي عبدالجبار بن أحمد: المغني في أبواب التوحيد والعدل، جـ ١٥ ص ٢٤٤ الناشر، وزارة الثقافة والارشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة، للتأليف والترجمة والطباعة والنشر. سنة ١٣٨٥ - ١٩٦٥ م القاهرة.

الأنبياء، وان كان جميع الملائكة عليهم السلام من الرسل.. إلى أن قال: ولهذه الجملة قال شيوخنا - رحمهم الله - في النبوة انها جزاء على عمل، ففصلوا بينها وبين الرسالة من حيث كان المستفاد بها الرفعة، التي هي جزاء عليه.

ولذلك قالوا: انها مستحقة، دون الرسالة، وهو قدر التعظيم والثواب، وليس كذلك الرسالة [١].

فقوله: وقال شيوخنا في النبوة انها جزاء على عمل، ففصلوا بينها وبين الرسالة، يدل على أن شيوخ المعتزلة، أو على الأقل بعضهم، يقول بالفرق بين النبي والرسول، لتفريقهم بين النبوة والرسالة.

وعليه فلا تصح نسبة الجزم بالتعميم الى المعتزلة جميعاً، كما جزم الفخر الرازي بذلك، بل لعل القائل بعدم الفرق بين النبي والرسول بعض فرق المعتزلة لا كلهم.

موقف القرآن:

الناظر في كتاب الله تعالى، يجد أن القرآن الكريم قد خاطب الأنبياء بما خاطب به المرسلين، فخاطبهم جميعاً بأنهم، ممن أوحى

---

(١) القاضي عبدالجبار، المغني ج ١٥/١٥ - ١٦.

اليهم، وأن منهم من تعرض للاضطهاد والقتل، وكلهم أرسل، كما أنه يذكرهم في التفضيل تارة بوصف الرسالة، وأخرى بوصف النبوة، كل هذه المعاني جميعها دل عليها القرآن الكريم.

فمن ناحية الوحي: يقول تعالى: ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ [1].

ويقول تعالى:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [2].

ومن ناحية الاضطهاد والقتل:

يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ

---

(١) سورة النساء آية ١٦٣.

(٢) سورة يوسف آية ١٠٩.

تَقْتُلُونَ أَنبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (١).

ويقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ (٢).

ومن ناحية التفضيل:

يقول تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ ۖ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ (٣).

ويقول تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ (٤).

ومن ناحية الارسال:

يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا

---

(١) سورة البقرة آية ٩١.
(٢) سورة المائدة آية ٧٠.
(٣) سورة الاسراء آية ٥٥.
(٤) سورة البقرة آية ٢٥٣

بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴾ [1].

ويقول تعالى: ﴿ وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ . وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ [2].

ويقول تعالى: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ﴾ [3].

وهكذا نرى من خلال عرض هذه الآيات، أن القرآن الكريم لا يفرق في خطابه بين النبي والرسول، لا في الوحي اليهم، ولا فيما تعرض له كل منهم من اضطهاد وتكذيب، كما أنه يذكرهم في التفضيل تارة بوصف النبوة، وأخرى بوصف الرسالة، وينص على أن كلا منهم قد أرسل.

فظاهر القرآن لا يساعد القائلين بالفرق بين النبي والرسول، بل دلالته على عدم الفرق أظهر.

ويبقى على الباحث أن يفتش عن دليل آخر، وبعد البحث والتأمل رأيت أن حديث أبي ذر السابق الذي نص على أن عدد الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، وأن الرسل منهم ثلاثمائة

---

(١) سورة الاعراف آية ٩٤.
(٢) سورة الزخرف آية ٦، ٧.
(٣) سورة الحج آية ٥٢.

وثلاثة عشرة، يمكن الاعتماد عليه في الفرق بين معنى النبي والرسول، فهو نص صريح في أن الأنبياء أكثر عدداً من الرسل، اذ لو كان كل نبي رسولا، لما كان هناك وجه لذكر عدد الرسل.

أما الكلام في سند الحديث وتضعيف بعض رواته، فقد نص الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، في تحقيقه لمشكاة المصابيح جـ ٣ ص ١١٢، رقم الحديث ٥٧٣٧ على أن الحديث صحيح[١].

وبناء على ذلك يترجح القول بالفرق بين النبي والرسول.

ولكن من النبي؟ ومن الرسول؟ أو بعبارة أخرى، ما هو الضابط الذي يمكن أن يفرق بين النبي والرسول؟

والجواب أن العلماء قد ذكروا في الفرق بينهما أموراً.

الأول: أن النبي من أتاه الوحي من الله عز وجل، ونزل عليه الملك.

والرسول من يأتي بشرع على الابتداء، أو بنسخ بعض شريعة من قبله[٢].

---

(١) الشيخ ولي الدين محمد بن عبدالله الخطيب التبريزي، مشكاة المصابيح، تحقيق محمد ناصرالدين الألباني منشورات المكتب الاسلامي للطباعة والنشر الطبعة الاولى ١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م.

(٢) عبدالقاهر البغدادي: كتاب أصول الدين ص ١٧٠ الطبعة الاولى سنة ١٣٤٦ هـ - ١٩٢٨ م استنبول - مطبعة الدولة.

الثاني: أن النبي من أوحي الله إليه بشرع، لكنه لم ينزل عليه كتاب.

والرسول من جمع الى المعجزة الكتاب المنزل عليه [1].

الثالث: الفرق بينهما بالأمر بالتبليغ وعدمه، اذ النبي انسان أوحي إليه بشرع، فان أمر بتبليغه والدعوة إليه فهو نبي رسول. وإلا فهو نبي غير رسول، وهذا هو المشهور [2].

وقد رد على هذه الأوجه جميعها:

أما الوجه الأول: فإنه يلزم عليه أن لا يكون يعقوب، واسحاق وسليمان، وكثير من أنبياء بني اسرائيل رسلاً، لأنهم لم يأتوا بشريعة جديدة، وانما كانت شريعتهم التوراة، مع أن القرآن قد سماهم رسلاً.

وأما الوجه الثاني: فيلزم عليه أن لا يكون يونس، ولوط، وإسماعيل، وشعيب رسلا، لأنه لم ينزل عليهم كتاب.

---

(١) الفخر الرازي، التفسير الكبير، الطبعة الثانية، الناشر دار الكتب العلمية طهران التاريخ (بدون).

(٢) الشيخ كمال الدين المعروف بابن أبي شريف القدسي، شرح المسايرة ص ٢٣١، مطبعة السعادة بمصر التاريخ (بدون).

أما الوجه الثالث: وهو الفرق بينهما بالأمر بالتبليغ وعدمه فوجه الاعتراض عليه هو: أن العقل لا يسيغ أن يوحي الله الى انسان بشرع ولا يأمره بتبليغه، لأن الشرع علم وأمانة، وأداء العلم واجب، وكتمانه نقص ورذيلة.

والذي نختاره: ان كلا من النبي والرسول أوحي إليه - غير أن الرسول أمر بتبليغ رسالة الى قوم كفار خالفوا أمر الله فكفروا به وعبدوا معه غيره. أما النبي: فهو مأمور بأن يعمل بشريعة من قبله، فيوحي إليه بما يفعله ويأمر به المؤمنين به. وقد يوحي إليه في قضية معينة، كأنبياء بني اسرائيل العاملين بالتوراة.

١) دليل الوحي: قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ (١).

٢) وأما الأمر بالتبليغ فيدل عليه قتل بني اسرائيل لبعض أنبيائهم، كما حكى الله ذلك عنهم في أكثر من آية، يقول تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ

(١) سورة النساء، الآية ١٦٣.

ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ (١).

فلو لم تكن هناك دعوة من أنبيائهم تتضمن امراً ونهياً لهم بما لا تهواه أنفسهم لما حدث منهم القتل لانبيائهم ولا يعترض على هذا التفريق بما اعترض به على الوجه الأول وهو ان عدداً من أنبياء بني اسرائيل لم يأتوا بشريعة جديدة وانما كانت شريعتهم التوراة ومع ذلك فقد سماهم القرآن رسلا لأنا نقول: ان هؤلاء الذين سماهم القرآن رسلا من الممكن أن يكون الله قد أوحى إليهم ببعض الأمور التي لم تكن موجودة في التوراة، ولم نعلم بها، وعدم العلم لا يدل على عدم الوقوع، وقد يستأنس لتأييد هذا الرأي بقصة طالوت، وقصة سليمان مع بلقيس المذكورتين في القرآن الكريم.

قصة طالوت:

يقول الله تعالى فيها: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَـٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ

(١) سورة آل عمران، الآية ١١٢.

تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۝ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾ (١).

فالذي نأخذه من هذه القصة: أن الله سبحانه وتعالى، أوحى الى هذا النبي بأمرين:

أحدهما: أنه أوحى إليه بأن يأمر بني اسرائيل بالجهاد وأنه كتبه عليهم على حسب طلبهم.

ثانيهما: تعيين طالوت ملكاً عليهم. كما يدل على ذلك صريح الآية (فلما كتب عليهم القتال). (ان الله قد بعث لكم طالوت ملكاً).

ففي هذه الآيات اثبات الإيحاء لهذا النبي، وقد تضمن ذلك الوحي أمرا جديداً.

أما قصة سليمان:

فمن المقرر أن الأنبياء السابقين كانوا يبعثون إلى أقوامهم خاصة، يدل لذلك قوله ﷺ: (أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض

---

(١) سورة البقرة الآيات من ٢٤٦ - ٢٥١.

مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغَنائِم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي ﷺ يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس عامة)[1]. ونجد في القرآن الكريم، أن سليمان عليه السلام وهو من أنبياء بني اسرائيل المأمورين باتباع شريعة موسى عليه السلام، قد دعا بلقيس وقومها الى الدخول في دين الله تعالى، وترك عبادة ما سواه، كما حكى الله ذلك عنه في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾[2].

نستنتج من ذلك، أن ذلك الأمر حدث من سليمان عليه السلام بأمر من الله أوحى اليه، اذ لا يتصور أن يكون ذلك منه دون اذن من الله تعالى. والله أعلم.

المبحث الثاني، صفات الانبياء:

سنعرض في هذا المبحث مجمل صفات الانبياء عليهم السلام التي

---

(١) محمد بن اسماعيل البخاري / صحيح البخاري باب قول النبي ﷺ جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ج ١ ص ٥٣٣ فتح الباري رقم الحديث ٤٣٨. ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة جـ ١ ص ٣٧١ رقم الحديث ٥٣١. والامام احمد، في المسند جـ ٢ ص ٢٢٢، الطبعة الاولى سنة ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م دار صادر للطباعة والنشر.

(٢) سورة النمل آية ٣١.

وصفهم العلماء بها، كالصدق، والأمانة وغيرها ونبين ما ينبغي أن ينزهوا عنه من الصفات الذميمة كالكذب، والخيانة وغيرهما.

ثم نتبع ذلك بمسلك القرآن الكريم في هذا الموضوع.

أولاً: الصفات التي وصف العلماء الأنبياء بها.

لقد وصف العلماء الأنبياء عليهم السلام بأنهم افراد من البشر قد تميزوا على غيرهم بعلو الفطرة، وصحة العقل، وسداد الرأي، وسلامة التفكير، فهم أكمل أهل زمانهم عقلا، وأقواهم فطنة، وأبعدهم نظراً، لا تلامس قلوبهم القسوة، ولا طبائعهم الغلظة؟ خلقهم حفظ الأمانة وأداؤها، والصدق في القول، وقوة البيان، والبر والاحسان الى الخلق جميعاً، هذه بعض صفاتهم الخلقية التي وصفهم العلماء بها.

أما صفاتهم الخَلْقية، فقد برأهم الله تعالى من العيوب، فسلم أبدانهم مما تنبو عنه الأبصار، وتنفر منه النفوس، وتشمئز منه الجماعات البشرية.

يقول الشيخ محمد عبده في رسالة التوحيد، بعد وصفه للأنبياء بما ينبغي ان يكونوا عليه خُلُقاً وخَلْقاً ما يأتي: «لأنهم، لو انحطت فطرهم عن فطر أهل زمانهم، وتضاءلت أرواحهم لسلطان نفوس

أخر، أو مس عقولهم شيء من الضعف، لما كانوا أهلا لهذا الاختصاص الإلهي الذي يفوق كل اختصاص، اختصاصهم بوحيه والكشف لهم عن أسرار علمه، ولو لم تسلم أبدانهم عن المنفرات، لكان انزعاج النفس لمرآهم حجة للمنكر في انكار دعواهم، كما عصمهم الله من كل ما يشوه السيرة البشرية لأنهم لو كذبوا، أو خانوا، أو قبحت سيرتهم لضعفت الثقة بهم، أما ما عدا ذلك فهم بشر يعتريهم ما يعتري أفراده، يأكلون، ويشربون، وينامون ويمرضون... الخ[1].

ثانياً: مسلك القرآن الكريم في وصف الأنبياء:

والمتأمل في كتاب الله يجد ان هذه الصفات التي ذكرها العلماء في وصفهم لأنبياء الله ورسله، قد انتزعوها واخذوها من القرآن الكريم، والسيرة العطرة، لكل اولئك الصفوة المختارة من خلقه، فقد تحدثت آيات من كتاب الله، عن وصفهم بالصدق، والأمانة، والوفاء بالوعد، ولين الجانب، والشفقة والرحمة بالأمة، وأخرى نزهتهم عن الغل والخيانة.

---

(١) الشيخ محمد عبده ـ رسالة التوحيد ص٨٣ ـ ٨٧ بتصرف، الطبعة الحادية عشرة سنة ١٣٦٥ هـ.

فمن تلك الآيات ما يأتي:

أولا - في اتصافهم بالصدق قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾[1] وقوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ...﴾[2].

وفي اتصافهم - بالأمانة

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[3]

وقوله: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾[4].

وفي اتصافهم - بالوفاء بالوعد:

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾[5].

---

(١) سورة مريم آية ٤١.
(٢) سورة يوسف آية ٤٦.
(٣) سورة الأعراف آية ٦٨.
(٤) سورة القصص آية ٢٦.
(٥) سورة مريم آية ٥٤.

وفي اتصافهم ـ بلين الجانب:

قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (١).

وفي اتصافهم ـ بالشفقة والرحمة:

قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢).

وقوله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (٣).

وفي تنزههم عن الغل والخيانة:

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٤).

---

(١) سورة آل عمران آية ١٥٩.

(٢) سورة التوبة آية ١٢٨.

(٣) سورة الكهف آية ٦.

(٤) سورة آل عمران آية ١٦١.

وكما وصفهم القرآن بتلك الصفات العالية التي لا يدانيهم فيها احد من أفراد البشر، الدالة على حسن خُلقهم، فقد وصفهم بحسن خَلْقهم وبرأهم من العيوب البدنية المنفرة. وكل ما جاء في صفاتهم الخلقية يدل على أنهم أحسن الناس خلقاً كما كانوا أحسنهم خلقاً.

ومن ذلك ما جاء في تبرئة موسى عليه السلام حيث آذاه قومه واتهموه ببعض العيوب البدنية في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ (١).

فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « إن موسى كان رجلا حيياً ستّيراً لا يرى من جلده شيء استحياء منه، فآذاه من آذاه من بني اسرائيل فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده: اما برص، واما أدرة، واما آفة، وان الله أراد ان يبرءه مما قالوا لموسى، فخلا يوماً وحده، فوضع ثيابه على الحجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل الى ثيابه ليأخذها، وان الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه عرياناً أحسن ما خلق الله وأبرأه مما يقولون، وقام الحجر، فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه، فوالله ان بالحجر

---

(١) سورة الاحزاب آية ٦٩.

لندباً من أثر ضربه، ثلاثاً، أو أربعاً، أو خمساً، فذلك قوله (٦٩ الأحزاب): ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها﴾ [١].

وقوله تعالى في وصف يوسف عليه السلام حكاية عن النسوة اللاتي تكلمن في امرأة العزيز لما راودته عن نفسه ـ : ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [٢]. وقوله تعالى في وصف عيسى عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [٣].

من كل ما تقدم يتضح لنا أن الانبياء عليهم السلام، وهم الصفوة من البشرية قد اختصهم الله بتلك الصفات، وميزهم بها على غيرهم ليكونوا اهلا لحمل عبء الرسالة وما أثقلها، قال

---

(١) صحيح البخاري / كتاب أحاديث الأنبياء / باب ٢٨ / رقم الحديث ٣٤٠٤ من فتح الباري ج٦ / ٤٣٦.

(٢) سورة يوسف آية ٣١.

(٣) سورة آل عمران آية ٤٥.

تعالى: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ (١) ولذلك كان اعدادهم، واختيارهم عن علم الله وحكمته، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ﴾ (٢).

فاختيار الانبياء لتحمل عبء الرسالات الى اقوامهم لا يقوم على مقاييس البشر واصطلاحهم وانما يرجع الى علم الله وحكمته، واختياره ومشيئته، ولهذا لما اعترض كفار قريش على اختيار محمد ﷺ للرسالة، وانزال القرآن عليه دون غيره من العرب لأنه في نظرهم، وبناء على مقاييسهم واصطلاحاتهم المادية غير أهل لذلك المنصب، لأنه فقير لا يملك من المال ما يجعله يستحق ذلك الشرف العظيم ويمتاز عليهم به، ذلك ان الفضل والشرف على الآخرين ـ في عرفهم ـ لا ينبغي أن يناله إلا أهل المال والجاه، فرد الله عليهم ذلك الاعتراض، كما حكاه بقوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (٣).

يقول ابن كثير في تفسير الآية، أي هلا كان انزال هذا القرآن

---

(١) سورة المزمل آية ٥.

(٢) سورة الانعام آية ١٢٤.

(٣) سورة الزخرف آية ٣١.

على رجل عظيم كبير في اعينهم من القريتين؟ يعنون مكة والطائف قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وأرادوا بذلك الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي، أو غيرهما، قال الله تبارك وتعالى رداً عليهم هذا الاعتراض (أهم يقسمون رحمة ربك) أي ليس الأمر مردوداً إليهم بل الى الله عز وجل، والله أعلم حيث يجعل رسالاته فانه لا ينزلها إلا على ازكى الخلق قلباً ونفساً وأشرفهم بيتاً وأطهرهم أصلا ثم قال عز وجل مبيناً انه قد فاوت بين خلقه فيما أعطاهم من الأموال والأرزاق، والعقول والفهوم، وغير ذلك من القوى الظاهرة والباطنة، ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (١)(٢).

وكون النبي يختص بميزات في عقله وسلوكه، وحسن خلقه، كما وصفت خديجة رضي الله عنها المصطفى ﷺ حين أتاه ملَك الوحي ثم جاءها يخبرها بما حدث له وقال لها: لقد خشيت على نفسي. فقالت له: كلا والله لا يخزيك الله أبداً، ثم عددت الصفات والميزات التي بنت عليها ذلك الحكم، فقالت: انك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل وتقري الضيف، وتكسب

---

(١) ابن كثير، التفسير ج ٤ ص ١٢٦، ١٢٧.
(٢) الزخرف: آية ٣٢.

المعـدوم وتعين على نـوائـب الحق [1] فهـذه الصفـات الحميـدة، والميزات العظيمـة التي جبـل الله عليهـا محمداً ﷺ قبـل النبـوة، وجعلها من شيمته وسجيته.

لا تعني أن النبوة مكتسبة كما هو مذهب الفلاسفة [2]، ولا

---

(١) محمد بن اسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي الباب ٣/ ج ١ ص ٢٢ من فتـح البـاري، المطبعـة السلفيـة ومكتبهـا - القـاهـرة سنـة ١٣٨٠ هـ.

(٢) ينكر الفلاسفة ان يكون منصب النبوة، محصوراً في أناس معينين يصطفيهم الله عز وجل لهذا المنصب ويرون ان كل أحد يستطيع بالرياضة والمجاهدة والتخلق بالاخلاق الحميدة أن يبلغ درجة النبوة، اذ النبيّ عندهم من توجد فيه خواص ثلاث يمتاز بها على غيره.

الأولى: أن يكون له اطلاع على المغيبات الكائنة والماضية، والآتية، قالوا: ولا يستنكر هذا الاطلاع لأن النفوس الانسانية مجردة في ذاتها عن المادة غير حالة فيها، بل هي ألاّ مكانية، ولها نسبة في التجرد، فاذا صفت النفس وتجردت عن رعونتها البشرية، كان لها شدة اتصال بالنفوس الملكية التي انتقشت فيها صور الحوادث التي قد رأت تحدث في عالم العناصر، فتشاهد نفس النبي تلك الصور بواسطة ارتسامها فيهـا كمـرآة يحاذي بها مـرآة أخـرى فيهـا نقـوش فينعكس عنها إلى الاولى ما يقابلها.

الثانية: أن تظهر منه افعال خارقة للعادة، لكون هيولي عالم العناصر مطيعة له، فتنقاد لتصرفاته، انقياد بدنه لنفسه، في حركاته وسكناته على وجوه شتى بحسب ارادته، ولا يستنكر ذلك الانقيـاد، لأن النفـوس الانسـانيـة ليسـت منطبعة في الابدان، وهي بتصوراتها مؤثرة في المواد البدنية، واذا كانت ارادة النفس وتصوراتها مؤثرة في البدن مع عدم الانطباع فيه، فلا يبعد ان تقوى =

جزاء على عمل كما يرى بعض شيوخ المعتزلة [١]. وانما هي تفضل من الله عز وجل ورحمة يختص بها من يشاء من عباده.

قال تعالى: ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [٢].

= نفس النبي بحيث تنقاد له الهيولي العنصرية فتؤثر فيها ارادته، وتصوراته، حتى تحدث بارادته في الارض رياح وزلازل وحرق وغرق... الخ.

الثالثة: أن يرى الملائكة مصورة بصور محسوسة ويسمع كلامهم وحياً من الله إليه قالوا: ولا يستنكر أن يحصل له في يقظته مثل ما يحصل للنائم في نومه من مشاهدة اشخاص يكلمونه بكلام منظوم دال على معان مطابقة للواقع وذلك لتجرد نفسه عن الشواغل البدنية وسهولة انجذابه الى عالم القدس، فاذا انجذبت اليه واتصلت به في يقظته شاهد المعقولات كمشاهدة المحسوسات فان القوة المتخيلة، تكسوا المعقول المرتسم في النفس لباس المحسوس وتنقشه في الحس المشترك على نحو انتقاش المحسوسات فيه من خارج. هـ شرح المواقف جـ ٨ ص ٢١٨، ٢٢٠. فهم لا ينكرون النبوة، ولكنهم فسروها بما يخالف الثابت في الكتاب والسنة واجماع الأمة، لأنهم ينكرون صدور البعثة عن الباري بالاختيار، ويفسرون واجب الوجود بأنه غير فاعل باختياره، كما ينكرون نزول الملك بالوحي من السماء، لاستحالة خرق الافلاك عندهم، وهكذا نراهم قد فتحوا الباب للمتنبئين على مصراعيه، فلم تختتم عندهم النبوّة بل كل شخص أراد الافساد يستطيع ان يدعي النبوة.

(١) المغني للقاضي عبدالجبار ج ١٥/١٥ - ١٦.

(٢) سورة البقرة آية ١٠٥.

وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[١].

ولكن هذا الاختصاص بهذا الفضل والاتصاف بهذه الصفات الحميدة، التي كانت من أسباب اختيارهم للرسالة والنبوة لا يخرجهم عن الطبيعة البشرية ولا يؤدي بهم الى مرتبة الألوهية، أو الى البُنُوَّه. يقول تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[٢].

وإنما هم عبيد الله سبحانه وتعالى مخلوقون له، بل العبودية الكاملة والخالصة هي من أخص صفاتهم، وقد وصفهم الله بها في أعلى المقامات وأشرفها.

فقال تعالى: ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾[٣].

---

(١) سورة الجمعة آية ٢، ٤.

(٢) سورة آل عمران آية ٧٩.

(٣) سورة الاسراء آية ١.

وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [1].

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [2].

وقال تعالى عن المسيح عليه السلام. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [3].

وقال المسيح: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ [4].

وقد بين القرآن الكريم، أن من صفاتهم:

أولا: البشرية، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [5].

---

(١) سورة الفرقان آية ١.
(٢) سورة ص آية ٤٥.
(٣) سورة الزخرف آية ٥٩.
(٤) سورة مريم آية ٣٠.
(٥) سورة الكهف آية ١١٠.

وقال تعالى: ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ (١).

ثانياً: أنهم لا يملكون لانفسهم ضراً ولا نفعاً، ولا يعلمون من امر الغيب شيئاً إلا ما علمهم الله إياه.

قال تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢).

ثالثاً: وأنهم لا يستطيعون تغيير نظام الكون ولا خرق نواميسه، إلا باذنه تعالى فيما يجعله لهم آية دالة على صدقهم فيما يدعون من الرسالة.

قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ

---

(١) سورة ابراهيم آية ١١.

(٢) الأعراف / ١٨٨.

﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [1].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [2].

كما بين القرآن الكريم أنه يجري عليهم ما يجري على سائر البشر من سنن الله التي قدرها على عباده. من مرض، وجوع، وشبع، وعطش، وحياة، وموت، فهم يعيشون كما يعيش سائر أفراد البشر، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [3].

وقد عجب كفار قريش من كون الرسول بشراً مثلهم، يأكل كما يأكلون، ويشرب كما يشربون. ويمشي في الاسواق طلباً للمعيشة والرزق.

قال تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [4].

---

(١) سورة الاسراء الآيات من ٩٠ ـ ٩٣.

(٢) سورة العنكبوت آية ٥٠.

(٣) سورة الزمر آية ٣٠.

(٤) سورة الفرقان آية ٧.

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴾[1].

المبحث الثالث ـ العصمة:

نعرض في هذا المبحث فكرة موجزة عن آراء العلماء في عصمة الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه، ثم نتبع ذلك بمسلك القرآن الكريم في هذا الموضوع.

تعريفها ـ عرف العلماء العصمة، بأنها ملكة تمنع صاحبها من ارتكاب المعاصي واجتناب الطاعات: وتتأكد هذه الملكة في الأنبياء بأمور: منها تتابع الوحي، والتنبيه على ما يصدر منهم سهواً والعتاب على ترك الأولى.

أما تعريفها بأنها خاصة في نفس الشخص أو في بدنه يمتنع بسببها صدور الذنب عنه؛ فقد ردّ هذا التعريف، بأنه لو كان صدور الذنب ممتنعاً لما استحق المدح بترك الذنب، لأنه لا مدح ولا ثواب بترك ما هو ممتنع، لأنه ليس مقدوراً له ولا داخلا تحت اختياره[2].

---

(١) سورة الشعراء من آية ٧٨ ـ ٨٢.

(٢) الايجي، شرح المواقف جـ ٨ ص ٢٨٠، الطبعة الأولى سنة ١٣٢٥ هـ ـ ١٩٠٧ م.

أولا - آراء العلماء في العصمة:

حكى شارح المواقف، اجماع أهل الملل والشرائع على وجوب عصمة الأنبياء في أمرين:

أحدهما: عدم تعمد الكذب فيما تدل المعجزة على صدقهم فيه كدعوى الرسالة.

ثانيهما: عدم تعمد الكذب فيما يبلغونه عن الله الى الخلائق من الأحكام الاعتقادية والعلمية ونحوها.

ويستدلون على ذلك بأنه لو جاز عليهم التقول والافتراء في ذلك عقلا لأدى إلى ابطال دلالة المعجزة وهو محال، اذ المعجزة تدل على أنهم مؤيدون من الله تعالى، والمؤيد من الله لا يكذب.

أما صدور الكذب عنهم في ذلك سهواً، أو نسياناً ففيه خلاف، **فمنعه الاستاذ** أبو اسحاق وكثير من الأئمة لدلالة المعجزة على صدقهم في تبليغ الأحكام.

وجوزه القاضي أبو بكر، بناء على أن المعجزة انما دلت على صدق النبي فيما هو متذكر له عامد إليه.

أما وقوع الكفر منهم، سواء كان ذلك قبل النبوة أو بعدها،

فيقول صاحب المواقف: ان اجماع الأمة على أنهم معصومون من [1] ذلك أيضاً. ويوافقه في هذا الحكم شارح المسايرة، فيحكي اتفاق جمهور المسلمين على عصمة الأنبياء من الكفر قبل النبوة وبعدها [2].

قلت: ينبغي القول بعصمتهم من الكذب مطلقاً سواء في دعوى الرسالة، أو فيما يبلغونه عن الله، أو فيما عدا ذلك من الأمور الأخرى، وذلك لدلالة النصوص الصريحة الدالة على ذلك، كقوله تعالى في وصف ابراهيم ويوسف عليهما السلام بالصدق: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [3]، وقوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ [4].

فقد وصفهما بالصدق بصيغة المبالغة.

وفي صحيح البخاري، أن أبا سفيان أخبر ابن عباس أن هرقل أرسل اليه في ركب من قريش وكانوا تجاراً بالشام في المدة التي

(١) الايجي، شرح المواقف جـ ٨ ص ٢٦٣، ٢٦٤؛ الطبعة الاولى ١٣٢٥ هـ - ١٩٠٧ م.

(٢) الشيخ كمال الدين محمد بن محمد المعروف بابن أبي شريف القدس، شرح المسايرة ص ٢٢٧.

(٣) سورة مريم آية ٤١.

(٤) سورة يوسف آية ٤٦.

كان رسول الله ﷺ مادّ [1] فيها أبا سفيان قوله: فهل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟؟. قلت: لا، قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف، والصلة.

وفي تحليل هرقل لاجابات أبي سفيان على أسئلته التي وجهها إليه استنتج منها صدق رسالة محمد ﷺ فمنها قوله: وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله [2].

فهذه النصوص الصريحة تدل على أن خلقهم الصدق في كل شيء، أما ما عدا ذلك من الذنوب، فهي اما كبائر، أو صغائر وصدورها عنهم إما أن يكون قبل النبوة أو بعدها.

وقد ذكر صاحب المواقف، أن الجمهور من المحققين والأئمة يمنعون صدور الكبيرة منهم عمداً بعد النبوة، وهل ذلك المنع سمعاً أو عقلاً؟ فيه خلاف...

---

(١) المد لغة يطلق على المهملة، والمقصود هنا، صلح الحديبية وكانت سنة ست من الهجرة ومدتها عشر سنوات كما في السيرة، فتح الباري جـ ١ ص ٣٤.

(٢) محمد بن اسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي / باب ٦ / من فتح الباري جـ ١ ص ٣١، ٣٢.

ثم قال: أما صدورها عنهم سهواً أو على سبيل الخطأ في التأويل فجوزه الأكثرون والمختار خلافه.

أما صدور الصغائر عنهم عمداً فجوزه الجمهور، فيما ليس من صغائر الخسة، إلا الجبائي، فيرى أنه لا يجوز صدورها منهم إلا بطريق السهو، أو الخطأ في التأويل [١].

وفي المغني لعبدالجبار ، قال: إن الأنبياء لا تجب عصمتهم في الصغائر التي لا تنفر، لأنه لا دليل يمنع من ذلك، ولأنه ليس فيه الا الاقلال من الثواب، فهو بمنزلة ترك الاكثار من النافلة، والقصور في الفضل عن قدر من الرتبة.

ولهذه الجملة كان في الأنبياء التفاضل؛ فيكون بعضهم أفضل من بعض [٢].

أما ابن تيمية فيذهب الى القول بأن جمهور المسلمين يرون تنزيه الأنبياء عن الكبائر [٣].

وقالت الروافض: لا يجوز عليهم صغيرة ولا كبيرة، لا عمداً

---

(١) الايجي شرح المواقف جـ ٨ ص ٢٦٤، ٢٦٥.

(٢) المغني لعبدالجبار ص ٢٨٠ جـ ١٥.

(٣) ابن تيمية، منهاج السنة جـ ٢ ص ٣٣٦.

ولا سهواً ولا خطأ في التأويل، بل هم مبرؤن عنها قبل الوحي فكيف بعده [1].

وجهة القائلين بأن الأنبياء في زمان نبوتهم معصومون عن الكبائر مطلقاً، عمداً وسهواً وعن الصغائر عمداً، أنه لو صدر منهم الذنب لحرم اتباعهم، فيما يصدر عنهم ضرورة أنه يحرم ارتكاب الذنب، والحال أنه يجب متابعة الأنبياء في أفعالهم وأقوالهم بالاجماع.

ولقوله تعالى: ﴿قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله...﴾

ولو أذنبوا لردت شهادتهم اذ لا شهادة لفاسق، بالاجماع،

(١) شرح المواقف ص ٢٦٥ جـ ٨، ومنهاج السنة ص ٣٣٨ حـ ٢، يقول الشهرستاني في الملل والنحل جـ ١ ص ١٥٥: ان الرافضة هم شيعة الكوفة الذين سمعوا من زيد بن علي بن الحسين القول بصحة امامة المفضول مع وجود الفاضل، فعرفوا أنه لا يتبرأ من الشيخين فرفضوه حتى أتى قدره عليه، فسميت رافضة. ويقول أبو الحسن الأشعري في المقالات جـ ١ ص ٨٩: وانما سموا رافضة لرفضهم إمامة أبي بكر وعمر. ويقول ابن تيمية في منهاج السنة جـ ١ ص ٣١ إنه (من زمن خروج زيد بن علي بن الحسين في خلافة هشام افترقت الشيعة الى رافضة وزيدية، فانه لما سئل عن أبي بكر وعمر فترحم عليهما رفضه قوم. فقال لهم: رفضتموني فسموا رافضة لرفضهم إياه، ويسمى من لم يرفضه من الشيعة زيدياً لانتسابهم اليه).

ولقوله تعالى: ﴿ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا﴾ واللازم باطل بالاجماع، ولأن من لا تقبل شهادته في القليل الزائل من متاع الدنيا، فكيف تسمع شهادته في الدين القيم؛ كما أنهم لو أذنبوا وجب زجرهم وتعنيفهم لعموم وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا شك أن زجرهم ايذاء لهم، وايذاؤهم حرام اجماعاً، ولقوله تعالى: ﴿والذين يؤذون الله ورسوله﴾. الآية. ولو أذنبوا لدخلوا تحت عموم قوله تعالى: ﴿ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها أبداً﴾.

هذه بعض حجج القائلين بالعصمة عن الكبائر مطلقاً، وعن الصغائر عمداً، أوردها صاحب المواقف عن الامام الرازي، ثم رد عليها بقوله: (وأنت تعلم أن دلالتها في محل النزاع وهي عصمتهم عن الكبيرة سهواً، وعن الصغيرة عمداً ليست بالقوية، فان الاتباع انما يجب فيما يصدر عنهم قصداً لا سهواً، ويشترط في القصد أن لا ينهانا عنه، ورد الشهادة مبني على الفسق الذي لا ثبوت له في الصغيرة عمداً، ومع الكبيرة سهواً، وأما الزجر فانما يجب في حق المتعمد للكبائر دون الساهي، والصغيرة النادرة عمداً معفوة عن مجتنب الكبائر، قال وعليك بالتأمل في سائر الدلائل[1].

---

(١) الايجي، شرح المواقف جـ ٨ ص ٢٦٧.

ثم أورد صاحب المواقف حجج من جوز وقوع ذلك منهم فقال: (وأما من جوز صدور الكبائر عنهم بعد البعثة سهواً، والصغائر عمداً فقد احتج على ذلك بقصص الأنبياء التي وردت في القرآن الكريم. فمن تلك القصص:

أولاً: قصة آدم عليه السلام، فقد سمى الله ذلك منه معصية، حيث قال: ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾ فان العصيان من الكبائر، بدليل قوله تعالى: ﴿ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم﴾، والغواية تؤكد ذلك لأنها اتباع للشيطان، لقوله تعالى: ﴿الا من اتبعك من الغاوين﴾.

وقوله تعالى: ﴿فتاب عليه﴾ ولن تكون التوبة إلا من ذنب، ومخالفته للنهي عن الأكل من الشجرة، وارتكاب المنهي عنه ذنب.

ثانياً: قصة ابراهيم عليه السلام، في قوله تعالى حكاية عنه: ﴿قال هذا ربي﴾.

قالوا: فان كان ذلك عن اعتقاد فهو مشرك، والا كان كذباً.

وقوله تعالى حكاية عنه ﴿بل فعله كبيرهم هذا؟﴾ وهو كذب.

وقوله تعالى: ﴿فنظر نظرة في النجوم. فقال إني سقيم﴾، والنظر في النجوم حرام، وحكمه بأنه سقيم كذب.

ثالثاً: قصة موسى عليه السلام، وقتله القبطي بغير حق، لأنه لم يكن مباحاً، ولا على سبيل الخطأ، بل كان عمداً، لقوله: ﴿قال هذا من عمل الشيطان﴾ وقوله: ﴿رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي﴾؛

رابعاً: قصة نبينا محمد ﷺ في مثل قوله تعالى: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾.

وقوله تعالى: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم..﴾ [1].

وقد أجاب صاحب المواقف عن تلك القصص كلها اجابات منها القريب ومنها البعيد، فأجاب عن قصة آدم عليه السلام بأن ذلك كان منه قبل النبوة. وأجاب عن قول ابراهيم عليه السلام (هذا ربي) بجوابين:

الأول: أن ذلك كان قبل تمام النظر في معرفة الله وكم بينه وبين النبوة، اذ لا يتصور النبوة إلا بعد تمام ذلك.

---

(١) الايجي، شرح المواقف جـ ٨ ص ٨٦٧، ٢٨٠ الطبعة الأولى سنة ١٣٢٥ هـ - ١٩٠٧ م.

وهذا الجواب ـ ترده حكاية اجماع الأمة على أن النبي ﷺ معصوم من الكفر قبل النبوة وبعدها.

الجواب الثاني: أن قوله ذلك كان على سبيل الفرض، أي أنه كان في مقام المناظر، لا الناظر، وهو الأقرب إلى الصواب.

وأجاب عن قوله (بل فعله كبيرهم هذا) بأن هذا الكلام من قبيل الاسناد إلى السبب فإن الذي حمله على الكسر هو زيادة تعظيمهم لذلك الكبير. وأجاب عن قوله: (فنظر نظرة في النجوم فقال اني سقيم)، بأن النظر في النجوم للاستدلال على قدرة الله تعالى وتوحيده هو من الأمور المطلوبة، وأما ترتيب الحكم بالسقم على النظر، فقال عنه: لعل الله أخبره بأنه اذا طلع النجم الفلاني فأنه يمرض، وأقول إن سياق القصة لا يساعد على هذا التأويل.

وسنذكر الآراء الأخرى في عرضنا لمسلك القرآن ـ ان شاء الله ـ. وأما قصة موسى عليه السلام فقد أجاب عنها بأن ذلك كان منه قبل النبوة. أما عن قصة نبينا محمد ﷺ، فقالوا ان ذلك عتاب له على ترك الأولى.

ثانياً: مسلك القرآن الكريم في العصمة:

وكما وصف القرآن الأنبياء عليهم السلام، بأنهم مصطفون وأخيار، قد أعدهم الله اعداداً خاصاً لحمل رسالاته إلى عباده،

فكذلك عرض ما حدث من بعضهم عليهم صلوات الله وسلامه، من ارتكاب بعض ما حذره الله عليهم، ونهاهم عنه، كما بين القرآن، أنهم لجؤا إلى خالقهم وطلبوا عفوه ومغفرته، كما صرح القرآن الكريم بأن الله تعالى قد قبل توبتهم وتجاوز عنهم، وظاهر القرآن يدل على أن ما كان كبيرة من تلك الذنوب فقد صدر منهم قبل النبوة، كقصة موسى عليه السلام في قتله القبطي.

أما بعد النبوة، فلم يرد في القرآن صراحة ما يدل على أنهم قد وقعت منهم الكبيرة، بل كل ما ورد في القرآن كان من باب الخطأ في التأويل.

وسنعرض لهذا الاجمال ببعض التفصيل بذكر الآيات التي ورد فيها ذكر تلك القصص.

أولا: قصة آدم عليه السلام:

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ .. إلى قوله تعالى: وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾[1].

---

(١) سورة طه الآيات من ١١٥ - ١٢٢.

وقد أوضحت آيات أخرى، ان الله عز وجل أباح لآدم وزوجه أن يأكلا من كل ثمار الجنة، إلا شجرة معينة فقد نهاهما عنها.

قال تعالى: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١).

كما بين سبحانه وتعالى، أن إبليس لا زال بهما يوقعهما ويدلهما بغروره وكيده على الوقوع في النهي ويقسم لهما بأنه لهما ناصح أمين حتى أزلهما، فأكلا من تلك الشجرة المحظورة عليهما.

قال تعالى: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٢).

فهذه الآيات تدل على أنه وقع من آدم عليه السلام ارتكاب الذنب، اذ نهى عن الأكل من تلك الشجرة، ولكنه أكل منها، وقد سمى الله ذلك الفعل منه معصية - ثم ان آدم جعل ذلك

---

(١) سورة الأعراف آية ١٩.

(٢) سورة الأعراف آيتي ٢٢، ٢٣.

العمل منه ظلماً لنفسه، وان لم يتداركه ربه بمغفرته وعفوه، كان من الخاسرين.

يقول ابن جرير في قوله (وعصى آدم ربه فغوى) يقول: وخالف أمر ربه، فتعدى إلى ما لم يكن له أن يتعدى إليه من الأكل من الشجرة التي نهاه عن الأكل منها، (ثم اجتباه...: اصطفاه ربه من بعد معصيته اياه فرزقه الرجوع إلى ما يرض عنه، والعمل بطاعته) [١].

ونقل الزمخشري عن ابن عباس قوله: (لا شبهة في أن آدم لم يمتثل ما رسم الله له وتخطى فيه ساحة الطاعة، وذلك هو العصيان، ولما عصى خرج فعله من أن يكون رشداً وخيراً، فكان غيَّا لا محالة، لأن الغي خلاف الرشد) [٢].

وقد أورد ابن كثير في تفسير آيات سورة طَه ما رواه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (حاج موسى آدم فقال له: أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك واشقيتهم، قال: قال آدم: يا موسى أنت الذي اصطفاك الله

(١) محمد بن جرير الطبري، التفسير جـ ١٦ ص ٢٢٤ الطبعة الثانية ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م.

(٢) الزمخشري، الكشاف جـ ٢ ص ٥٥٧ الطبعة الأخيرة سنة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م.

برسالاته وبكلامه، أتلومني على أمر كتبه الله علي قبل أن يخلقني، أو قدره علي قبل أن يخلقني؟ قال رسول الله ﷺ: فحج آدم موسى[1].

هذه النصوص القرآنية تدل دلالة صريحة على أن آدم عليه السلام قد أزلّه الشيطان فارتكب ما نهاه الله عنه وصرحت الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾ بأن تلك المخالفة كانت معصية لله تعالى، وقد ترتب على ارتكاب ذلك الذنب اخراجه من الجنة؛ وسواء كان ذلك الذنب الذي صدر منه قبل النبوة، كما يرى بعض العلماء، أم كان بعدها، فقد صرح القرآن الكريم بتوبته، وأن الله عز وجل غفر له تلك الزلة وتاب عليه، قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[2]

ثانياً: قصة ابراهيم عليه السلام:

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً

(١) ابن كثير: التفسير ص ١٦٧، ١٦٨ جـ ٣. والحديث في صحيح الامام البخاري / كتاب التفسير / باب ٣ (فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى) من فتح الباري جـ ٨ ص ٤٣٤.

(٢) سورة البقرة آية ٣٧.

إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ إلى قوله تعالى فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [1].

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآيات: (والحق أن ابراهيم عليه الصلاة والسلام كان في هذا المقام مناظراً لقومه مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فبين في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية، التي هي على صور الملائكة السماوية، ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم الذين هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه، وانما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر وغير ذلك).

وبين في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل، وهي الكواكب السيارة السبعة وهي القمر وعطارد....الخ.

وأشدّهُنَّ اضاءة، وأشرفهن عندهم الشمس ثم القمر ثم الزهرة، فبين أولا صلوات الله وسلامه عليه أن هذه الزهرة لا تصلح

---

(١) سورة الأنعام الآيات ٧٤ - ٧٩.

للالهية، فانها مسخرة مقدرة بسير معين لا تزيغ عنه يميناً ولا شمالاً ولا تملك لنفسها تصرفاً بل هي جرم من الأجرام خلقها الله منيرة لما له في ذلك من الحكم العظيمة... ثم انتقل إلى القمر فبين فيه مثل ما بين في النجم، ثم انتقل إلى الشمس كذلك فلما انتفت الالهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار وتحقق ذلك بالدليل القاطع (قال يا قوم انى بريء مما تشركون)... وكيف يجوز أن يكون ابراهيم ناظراً في هذا المقام وهو الذي قال الله في حقه: ﴿ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنّا به عالمين﴾ الآيات. وقال تعالى: ﴿ان ابراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين. شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم...﴾ الآيات[1].

وبهذه الحجج القرآنية الواضحة تبين لنا أن قول ابراهيم عليه السلام، (هذا ربي) لم يكن من باب النظر ليكون اعتقاداً، ولا من باب الكذب لأنه لم يكن اخبارا. وإنما هو من باب الفرض في حال المجادلة والمناظرة لاقامة الحجة على الخصم، يوضح ذلك قوله تعالى بعد تلك الآيات السابقة ﴿وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به...﴾ الآيات.

---

(١) ابن كثير ـ التفسير جـ ٢ ص ١٥١.

وأما قوله تعالى حكاية عن ابراهيم عليه السلام: (قال بل فعله كبيرهم هذا) يعني الذي تركه ولم يكسره (فاسألوهم ان كانوا ينطقون).

قال ابن كثير: وانما أراد بهذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم فيعترفوا أنهمّ لا ينطقون وأن هذا لا يصدر عن هذا الصنم لأنه جماد [1].

وقال في تفسير قوله تعالى: (فنظر نظرة في النجوم. فقال اني سقيم. فتولوا عنه مدبرين).

إنما قال ابراهيم عليه السلام لقومه ذلك ليقيم في البلد اذا ذهبوا الى عيدهم فانه كان قد أزف خروجهم الى عيد لهم فأحب أن يختلي بآلهتهم ليكسرها، فقال لهم كلاماً هو حق في نفس الأمر، فهموا منه أنه سقيم على مقتضى ما يعتقدونه (فتولوا عنه مدبرين). قال قتادة: والعرب تقول لمن تفكر نظر في النجوم، يعني قتادة أنه نظر في السماء متفكراً فيما يلهيهم به فقال: (اني سقيم) أي ضعيف، قال: فأما الحديث الذي أورده ابن جرير ها هنا عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لم يكذب ابراهيم عليه الصلاة والسلام غير ثلاث كذبات: ثنتين في ذات الله تعالى، قوله

---

(١) ابن كثير ـ التفسير جـ ٣ ص ١٨٣.

(اني سقيم) وقوله: (بل فعله كبيرهم هذا) وقوله في سارة هي اختي، فهو حديث مخرج في الصحاح والسنن من طـرق ولكن ليس هذا من باب الكذب الحقيقي الذي يذم فاعله حاشا وكلا، وإنما أطلق الكذب على هذا تجوزاً وإنما هو من المعاريض في الكلام لمقصد شرعي ديني كما جاء في الحديث (ان في المعاريض لمندوحة عن الكذب)[1].

ولفظ الحديث في صحيح البخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات: ثنتين في ذات الله عز وجل: قوله (اني سقيم).

وقوله: (بل فعله كبيرهم هذا) وقال: بينما هو ذات يوم وسارة اذ أتى على جبار من الجبابرة، فقيل له: ان ها هنا رجلاً معه امرأة

---

(١) ابن كثير التفسير جـ ٤ ص ١٣؛ والحديث: ان في المعاريض لمندوحة... رواه ابن عدي عن عمران بن حصين رضي الله تعالى عنه مرفوعاً، ورواه البيهقي مرفوعاً، وابن السني في الدرر موقوفاً، ورواه البخاري في الأدب المفرد؛ المناوي: / فيض القدير شرح الجامع الصغير جـ ٢ ص ٤٧٢ الطبعة الاولى سنة ١٣٥٦ هـ رقم الحديث ٢٣٣٢.

والمعاريض جمع معراض كمفتاح من التعريض، وعرفه الأقدمون، بأنه ذكر لفظ محتمل يفهم منه السامع خلاف ما يريده المتكلم. والمتأخرون كالمولى التفتازاني عرفه بأنه ذكر شيء مقصود بلفظ (غير) حقيقي أي مجازي أو كنائي ليدل به على شيء آخر لم يذكر في الكلام / المناوي / فيض القدير شرح الجامع الصغير جـ ٢ ص ٤٧٢.

من أحسن الناس، فأرسل إليه فسأله عنها فقال: من هذه؟ قال: أختي، فأتى سارة قال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وان هذا سألني عنك فأخبرته أنك أختي، فلا تكذبيني.

فأرسل اليها، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخذ. فقال ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت الله فأطلق. ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت فأطلق. فدعا بعض حجبته فقال انكم لم تأتوني بانسان، وإنما أتيتموني بشيطان، فأخدمها هاجر. فأتته وهو قائم يصلي، فأومأ بيده: مهيم؟ قالت: رد الله كيد الكافر - أو الفاجر - في نحره، وأخدم هاجر.

قال أبو هريرة: تلك أمكم يا بني ماء السماء [1].

قال ابن حجر في الفتح: وأما اطلاقه الكذب على الأمور الثلاثة فلكونه قال قولاً يعتقده السامع كذباً، لكنه إذا حقق لم يكن كذباً لأنه من باب المعاريض المحتملة للأمرين فليس بكذب محض.

وقوله (هذه أختي) يعتذر عنه بأن مراده أنها أخته في الاسلام

---

(١) محمد بن اسماعيل البخاري / صحيح البخاري / كتاب الأنبياء / باب قول الله تعالى: ﴿واتخذ الله ابراهيم خليلا﴾. فتح الباري جـ ٦ ص ٣٨٨.

كما في رواية هشام بن حسان أنه قال لها: (ان هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فان سألك فأخبريه أنك أختي، وانك أختي في الاسلام. قال: وفي الحديث مشروعية أخوة الاسلام، واباحة المعاريض[1].

قصة موسى عليه السلام:

يقول تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[2].

فوكزه، قال مجاهد: طعنه بجمع كفه، وقال قتادة: وكزه بعصا كانت معه، فقضى عليه، أي كان فيها حتفه فمات[3].

ولا ريب أن قتل النفس بغير حق من الكبائر، وقد كان قتل موسى عليه السلام للقبطي كذلك. لكن صريح القرآن يدل على أن ذلك الذنب وقع من موسى عليه السلام قبل النبوة، فعلى اثر

---

(١) فتح الباري جـ ٦ ص ٣٩٤.
(٢) سورة القصص آية ١٥، ١٦.
(٣) ابن كثير، التفسير جـ ٣ ص ٣٨٢.

ذلك الحادث خرج من مصر خائفاً من بطش فرعون وملئه، حينما علم أنهم يأتمرون لقتله، وبعد أن وصل الى مدين، وقضى المدة عند شعيب، ثم سار بأهله عائداً الى مصر، وفي مسيرته تلك تمت بعثته الى فرعون وقومه؛ وعندها قال موسى عليه السلام مخاطباً ربه، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾[1].

وقال له فرعون ذلك أيضاً، يقول الله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾[2]. قوله (من الكافرين) أي... الجاحدين لنعمتنا عليك، فقد قابلت ذلك البر والاحسان منا اليك بفعلتك تلك فقتلت منا رجلاً، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وعبدالرحمن بن زيد بن اسلم واختاره ابن جرير.

وقوله ﴿وأنا من الضالين﴾ أي قبل أن يوحي الي وينعم الله علي بالرسالة والنبوة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وقتادة والضحاك

---

(١) سورة القصص آية ٣٣.

(٢) سورة الشعراء آية ١٨، ٢٠.

وغيرهم ﴿وأنا من الضالين﴾ أي الجاهلين، قال ابن جريج وهو كذلك في قراءة عبدالله بن مسعود رضي الله عنه [١].

وقد صرح القرآن الكريم بأن موسى عليه السلام لجأ إلى ربه فطلب منه العفو والمغفرة من ذلك الذنب الذي ارتكبه، كما بين القرآن أيضاً أن الله عز وجل تجاوز عنه وغفر له ذنبه، بقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي.. فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [٢].

ما ذكر عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم:

يقول تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [٣].

يبين الله عز وجل لعباده، أن سنته المطردة لأنبيائه جميعاً، أن لا يكون لهم أسرى إلا بعد الاكثار من القتل ليذل الكفر وأهله ويقل حزبه، ويعز الاسلام وأهله وقد ذكر المفسرون لهذه

---

(١) ابن كثير التفسير جـ٣ ص ٣٣٢.

(٢) سورة القصص آية ١٦.

(٣) سورة الأنفال آية ٦٧، ٦٨.

الآيات، أنه في غزوة بدر بعد انتهاء المعركة، وانتصار المسلمين على أعدائهم، أسر المسلمون من كفار قريش سبعين أسيراً، وأن الرسول ﷺ استشار أصحابه في أولئك الأسرى ماذا يصنع فيهم؟ وقد أشار بعض الصحابة بقتلهم، وأشار البعض الآخر باستبقائهم لعل الله يهديهم للاسلام، ثم أخذ الفدية منهم ليستعين بها المسلمون على حوائجهم، فكان الأمر موضع اجتهاد منه ﷺ، اذ لم ينزل عليه وحي في ذلك. وهو الرؤوف الرحيم بأمته يرجوا الله أن يهديهم الى دينه وتوحيده.

ولذا فقد أخذ برأي القائلين باستبقائهم وأخذ الفدية منهم، وكان الأولى أن يأخذ برأي القائلين بقتلهم.

فنزل قوله تعالى: ﴿ما كان لنبي... الآية﴾ مؤيداً لرأي القائلين بالقتل، ومؤكداً أن تلك هي سنة الله لجميع أنبيائه مع أعدائهم، وكان الأولى الأخذ بها. ومبيناً أنه لولا حكم منه تعالى سبق اثباته في اللوح المحفوظ، وهو أن لا يعاقب المخطىء في اجتهاده، أو أن لا يعذب قوماً لم يصرح لهم بالنهي، لمسهم فيما أخذوه من الفداء عذاب عظيم. واختار ابن جرير في تفسير قوله (لولا كتاب سبق...) أي لهذه الأمة باحلال الغنائم[1].

---

(١) محمد بن جرير الطبري، التفسير ص ٤٤ جـ ١٠ وابن كثير التفسير ج ٣ ص ٣٢٥، ٣٢٦ وأبو السعود التفسير جـ ٢ ص ٥٠٨، ٥٠٩

بهذا يتبين لنا أنه ﷺ لم يخالف أمراً ولم يرتكب نهياً، وإنما اجتهد فوقع اختياره على خلاف الأولى. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾[1].

صريح في أن الله تعالى عفا عنه عليه الصلاة والسلام ما وقع منه عند استئذان المتخلفين في التخلف عن الغزو معتذرين بعدم استطاعتهم، ومؤكدين ذلك بأيمانهم.

وكان الأولى أن لا يأذن لهم، بل يتوقف ويتأنى حتى ينجلي أمرهم وينكشف حالهم فيعلم الصادق منهم في عذره، ويظهر الكاذب فيما أخبر به عند اعتذاره[2]. وهذا يدل على أن ذلك كان اجتهاداً منه ﷺ اذا لم يأته نص في ذلك فوقع اختياره على خلاف الأولى.

قال قتادة عاتبه كما تسمعون ثم أنزل التي في سورة النور فرخص له في أن يأذن لهم إن شاء فقال تعالى: ﴿فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم﴾ الآية.

---

(١) سورة التوبة آية ٤٣.

(٢) أبو السعود، التفسير ص ٥٥٦ جـ ٢

وقد قال مجاهد: نزلت هذه الآية في أناس قالوا: استأذنوا رسول الله، فإن اذن لكم فاقعدوا وإن لم يأذن لكم فاقعدوا، ولهذا قال تعالى: ﴿حتى يتبين لك الذين صدقوا﴾ في ابداء الأعذار، ﴿وتعلم الكاذبين﴾.

المبحث الرابع: الوحي

مقدمة:

ذكرنا في المبحث السابق، أن النبوة تفضل من الله تعالى ورحمة اختص الله بها من شاء من عباده، ليبشروا من أطاعه واتبع رضوانه بالخيرات، وينذروا من خالف أمره وكذب رسله بالعقاب، فبذلك تقوم الحجة على الناس جميعاً، قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (١).

وذلك الانذار والتبشير، إنما يكون بما يوحيه الله تعالى اليهم. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ (٢).

---

(١) سورة النساء آية ١٦٥.

(٢) سورة الأنبياء آية ٤٥.

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ (١).

ولذلك نرى مع أهل السنة.. أن النبوة ليست مكتسبة، تأتي للشخص نتيجة لمجهوده وعمله، وإنما هي اصطفاء واختيار من الله الحيكم لأناسٍ منحهم الله تعالى موهبة خاصة، وقدرة فائقة يمتازون بها على من سواهم.

ومن هنا نرى أنه لا يسوغ وصف نبي من أنبياء الله ورسله بالعبقرية ولا بنبوغ الشخصية، ولا ما أشبه ذلك من الالقاب التي شاعت على أقلام بعض الكتاب. ذلك أن العبقرية مثلا قد لا تمثل إلا جانباً واحداً من جوانب الحياة، كأن يكون عبقرياً في السياسة، أو في الطب، أو في الهندسة، أو في الكيمياء، اذا استطاع الشخص أن يصل الى الدرجة العالية في هذه المهنة أو في هذا العلم.

أما النبوة فهي صفة شاملة لجميع جوانب الحياة كلها وكيف لا تكون كذلك وهي ممن وهب الوجود وجوده، ولذلك فقد خص الله تعالى رسله وأنبياءه بتلك القدرة على تلقي وحيه الذي وصفه

---

(١) سورة الكهف آية ١١٠.

بالثقل في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[1].

تعريف الوحي لغة:

يقال: وحيت اليه، وأوحيت. ووحي وحياً، اذا كلمه بما يخفيه عن غيره، ومنه، الاشارة، والكتابة، والرسالة، والالهام.

قال أبو اسحاق: وأصل الوحي في اللغة كلها: اعلام في خفاء[2]. وعليه، فالوحي لغة: هو الاعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه اليه بحيث يخفى على غيره.

ومعنى وحي الله إلى أنبيائه متضمن لمعنى الخفاء والسرعة[3].

أما شرعاً فقد عرفوه:

بأنه كلام الله المنزل على أنبيائه.

وعرفه الشيخ محمد عبده في رسالة التوحيد ـ : بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله، بواسطة أو بغير واسطة، والأول بصوت يتمثل لسمعه، أو بغير صوت، ويفرق بينه وبين الالهام بأن الالهام وجدان تستيقنه النفس، وتنساق إلى ما

(١) سورة المزمل آية ٥.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، مادة، وحي.

(٣) محمد رشيد رضا: الوحي المحمدي ص ٣٤، الطبعة الثالثة سنة ١٣٥٤ هـ.

يطلب على غير شعور منها من أين أتى، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش، والحزن والسرور [1].

كيفية الوحي:

أما الكيفية التي يتصل بها هؤلاء الصفوة من عباد الله بالملأ الأعلى فقد بينتها الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [2].

وهو انه تبارك وتعالى، تارة يقذف في روع النبي ﷺ شيئاً لا يتمارى فيه أنه من الله عز وجل، وهو المشار إليه في الآية بقوله: ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً﴾.

النوع الثاني:

أن يسمع النبي ﷺ كلام الله مباشرة من غير أن يراه وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿أو من وراء حجاب﴾ كما حدث في تكليم موسى عليه السلام؛ ومحمد ﷺ ليلة الاسراء والمعراج.

---

(١) الشيخ محمد عبده، رسالة التوحيد ص١٠٨.

(٢) سورة الشورى آية ٥١.

النوع الثالث:

أن يرسل رسولا فيوحي باذنه مايشاء - كما ينزل جبريل عليه السلام بالوحي الى الأنبياء، وقد بين النوع الثالث من أنواع الوحي، وهو الوحي بواسطة الملك حديث عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: (أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني، وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول) قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقاً [١]. فقد بين هذا الحديث صفة ذلك الاتصال الشديد القوي على النفوس البشرية لأحد أنواع الوحي وهو الوحي بواسطة الملك وهو جبريل عليه السلام، ذلك أن الملائكة موصوفون بالشدة والقوة قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾ [٢]. كما بين الحديث أيضاً

---

(١) محمد بن اسماعيل البخاري. صحيح البخاري كتاب بدء الوحي، من فتح الباري جـ ١ ص ١٨ رقم الحديث ٢ وقوله فيفصم - بفتح أوله وكسر المهملة، أي يقلع وينجلي ما يغشاه - يتفصد - من الفصد وهو قطع العرق لاسالة الدم - شبه جبينه بالعرق المفصود مبالغة في كثرة العرق. فتح الباري جـ ١ ص ٢١.

(٢) سورة النجم آية ٥، ٦.

صفة هذا البشر المتلقي لوحي الله صاحب الروح الصافية القابلة لتلك العلوم الملقاة اليها، اذ يفصم عنه وقد وعى عنه ما قال، يقول ابن حجر في فتح الباري:

وفي قولها أي عائشة رضي الله عنها: (في اليوم الشديد البرد) دلالة على كثرة معاناة التعب والكرب عند نزول الوحي، لما فيه من مخالفة العادة وهو كثرة العرق في شدة البرد، فانه يشعر بوجود أمر طارىء زائد على الطباع البشرية [١].

وهناك نوع رابع من أنواع الوحي وهو الرؤيا الصالحة في النوم:

ففي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها، قالت: أول ما بدىء به رسول الله من الوحي، الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح [٢].

فهذه الآية الكريمة دلت على أغلب أنواع الوحي، وهي قوله تعالى: ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً... الخ﴾ الآية.

وهذا الحديث الذي فصل نوعاً من أنواعه، وهو الوحي

(١) ابن حجر العسقلاني. فتح الباري جـ ١ ص ٢١.

(٢) محمد بن اسماعيل البخاري. صحيح البخاري كتاب بدء الوحي من فتح الباري جـ ١ ص ٢٢ رقم الحديث ٣.

بواسطة فَقد بيَّن كيفية الاتصال بين الانسان البشري، وتلك الروح الملائكية التي هي من عالم آخر غير هذا العالم المحسوس، ولكن هل يستبعد وقوع ذلك بحجة أنه أمر غير مشاهد؟؟

الجواب، لا. وكيف يكون ذلك الاستبعاد، وقد أثبت العلم المادي سماع الصوت من مكان بعيد من غير رؤية المتكلم؛ كما في المسرة مثلا.

كما أثبت أيضاً سماع الشخص من يخاطبه ورؤيته له، في حين لا يراه الحاضرون معه في مجلس التخاطب، بل لا يسمعون إلا ازيزاً كدوي النحل كما جاء في بعض صفات الوحي[1].

فمثال الأول: ما نسمعه من الأحاديث التي تحملها الينا موجات الأثير عابرة الوهاد والسهول والبحار دون رؤية ذويها، بل بعد وفاتهم أحياناً.

ومثال النوع الثاني: ما ذكره الدكتور عبدالله دراز في كتابه: النبأ العظيم. بعد وصفه لتلك القوة الغيبية التي تتصل بتلك النفس المحمدية، وأنها قوة خارجية، لأنها لا تتصل بتلك النفس

---

(١) جاء في حديث عائشة تشبيه الرسول لبعض صفات الوحي بصلصلة الجرس، وهذا بالنسبة لمقامه ﷺ، وشبهه عمر رضي الله عنه بدوي النحل بالنسبة الى السامعين، فتح الباري جـ ١ ص ١٩.

المحمدية الا حيناً بعد حين، وهي قوة عالمة، لأنها توحي اليه علماً، يقول ما يأتي:

«فأما الذي يؤمن بالغيب فسيؤمن بهذا الحديث عنه وان لم يره، لأنه رأى أثره، ولأنه يؤمن بمن أخبره. وأما الجاهلون الذين أوتوا قليلا من علم ظاهر الحياة، وظنوا أنهم أحاطوا بكل شيء علماً، فانهم سيكذبون بكل ما لم يحيطوا بعلمه، وسيقولون لك: لعله اضطراب في أعصاب البصر خيل اليه أنه يرى شيئاً من لا شيء، وأنت فاستعذ بالله من عمى القلوب والعيون، وقل: كلا (ما زاغ البصر وما طغى). أو يقولون: لعله اضطراب في قوى الفكر صور له المعاني أشباحاً ماثلة، والأحلام حقائق مجسمة، فابرأ الى الله من هذا الجنون، وقل: كلا (ما كذب الفؤاد ما رأى). نعم لقد عجبوا أن يكون انسان يرى الملائكة عياناً ويكلمهم جهاراً بل عجبوا أن يكون في الدنيا خلق لا يرونه بأعينهم، وصوت لا يسمعونه بآذانهم. فقالوا كيف يرى محمد ما لا نرى ويسمع ما لا نسمع، ولعمري لنحن أحق أن نعجب من هذا العجب؛ فاننا نفهم أنه لوساغ مثله في عصور الجاهلية الأولى، ما كان ليسوغ اليوم وقد ملئت الأرض بالآيات العلمية التي تفسر لعقولنا تلك الحقائق الغيبية.

وان أقرب هذه الآيات الى متناول الجمهور آية الهاتف

(التلفون) فقد أصبح الرجلان يكون أحدهما في أقصى المشرق، والآخر في أقصى المغرب، ثم يتخاطبان وَيتراءيان، من حيث لا يرى الجالسون في مجلس التخاطب شيئاً، ولا يسمعون إلا أزيزاً كدوي النحل الذي في صفة الوحي[1].

فهل يستبعد بعد ذلك امكان الوحي بتلك الصور التي وردت بها النصوص على القدرة الالهية؟

ولكن مثل هذا يقال لمن يؤمن بالله، ويصدق بوجوده وانه على كل شيء قدير.

المبحث الخامس - دلائل صدق النبوة:

لاثبات هذا المطلب مسلكان: **أحدهما** عقلي وذلك بدراسة أحوال الأنبياء قبل بعثتهم.

والآخر نقلي وهو دليل المعجزة:

المسلك الاول

يرى شيخ الاسلام ابن تيمية أنه في الامكان معرفة النبوة من

---

(١) الدكتور عبدالله دراز، النبأ العظيم ص ٨٣، ٧٥، الطبعة الثانية سنة ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م.

غير طريق المعجزة، ذلك أن المقصود هو معرفة صدق مدعي النبوة أو كذبه، فانه اذا قال إني رسول الله، فهذا الكلام لا يخلو، اما ان يكون صدقاً مطابقاً للمخبر به، واما ان يكون كذباً مخالفاً له، فاذا لم يكن مدعي الرسالة صادقاً في دعواه الرسالة، فلا بد ان يكون كاذباً، لأنهما متقابلان بالتناقض فلا بد أن يثبت احدهما، الصدق أو الكذب، فاذا لم يثبت الصدق ثبت أنه كاذب، سواء تعمد الكذب أم كان ضالاً مخطئاً، والتمييز بين الصادق والكاذب له طرق كثيرة فيما هو دون دعوى النبوة، فكيف بدعوى النبوة؟ لأن مدعي النبوة اما ان يكون من افضل الخلق وأكملهم، وإما أن يكون من أنقص الخلق وأرذلهم، وما من احد ادعى النبوة من الكذابين إلا وقد ظهر عليه من الجهل والكذب والفجور واستحواذ الشياطين عليه ما ظهر لمن له أدنى تمييز.

وما من احد ادعى النبوة من الصادقين إلا وقد ظهر عليه من العلم والصدق والبر.. وانواع الخيرات ما يدل على أنه صادق في دعواه عند العقلاء، ذلك ان الرسول لا بد أن يخبر الناس بأمور، ويأمرهم بأخرى، كما أنه لا بد أن يفعل أموراً، فالصادق منهم يظهر في نفس ما يأمر به، وما يخبر عنه، وما يفعله، ما يبين صدقه، ذلك أنه لا يأمر إلا بمعروف كعبادة الله وحده، وبحسن الجوار وصلة الأرحام، والبر باليتامى، والعطف على المساكين، ولا

يخبر الا بصدق، اذ يأتي ما يخبر به مطابقاً للواقع، كما انه لا يفعل إلا خيراً، لا سيما وقد علم الناس جنس ما جاءت به الرسل وما كانوا يدعون إليه ويأمرون به، ولم تزل آثار المرسلين في الأرض، ولم يزل عند الناس من آثار الرسل ما يفرقون به بين الرسل وغيرهم، فلو قدرنا ان رجلا جاء في زمن امكان بعث الرسل، وأمر بالشرك وعبادة الأوثان، واباحة الفواحش، والظلم، والكذب، ولم يأمر بعبادة الله، ولا الايمان باليوم الآخر، هل كان مثل هذا يحتاج أن يطالب بمعجزة، أو يشك عاقل في أنه مدع وكاذب في دعواه انه نبي؟ وأنه يفتري الكذب على الله والناس، فالكاذب يظهر في نفس ما يأمر به، وما يخبر عنه، وما يفعله ما يبين كذبه، ويظهر فجوره[١]. قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ﴾[٢].

فاذا كان مدعي الرسالة معروفاً بالصدق والأمانة، وصحة العقل وسلامة التفكير وحسن السيرة، وكان ذلك في زمان امكان بعث الرسل، أمكن تصديقه.

---

(١) شيخ الاسلام ابن تيمية، شرح العقيدة الأصفهانية من ص ٨٨ بتصرف، طبعة سنة ١٣٨٥ هـ تقديم حسنين مخلوف.

(٢) سورة الشعراء آية ٢٢١ - ٢٢٣.

ومن هنا يمكن القول، بأن العقل يرشد الى صحة النبوة، فبه تعرف دلائلها، وعن طريقه يتم التمييز بين النبي الصادق، والمتنبىء الكاذب.

واذا نظر الباحث في سيرة الأنبياء والرسل لوجد فيها الدليل الواضح على صدقهم فيما يدعون اليه، فقد عرفوا بين أقوامهم بالاستقامة، وصدق القول والأمانة وحسن المعاملة.

وبالمقابل اذا نظر في سيرة المتنبىء وجد ان ما أشارت إليه الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين...﴾ هو دَيْدَنُهم فلا يوجد فيما يأمرون به ويدعون إليه ويفعلونه، إلا الإفك، والإثم، والفجور، فسيرتهم خير شاهد على كذبهم في دعواهم النبوة.

المسلك الثاني: مسلك القرآن في هذا الموضوع: «وهو المسلك النقلي»

الرسل والأنبياء من خيرة أهل زمانهم أخلاقاً وسلوكاً، وأعلاهم نسباً، يقضون فترة حياتهم قبل النبوة على نهج مستقيم لا يؤخذ عليهم في سلوكهم ومعاملاتهم أي مأخذ، إلى أن يأتيهم أمر الله تبارك وتعالى لانقاذ الامة مما حل بها من تدهور وانحراف في العقيدة والاخلاق، فيواجهون أقوامهم بتلك الدعوة الخيرة التي

تأخذ بأيديهم الى سبل الخير والرشاد، من غير ان يطلبوا منهم أجراً على تبليغ ذلك الأمر وتحمل تلك المشقة، فيما يصلح أحوالهم، ولا يريدون مخالفتهم الى ما ينهونهم عنه، وإنما يريدون بذلك الاصلاح، كما قال تعالى على لسان شعيب عليه السلام : ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾ (١).

ويحدثنا القرآن الكريم بأن فريقاً من المدعووين صدق هؤلاء المرسلين فآمن بهم وبدعوتهم وتابعهم فيما يدعونهم إليه، وأن جماعة آخرين كذبوهم ولم يؤمنوا بدعوتهم بل رموهم بالكذب والافتراء.

يقول تعالى: ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ... إلى قوله وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ... ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ (٢).

(١) سورة هود آية ٨٨.

(٢) سورة يس آية ١٣ - ٢٣.

كما بين القرآن الكريم أن الدافع لأولئك المكذبين لرسل الله وأنبيائه هو الكبر والحسد، وليس هو التباس الحق بالباطل في نظرهم، ذلك لأنهم يعرفون رسلهم الذين ارسلوا اليهم فلم تخف عليهم سيرتهم واحوالهم. ولم يكونوا في موضع الاتهام والريبة، يقول تعالى: ﴿أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون﴾.

« أي أنهم لا يعرفون محمداً وصدقه وأمانته وصيانته التي نشأ بها فيهم أفيقدرون على انكار ذلك والمباهتة فيه، ولهذا قال جعفر ابن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي ملك الحبشة: « ايها الملك إن الله بعث فينا رسولا نعرف نسبه وصدقه وأمانته »، وكذلك قال أبو سفيان لملك الروم هرقل حين سأله وأصحابه عن صفات النبي ﷺ ونسبه وصدقه وأمانته، وكانوا بعد كفاراً لم يسلموا، ومع هذا لم يمكنهم إلا الصدق فاعترفوا بذلك[1] وكان مما قاله هرقل: وهكذا الانبياء تبعث في نسب قومها »[2].

لكن حين يتمادى المكذبون للرسل في عنادهم، ويشتد تعنتهم على أنبيائهم فيطلبون منهم الحجج والبينات الدالة على صدقهم فيما يدعونهم إليه، وأن الذي جاءوا به هو من عندالله، نجد اجابة

---

(١) ابن كثير، التفسير. ج ٣ ص ٢٥٠.

(٢) محمد بن اسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب الوحي من فتح الباري ج ١ ص ٣٢.

الرسل لهم على ذلك في الغالب أن تلك الحجج والبينات هي بأمر الله ومشيئته، فان أراد الاتيان بها فهو القادر على ذلك.

أما هم فبشرٌ مثلهم لا يمتازون عليهم إلا بما خصهم الله به من وحيه ورسالته، ومع ذلك فقد اوضح القرآن الكريم أيضاً أن بعض الأنبياء قد يلجئون الى الله تبارك وتعالى، الذي ارسلهم فيطلبون منه أن يمدهم بتلك الآيات، فيمدهم سبحانه ويصدقهم في دعوتهم، ويستشهدون به فيشهد لهم.

يقول تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [1].

وقد امدّ الله جميع انبيائه ورسله بآيات بينات وحجج واضحات، لا يستطيع البشر الاتيان بمثلها ولو كان بعضهم لبعض

---

(١) سورة المائدة آية ١١٢ - ١١٥.

ظهيراً، كفلق البحر بضربة عصا، وقلب العصا حية، واحياء الموتى، وانشقاق القمر، وانزال القرآن.

أيدهم بتلك المعجزات التي لا يقدر عليها إلا الله الخالق، القوي القادر الذي اذا اراد شيئاً قال له كن فيكون.

المعجزة ـ تعريفها:

قال أبو منصور عبدالقادر البغدادي في كتابه أصول الدين: المعجزة في اللغة مأخوذة من العجز الذي هو نقيض القدرة. والمعجز في الحقيقة فاعل العجز في غيره وهو الله تعالى، كما أنه هو المقدر لأنه فاعل القدرة في غيره. وإنما قيل لأعلام الرسل عليهم السلام معجزات لظهور عجز المرسل إليهم عن معارضتهم بأمثالها [1].

ويقول شيخ الاسلام ابن تميمة: «وآيات الأنبياء من فعل الله سبحانه وتعالى يفعلها آية وعلامة لهم على صدقهم كانشقاق القمر، وقلب العصا حية، واخراج يده بيضاء، والاتيان بالقرآن، والاخبار بالغيب الذي يختص الله به، فأمر الآيات الى الله لا إلى

(١) أبو منصور عبدالقاهر البغدادي. أصول الدين ص ١٧٠، الطبعة الاولى سنة ١٣٤٦ هـ - ١٩٢٨ م

اختيار المخلوق، والله يأتي بها بحسب علمه وحكمته وعدله ومشيئته ورحمته [1].

ويقول ابن حزم - في الفصل - موضحاً لبراهين النبوة بعد أن تكلم عن ضرورتها: «واذ قد تكلمنا على انه لا بد من نبوة، وصح ذلك ضرورة، فلنتكلم على براهينها التي يصح بها علم صدق مدعيها اذ وقعت، فنقول: انه قد صح أن الباري تعالى هو فاعل كل شيء ظهر، وأنه قادر على اظهار كل متوهم لم يظهر، وعلمنا بكل ما قدمناه أنه تعالى مرتب هذه الرتب في العالم، ومجريها على طبائعها المعلومة منا، الموجودة عندنا، وأنه لا فاعل في الحقيقة غيره تعالى [2] ثم رأينا خلافاً لهذه الرتب والطبائع قد ظهرت، ووجدنا طبائع قد احيلت، وأشياء في حد الممتنع قد وجبت ووجدت، كصخرة انفلقت عن ناقة، وعصا انقلبت حية، وميت احياه انسان ومئين من الناس رووا وتوضئوا كلهم من ماء يسير في قدح صغير يضيق عن بسط اليد فيه لا مادة له. فعلمنا ان محيل هذه الطبائع، وفاعل هذه المعجزات هو الأول الذي أحدث كل شيء، ووجدنا هذه القوى قد أصحبها الله تعالى رجالاً يدعون إليه ويذكرون انه تعالى أرسلهم الى الناس، ويستشهدون به تعالى،

(١) ابن تيمية، النبوات ص ٢٨٢ سنة ١٣٤٦ هـ.
(٢) أي لهذه الاشياء المخلوقة بطبائعها الموجودة عليها.

فيشهد لهم بهذه المعجزات المحدثة منه تعالى، في حين رغبة هؤلاء القوم إليه فيها، وضراعتهم إليه في تصديقهم بها، فعلمنا علماً ضرورياً لا مجال للشك فيه أنهم مبعوثون من قبله عز وجل، وانهم صادقون فيما أخبروا به عنه تعالى، اذ لا سبيل في طبيعة مخلوق في العالم إلى التحكم على الباري، ولا على طبائع خلقه بمثل هذا، ووجوب النبوة اذ ظهر على مدعيها معجزة من احالة الطبائع المخالفة لما بنى عليه العالم»(١).

ونخلص من هذا الى أن المعجزة في الاصطلاح العرفي:

هي الأمر الخارق للعادة، السالم من المعارضة، المقرون بالتحدي المقصود منه بيان صدق من أدعى أنه رسول الله.

ووجه دلالتها على صدق مدعي الرسالة: انها لما كانت مما يعجز الخلق عن الاتيان بمثلها لم تكن إلا فعلا لله سبحانه وتعالى.

وقد سماها القرآن الكريم، آية، وبينة، وبرهاناً.

قال تعالى: ﴿... وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ

(١) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل ص٥٨، ٥٩ ج١ طبعة سنة ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤م مطبعة محمد علي صبيح بالأزهر بمصر.

أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ ... وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : مخاطباً موسى عليه السلام : ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ (٣) .

ويقص علينا القرآن الكريم تعنت كثير من الامم على أنبيائهم، وطلبهم منهم الآيات الدالة على صدقهم، فقد حكى الله تعالى، عن قوم صالح عليه السلام قولهم : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ (٤) .

وعن قوم هود عليه السلام قولهم : ﴿ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا

---

(١) سورة الرعد آية ٣٨ .

(٢) سورة المائدة آية ٣٢ .

(٣) سورة القصص آية ٣٢ .

(٤) سورة الشعراء آية ١٥٣ ، ١٥٤ .

بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

وعن فرعون قوله لموسى عليه السلام : ﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ (٢) .

أنواع المعجزات:

اقتضت حكمة الله تعالى أن يخص كل رسول بما يثبت صدقه ويؤيد دعوته ، ويقنع من أرسل اليهم بأن الذي جاء به انما هو من عند الله ، وليس من صنعه ، واختراع خياله افتراء على الله وتضليلا لهم .

وقد ورد في القرآن كثير من أنواع تلك الآيات العظيمة الخارقة لمألوف البشر الدالة دلالة صريحة على صدق انبيائه تعالى فيما يدعون اليه . ولما كان القصد من تلك المعجزات انما هو تأييد الرسل واظهار صدقهم فيما يبلغونه عن ربهم فقد اقتضت حكمته تعالى ان تكون تلك الآيات والبراهين من جنس ما برع فيه أهل زمانهم غالباً ليكون عجزهم عنها حجة عليهم ؛ فلما برع قوم موسى عليه السلام في فنون السحر آتاه الله معجزة من هذا الباب ، فجاءهم بما يبهر عقولهم ويخضع رقابهم ، مما جعل السحرة العالمين

(١) سورة هود آية ٥٣ .

(٢) سورة الأعراف آية ١٠٦ .

بفنون السحر يدركون أن ذلك الأمر ليس من جنس السحر، وإنما هو من عند الله، تأييداً لرسوله فأسرعوا الى الايمان بالله، وتصديق رسوله فيما دعاهم إليه، ولم يردهم عن إيمانهم بخالقهم تنكيل فرعون وبطشه بهم. وكذلك كانت معجزة عيسى عليه السلام فقد برع قومه في فنون الطب - كما يرى ابن كثير [1] - فجاءهم بما يجعز عنه الأطباء من ابراء الأكمه وَالأبرص، واحياء الموتى.

وكذلك معجزة خاتم الانبياء محمد ﷺ الخالدة، فلما كان العرب في عهد بعثته قد نبغوا في البلاغة والفصاحة وتفوقوا على غيرهم في صناعة الكلام وضروب البيان كانت معجزته، الكبرى الباقية ما بقيت شريعته (القرآن الكريم).

يقول ابن كثير في البداية والنهاية:

« كانت معجزة كل نبي في زمانه بما يناسب أهل ذلك الزمان،

---

(١) ويعلل ابو زهرة لكون معجزات المسيح من هذا النوع لا لأن أهل زمانه كانوا اطباء، بناء على رأي الفيلسوف المؤرخ الفرنسي « رينان » من أن اليهود ليسوا على علم بالطب - وانما لأن أهل زمانه قد سادهم انكار الروح في اقوال بعضهم وافعال جميعهم، فجاء عليه السلام بمعجزة هي في ذاتها أمر خارق للعادة مصدق لما يأتي به الرسول، وهي اعلان صادق للروح وبرهان قاطع على وجودها » محمد ابو زهرة، محاضرات في النصرانية، الطبعة الثاني سنة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م.

فذكروا أن موسى عليه السلام كانت معجزته بما يناسب أهل زمانه، وكانوا سحرة أذكياء، فبعث بآيات بهرت الأبصار، وخضعت لها الرقاب، ولما كان السحرة خبيرين بفنون السحر وما ينتهي اليه وعاينوا ما عاينوا من الأمر الباهر الهائل الذي لا يمكن صدوره إلا عمن أيده الله، واجرى الخارق على يديه تصديقاً له أسلموا سريعاً، ولم يتلعثموا، وهكذا عيسى ابن مريم بعث في زمن الطبائعية الحكماء، فأرسل بمعجزات لا يستطيعونها ولا يهتدون إليها، وأنى لحكيم ابراء الأكمه الذي هو أسوأ حالا من الأعمى والأبرص والمجذوم، ومن به مرض مزمن، وكيف يتوصل أحد من الخلق إلى أن يقيم الميت من قبره، هذا مما يعلم كل أحد أنه معجزة دالة على صدق من قامت به، وعلى قدرة من أرسله، وهكذا محمد ﷺ وعليهم أجمعين بعث في زمن الفصحاء البلغاء، فأنزل الله عليه القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فلفظه معجز تحدى به الانس والجن أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة، وقطع عليهم بأنهم لا يقدرون لا في الحال ولا في الاستقبال، فلم يفعلوا ولن يفعلوا، وما ذاك إلا لأنه كلام الخالق عز وجل والله تعالى لا يشبهه شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله (١).

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية جـ ٢ ص ٨٤، الطبعة الاولى سنة ١٩٦٦ م ص ٢٠

المعجزة الخالدة:

كانت الرسالات السابقة على رسالة خاتم الأنبياء محمد ﷺ رسالات مؤقتة تحمل طابع الخصوصية، إذ كل نبي كان يبعث الى قومه خاصة، حتى أنه في الزمن الواحد كان يبعث نبيان كل منهما الى قرية أو جماعة، كما في قصة ابراهيم ولوط عليهما السلام؛

وقد انزل الله على أولئك الانبياء كتباً سماوية متضمنة لهداية تلك الأمم في دينهم ودنياهم، ولعلمه سبحانه وتعالى، أن تلك النبوات مؤقتة بزمن، فقد كانت تلك الكتب المنزلة أيضاً تحمل حلولاً مؤقتة بقدر ذلك الزمن، وبما يصلح أحوال تلك الأمة، وما يصل اليه ذلك العصر من تقدم وازدهار، ومما يوضح ان تلك الرسالات تنتهي بزمن ظهور الرسالة العامة للناس جميعاً ما يأتي: -

أولا: أن الله سبحانه وتعالى لم يتكفل بحفظ تلك الكتب السماوية المنزلة على أولئك الانبياء، وانما وكل حفظها الى علمائهم، يقول تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ (١).

---

(١) سورة المائدة آية ٤٤.

وهذا تكليف من الله لهم بحفظ تلك الكتب، والملكف قد يؤدي ما كلف به كاملاً وقد يقصر في أدائه، بل قد يعصي ويخالف ما أمر به، وهذا هو الذي حدث من اولئك المستحفظين، فقد مدوا يد العبث الى تلك الكتب السماوية فحرفوا وبدلوا، كما حدثنا القرآن بذلك.

ثانياً: أن معجزة كل نبي من أولئك الأنبياء عليهم السلام، كانت منفصلة عن صلب منهجه التشريعي، أي عن الكتاب الذي انزل عليه، فهي آية حسية، مما جعلها مقصورة على الطائفة التي شهدت بعثة ذلك الرسول وحضرت زمنه، مثل قلب العصا حية، وإخراج اليد السوداء بيضاء ـ وابراء الأكمه والأبرص، واحياء الموتى.

أما معجزة خاتم الأنبياء، فهي خالدة كخلود رسالته، مشهودة لكل من أتى بعد زمنه، تلك المعجزة هي «القرآن الكريم» الذي تحدى به الانس والجن وقطع بعجزهم عن الاتيان بمثله، أو بسورة من مثله، فكانت معجزته في صلب منهجه، أي في ضمن الكتاب الذي أنزل عليه، ولذا فهي باقية ببقاء ذلك الكتاب المنزل، المشتمل على المعجزة، الذي تعهد الله بحفظه، ولم يكله الى علماء الأمة الاسلامية كما وكل حفظ تلك الكتب السابقة الى علمائها،

فقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[١].

وهذا لا يعني أن الرسول ﷺ لم يعط آية حسية، كما أعطى الأنبياء قبله، فانشقاق القمر، المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾[٢] آية حسية. وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر. وكذلك روى من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: « انشق القمر على عهد النبي ﷺ شقين: فقال: اشهدوا »[٣].

ونبع الماء من بين أصابعه، كما في حديث أنس رضي الله عنه، المتفق عليه قال: « أتى رسول الله ﷺ باناء وهو بالزوراء، فوضع يده في الاناء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه، فتوضأ القوم، قال

---

(١) سورة الحجر آية ٩.

(٢) سورة القمر آية ١، ٢.

(٣) محمد بن اسماعيل البخاري - صحيح البخاري / باب سؤال المشركين أن يريهم النبي (ص) آية، فأراهم انشقاق القمر، فتح الباري ج ٦ ص ٦٣١ رقم حديث عبدالله بن مسعود ٣٦٣٦ وحديث آنس ٣٦٣٧، ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي.

قتادة قلت لأنس: كم كنتم؟ قال: ثلاثمائة، أو زهاء ثلاثمائة»[1].

واشباع العدد الكثير من الطعام القليل:

فقد روى البخاري من حديث أنس بن مالك، يقول أي انس «قال ابو طلحة لأم سليم: لقد سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفاً اعرف فيه الجوع، فهل عندك من شيء؟

قالت: نعم، فأخرجت أقراصاً من شعير، ثم أخرجت خماراً لها فلَفّت الخبز ببعضه، ثم دسته تحت يدي ولاثتني[2] ببعضه، ثم ارسلتني الى رسول الله ﷺ قال: فذهبت به فوجدت رسول الله ﷺ في المسجد ومعه الناس، فقمت عليهم، فقال لي رسول الله ﷺ: آرسلك أبو طلحة؟ فقلت: نعم. قال: بطعام؟ قلت: نعم. قال رسول الله ﷺ لمن معه: قوموا. فانطلق وانطلقت بين ايديهم حتى جئت أبا طلحة فأخبرته، فقال أبو طلحة: يا أم سليم قد جاء رسول الله ﷺ بالناس، وليس عندنا ما نطعمهم.

فقالت: الله ورسوله اعلم. فانطلق أبو طلحة حتى لقي رسول

---

(١) محمد بن اسماعيل البخاري / صحيح البخاري / باب علامة النبوة في الاسلام فتح الباري ج ٦ ص ٥٨٠، رقم الحديث ٣٥٧٢، ومسلم / باب في معجزات النبي (ص) ج ٤ ص ١٧٨٣ ترتيب محمد فؤاد عبدالباقي رقم الحديث ٦.

(٢) أي لفتني به يقال لاث العمامة على رأسه أي عصبها، والمراد أنها لفت بعضه على رأسه وبعضه على أبطه.. فتح الباري ج ٦ ص ٥٨٩.

الله ﷺ فأقبل رسول الله ﷺ وأبو طلحة معه، فقال رسول الله ﷺ: هلمي يا أم سليم ما عندك، فأتت بذلك الخبز، فأمر به رسول الله ﷺ فَفُتّ، وعصرت أم سليم عكة فأدمته، ثم قال رسول الله ﷺ فيه ما شاء الله أن يقول، ثم قال: ائذن لعشرة، فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: ائذن لعشرة فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: ائذن لعشرة، فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا. ثم قال: ائذن لعشرة، فأكل القوم كلهم حتى شبعوا، والقوم سبعون أو ثمانون رجلا »[1].

هذه الآيات الخارقة للعادة كلها آيات حسية وهناك آيات أخرى لا يتسع المقام لذكرها، وقد جاءت على يده ﷺ لا للتحدي بها، وإنما لبيان أن نبوته ﷺ من جنس النبوات السابقة، وإلا فان القرآن الكريم كان ـ بتوجيهاته يصرف الناس عن طلب مثل هذه الآيات ـ لأن سنة الله اقتضت أن مثل تلك الآيات اذا أتى بها ولم يؤمنوا حل عليهم عذاب الاستئصال، كما حل بالأمم السابقة قبلهم[2] والله يريد لهذه الأمة البقاء ولذا نراه

(١) محمد بن اسماعيل البخاري، صحيح البخاري / باب علامات النبوة في الاسلام فتح الباري ج٦ ص٥٨٦، ٥٨٧، رقم الحديث ٣٥٧٨، ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي.

(٢) الا قوم يونس، قال تعالى: ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها ايمانها الا قوم=

يوجههم الى التأمل في هذه الآية المعنوية « القرآن الكريم » وما اشتمل عليه من هداية، وارشاد، تلك الآية التي ستبقى للأجيال بعدهم، اذ أنها آية ما بعدها آية وقد عجزوا عن الإتيان بمثلها، بل بسورة من مثلها.

يقول تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[1].

= يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم الى حين﴾ سورة يونس آية ٩٨.

(١) سورة العنكبوت آية ٥٠، ٥١.

الفصل الخامس

مسلك القرآن الكريم في إثبات البعث

تمهيد :

خلق الله العباد لطاعته، وكلفهم بعبادته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (١) وقد رسم لهم سبيل الخير، كما بين لهم طرق الشر، ولما كانت الطبيعة البشرية فيها الاستعداد لقبول الخير والشر، كما قال تعالى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ (٢) فقد يطغى جانب الشر أحياناً على جانب الخير، استجابة لداعي الشهوة، الموجودة في الطبيعة البشرية، فهي غالباً ما تجمح بصاحبها إلى تعدي الحدود التي يتحتم على المرء ألا يتجاوزها، فيوقع الظلم على الآخرين.

وواقع الحال يبين لنا أن كثيراً ممن ارتكبوا تلك الجرائم في حق

(١) الذاريات: آية ٥٦.

(٢) الشمس: آية ٧ ـ ٨.

غيرهم، وأوقعوا الظلم بالآخرين قد غادروا هذه الحياة الدنيا، ولم ينل المظلوم حقه منهم، مع العلم بأن كل ذلك واقع بعلم الله القوي القادر السميع البصير، الذي يمهل ولا يهمل، والذي حرم الظلم على نفسه وجعله بين العباد محرماً.

ولما كان الظالم والمظلوم قد غادرا هذه الحياة الدنيا. ولم يأخذ المظلوم حقه من ظالمه ولما كانت عدالة الله تعالى تقتضي القصاص وأن يأخذ المظلوم حقه من الظالم كان لا بد من حياة أخرى، غير هذه الحياة، يتم فيها تقاضي الحقوق بين العباد ويقتص فيها للمظلوم من الظالم، هذه الحياة هي التي تكون في الآخرة، حين يبعث الله الناس من قبورهم، ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ (١) ولذا كان من المحتم على المرء الاعتقاد، بوقوعه وتحققه. وهذا أمر يرشد اليه العقل، ويحتمه المنطق، وتدل عليه النصوص الدينية، قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى، أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً

---

(١) المعارج: آية ٤٣.

(٢) المؤمنون: آية ١١٥.

﴿مِن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ، فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ، أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ (١) .

لكن كثيراً من الناس قد ضلوا في هذا الباب، فقصرت عقولهم عن ادراك هذا المعنى فأنكروا البعث بعد الموت، بلا دليل، سوى أنهم استبعدوا وقوعه بعد تفتت الأجساد وتمزقها.

قضية البعث:

ولما كانت قضية البعث والحساب، واعادة الحياة الى الموتى بعد تفتت تلك الأجساد، واختلاطها بأجزاء الأرض، من معضلات العقيدة، شأنها في ذلك شأن قضية الوحدانية، في الغرابة والاستبعاد، وقد اقتضى هذا الاستبعاد تعجب المنكرين للبعث ووقوعه، ممن يقولون به، ويؤمنون بوقوعه قال تعالى مبيناً وموضحاً تعجب هؤلاء المنكرين: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ . أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ (٢) .

لذلك فقد سلك القرآن الكريم لاثباتها مسالك مختلفة في طريقة العرض والاستدلال، فتارة يذكر الشبهة ثم يرد عليها، وأخرى

---

(١) القيامة: آية ٣٦ - ٤٠ .

(٢) ق: آية ١ - ٣ .

يذكر الدليل أولا وبعد استقامته يورد القضية، وحيناً يخبر عن وقوع ذلك البعث والحساب خبراً قاطعاً، مع طي الدليل لوضوحه.

وقد تجلى مسلك القرآن الكريم في عرضه للقضية بأسلوبه الفطري السهل الواضح لأنه خطاب للفطرة البشرية بما هو في متناول ادراكها. وقد عنى القرآن الكريم بقضية البعث عنايته بقضية الوحدانية، فكما تعددت الآيات الدالة على اثبات الوجود الإلهي ووحدانيته، فقد كثرت الآيات التي تقرر البعث. وتؤكد وقوعه.

وأعظم حجة لدى المنكرين للبعث، والأحرى أن نسميها أعظم شبهة لديهم هي: استبعاد اعادة الأجسام بعد تمزقها، وتفتتها، ثم اختلاطها بأجزاء الأرض. اذ تصبح متصورة بصورة التراب، فكيف يمكن اعادتها الى حالتها التي كانت عليها من قبل؟؟

هذا أمر غريب على عقول المنكرين، وعجيب في نفس الوقت عندهم، والحديث عنه خرافة، والمتحدث به، إما مفتر على الله الكذب، وإما مجنون سلب عقله، فخيل له جنونه ذلك الحديث وأجراه على لسانه.

وقد عبر شاعرهم عن ذلك الانكار، مبيناً أن الحديث عنه خرافة بقوله:

حيـــاة ثم مـــوت ثم نشر حديث خرافـة يـا أم عمـرو

أيوعدني ابن كبشه أن سنحيـا   وكيف حياة أصداء وهـام[1]

ويقول الحق جل شأنه، مخبراً عن ذلك الجحود العنيد والانكار الشديد، ونسبتهم الى قائله الجنون، أو الكذب والافتراء على الله:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ . أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ . أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾[2].

فقد عجب كفار قريش من هذا الحديث الذي لم تستوعبه عقولهم، فظنوا أن هذا الايجاد عبث لأن الحديث عن بعث هذه الأجسام لمجازاتها على أعمالها في حياتها الدنيا حديث خرافة، أو حديث كذب وافتراء على الله. أو مس من جنون أصاب قائله، فأجرى على لسانه هذا الحديث العجيب الغريب، ولذا فقد انطلقوا يخاطب بعضهم بعضاً، بهذا القول الذي حكاه الله عنهم، قائلين (هل ندلكم على رجل ينبئكم) أي يحدثكم أو يخبركم بما

---

(١) جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام ص١٢٦ ج٦.

(٢) سبأ: آية ٧ ـ ٩.

تتعجبون منه لغرابته، وهو انكم اذا مزقتم كل ممزق، فتفرقت أجسامكم، واختلطت بأجزاء الأرض، فأصبحتم تراباً، انـكم بعد ذلك كله ﴿لفي خلق جديـد﴾ أي ستخلقـون خلقـاً جـديـداً فتعودون كما كنتم. ثم قالوا بعد ذلك التعجب والاستغراب ان هذا الحديث الصادر من هذا الرجل، ما هو إلا افتراء على الله وكذب عليه، (أفترى على الله كذباً) أو أن قائله مسلوب العقل فجنونه يوهمه ذلك الأمر ويلقيه على لسانه (أم به جنة).

وقد بين الله سبحانه وتعالى، أن الأمر ليس كما ذكروا، فليس الرسول ﷺ مفترياً على الله، كما أنه لم يمسه جنون، وإنما الأمر راجع اليهم هم، فعدم ايمانهم بالآخرة المترتب على عدم الإيمان بقدرة الله، هـو اختلال في العقـل، وغـايـة الضلال عـن الفهـم والادراك، لقدرة الخالق وجلال حكمته.

لا سيما وأدلة القدرة على ذلك مشهودة ومعاينة، ثم ذكرهم بتلك الأدلة فقال: ﴿أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء إن في ذلك لآية﴾ الآية، أي دلالة واضحة على قدرة الله، فكيف يستبعد عليه اعادة تلك الأجسام الضعيفة بعد تفرقها، وهو القادر على خلق هذه الآيات العظيمة، من السماء والأرض، ذلك هو دليل البعث، لأنه يدل على كمال القدرة، ومن المقدور عليه اعادة خلق الانسان وايجاده مرة أخرى، وقد قرن هذا الدليل

بالتهديد حيث قال: ﴿إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء﴾، ثم بين تعالى أن المنتفع بتلك الآيات كل من يرجع الى ربه ويتوب إليه لا من يتمادى في عناده وتعصبه، فقال تعالى: ﴿إن في ذلك لآية لكل عبد منيب﴾.

مسالك القرآن الكريم:

ذكرنا في التمهيد أن القرآن الكريم في معالجته لقضية البعث والجزاء، تارة يعرض شبهة المنكرين ثم يرد عليها، وأخرى يذكر الدليل على البعث أولا وبعد أن يتقرر ويتضح يورد القضية، وحينا يخبر عن وقوع البعث والجزاء خبرا قاطعاً مع طي الدليل لوضوحه.

ولما كان القرآن الكريم قد استوعب عدداً كثيراً من الآيات التي تعالج هذا الموضوع فسنعرض نماذج منها تحت المسالك المشار إليها، إذ لا سبيل إلى استيعاب تلك الآيات كلها في هذا البحث.

المسلك الأول: عرض الشبهة ثم الرد عليها:

أشرنا في التمهيد الى أن أعظم شبهة عند المنكرين للبعث، هي شبهة الاستبعاد، فقد قالوا: كيف يمكن اعادة الأجسام الى حالتها الطبيعية التي كانت عليها، بعد أن صارت تراباً؟؟ ذلك أمر غير معقول عندهم.

وفي النموذج التالي عرض لهذه الشبهة، وبيان لانكارهم

وتعجبهم ممن يؤمنون بالبعث، ثم دحض لتلك الشبهة، وبيان لزيفها بالأدلة الواضحة البينة المشهودة.

يقول الله تعالى حاكياً عن المشركين استبعادهم وقوع البعث بعد الموت وعدم امكانه وتعجبهم من شأنه وشأن القائل به.

﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾.

﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾.

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾[1].

يقسم تبارك وتعالى بالقرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والذي هو تنزيل من حكيم حميد، وجواب القسم هو مضمون الكلام الآتي بعد القسم، وهو اثبات النبوة، واثبات المعاد وتقريره وتحقيقه[2]، ثم يحكي تعجب المشركين من أن يأتيهم منذر منهم، أي بشر من جنسهم، ولم لا يكون من جنس آخر كالملائكة مثلا؟

ثم يتبع ذلك بما هو أعجب عندهم من دعوى النبوة، وهو اخبار الرسول لهم، بأن بعد هذه الحياة الدنيا، حياة أخرى، وهي بعثهم من قبورهم أحياء، مرة ثانية، للحساب والجزاء على الأعمال

(١) ق: آية ١ ـ ٣.
(٢) ابن كثير، التفسير ج ٤ ص ٢٢١.

الكائنة منهم في تلك الحياة الماضية، اذ كيف يمكن وقوع ذلك الحساب بعد ما تمزقت الأجسام وتفرقت بحيث أصبحت تراباً؟؟

ان القول برجعة تلك الأجسام مرة أخرى أمر مستبعد، ومستحيل في اعتقادهم، ﴿أإذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد﴾.

لكن هذه الاستحالة وذلك الاستبعاد الذي يعبرون عنه بالنسبة لمن؟؟

هل يكون بالنسبة للقدرة الإلهية التي إذا أرادت الشيء قالت له كن فيكون في نفس اللحظة من غير توقف على شيء آخر أصلاً؟؟

أو يكون بالنسبة لقُدَرهم العاجزة؟؟

الواقع أنهم يعبرون بذلك عن أنفسهم، ويستبعدون البعث ووقوعه ظناً منهم أن قدرة الله تشبه قدرتهم، فقاسوا قدرة الله على قدرتهم وقياس الغائب على الشاهد باطل في نظر العقلاء، ولذلك صور الله عز وجل هذا الظن الخاطىء في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾[1].

ولذا فقد استعظمت عقولهم هذا الأمر وجعلته في حكم المستحيل، وإلا فلو نظروا بغير هذه النظرة القاصرة، وتأملوا في أنفسهم في مبدأ خلقهم، وفيما بين أيديهم من الآيات الدالة على القدرة الإلٓهية

---

(١) يس: آية ٧٨.

التي لا يعجزها شيء متى ما أرادته لما صدر منهم هذا القول المنكر.

وبعد ذكره تعالى للشبهة التي يتكئون عليها يبدأ في الرد عليهم فيقول:

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾.

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾.

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾.

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾.

﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾.

﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾.

﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾[1].

فنراه تبارك وتعالى يحشد في هذه الآيات عدداً من الأدلة، المعنوية منها والحسية المشاهدة، التي تخاطب العقل وتستثير الوجدان.

(١) ق: الآيات ٤ ـ ١١.

أ ـ الأدلة المعنوية (العقلية):

بين سبحانه وتعالى في الآية الأولى، أنه لا مكان لهذا الجحد، ولا وجه لذلك الاستبعاد، فاعادة الأجسام الى ما كانت عليه أولا، بعد تمزقها واختلاطها بأجزاء الأرض من الأمور اليسيرة على القدرة الإلّهية، ذلك أن اعادة الشيء المتفرق أجزاء، أو المستحيل عن صورته الى صورة أخرى، كتحول الجسم البشري إلى صورة التراب مثلاً، يتوقف على أمرين.

أحدهما: العلم بتلك الأجزاء المتفرقة، أو بتلك الصور المستحيلة عن صورتها الأصلية.

ثانيها: القدرة على اعادة تلك الأجزاء ـ أو تلك الصورة الى حالتها السابقة وقد أوضحت الآية الكريمة أن علم الله شامل ومحيط، فهو تعالى يعلم أين ذهبت تلك الأجزاء وكيف تفرقت فقد عم علمه جميع الكائنات صغيرها وكبيرها حتى انتهى الى حيث علم ما تنقص الأرض من أجساد الموتى وتأكل من لحومهم وعظامهم، فاذا كان ذلك معلوماً لله تعالى، ومكتوباً ومحفوظاً، كما قال تعالى ﴿قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ﴾ فكيف يستبعد عليه اعادتهم بعد حالتهم تلك أحياء كما كانوا؟!

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: ما بين النفختين أربعون، قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يوماً؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيت. ويبلى كل شيء من الانسان إلا عجب ذنبه فيه يركب الخلق[1].

فدل الحديث على نقص جسم الإنسان وتحلله، وذهابه في الأرض، إلا ذلك الجزء وهو عجب الذنب، الذي قيل أنه كحبة الخردل[2]، وفيه يركب الانسان، فيبقى بعينه، والحديث على

(١) محمد بن اسماعيل البخاري، صحيح البخاري كتاب التفسير باب: ونفخ في الصور... رقم الحديث ٤٨١٤ من فتح الباري ج ٨ ص ٥٥١.
وقول أبي هريرة «أبيت» معناه أبيت أن أجزم بأن المراد أربعون يوماً... الخ بل الذي أجزم به أنها أربعون مجملة. وذلك الذي سمعت.
وقد روى هذا الحديث الامام مسلم في صحيحه في / كتاب الفتن / باب ٢٨ ما بين النفختين / رقم الحديث ١٤١ ج ٤ ص ٢٢٧، ترقيم عبدالباقي، وفيه «ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل» وبهذه الزيادة رواه البخاري أيضاً في كتاب التفسير / باب يوم ينفخ في الصور - ج ٨ ص ٦٨٩ في فتح الباري رقم الحديث ٤٩٣٥.

(٢) جاء ذلك في حديث أبي سعيد عند الحاكم وأبى يعلى، قيل يا رسول الله ما عجب الذنب؟ قال: مثل حبة خردل والعجب، بفتح المهملة وسكون الجيم بعدها موحدة ويقال له «عجم» بالميم أيضاً عوض الباء. وهو عظم لطيف في أصل الصلب، وهو رأس العصعص، وهو مكان رأس الذنب من ذوات الأربع، فتح الباري ج ٨ ص ٥٥٢.

ظاهره عند جمهور العلماء. وقد خالف المزني فقال: إنّ «إلا» بمعنى الواو، أي وعجب الذنب أيضاً يبلي. ورد. قوله هذا بما جاء مصرحاً به في رواية مسلم من أن الأرض لا تأكله أبداً. ونص الرواية في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إنّ في الانسان عظماً لا تأكله الأرض أبداً فيه يركب يوم القيامة» قالوا: أي عظم هو؟ يا رسول الله قال: «عجب الذنب»[1].

ذاك دليل العلم.

أما دليل القدرة على الاعادة، فقد بينته الآيات التالية لهذه الآية، وهي الآيات المشتملة على الأدلة الحسية المشاهدة، كخلق السماء، والأرض، فالقادر على خلقهما مع عظمهما، قادر على اعادة الانسان الضعيف من باب أولى، ثم ان الاعادة للمعدوم الممكن، من الأمور الممكنة عقلاً.

فالعقل لا يمنع من أن من قدر على ايجاد الشيء أولاً، قادر على اعادته بعد عدمه، ثانياً فإن ذلك من الأمور الممكنة التي لا يستطيع العقل السليم انكارها.

---

(١) مسلم: صحيح مسلم / كتاب الفتن وأشراط الساعة / باب ما بين النفختين / رقم الحديث ١٤٣ ج ٤ ص ٢٢٧١ ترقيم عبدالباقي.

وبعد أن بين الله لهم شمول علمه واحاطته بالجزئيات والكليات إذ أن العالم بجزئيات الأشياء لا تخفى عليه كلياتها. بين لهم سبب اضطرابهم في أمر البعث، وأنه تكذيبهم للحق الذي جاءهم من خالقهم، إذ الاخبار عنه حق، والمخبر به صادق قال تعالى ﴿بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج﴾ أي مضطرب غير مستقر.

ب ـ الأدلة الحسية:

وبعد ذكره تعالى، لشمول علمه واحطاتـه، ثم بيـانـه لسبـب اضطرابهم في أمر البعث.

اتجه الى نوع آخر من الأدلة، وهي الأدلة الحسية المشاهدة، الدالة على كمال قدرته سبحانه وتعالى، فقال تعالى منكراً عليهم عدم اعتبارهم بهذه الأدلة المشهودة على القدرة الإلّهية، ﴿أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج﴾ فهذه السماء التي يدرجون تحتها أفلا ينظرون الى ابداعها وحسنها، واحكام بنائها، وما زينت به من كواكب ثابتة وسيارة، ألم يأخذوا منها دليلا على القدرة المبدعة التي لا يعجزها شيء.

وهذه الأرض التي يسعون عليها، أفلا ينظرون إليها، كيف مدت لهم وأرسيت بالجبال لئلا تضطرب بهم، وما أنبتنا فيها من

الأنـواع المختلفـة الطعـوم والأشكـال رزقـاً للعبـاد قـال تعـالى ﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج﴾ ثم بين تعالى أن هذه الآيات الكونية جميعها أوجدها تبارك وتعالى ﴿تبصرة وذكـرى﴾ أي تبصيراً وتـذكيراً (لكـل عبـد منيب) راجع الى ربه متفكر في بدائع صنعه.

ثم تابع الأدلة الحسية على البعث، فضرب لهم مثلا باحياء الأرض بعد موتها فقال: ﴿ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد. والنخل باسقات لها طلع نضيد. رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج﴾.

فهذا مثل ضربه الله لمنكري البعث بما يشاهدونه من حال الأرض قبل نزول المطر عليها وهي جدباء مقفرة، فحين ينزل عليها الماء تهتز وتربو فتنبت من كل زوج بهيج أي حسن المنظر، وذلك بعد ما كانت يـابسـة لا نبـات فيهـا، فـأصبحـت تهتـز خضراء [1].

فهذا مثال للبعث والاحياء بعد الموت والهلاك، ولذلك يقول جل شأنه (كذلك الخروج) يقول جل شأنه أي مثل ذلك الاخراج للنبات من الأرض، يحيي الله الموتى فيخرجهم من قبورهم أحياء للحساب والثواب والعقاب.

---

(١) ابن كثير، التفسير ٤ ص ٢٢٢.

فهذا المشاهد بالاحساس من آثار قدرته تعالى أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث كخلق السماء والأرض قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[1] واحياء الأرض بعد موتها كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

وكما رأينا في هذا العرض لبراهين القرآن الكريم على إثبات البعث، تلك البراهين التي لا تدع مجالاً للشك عند العقل الفطري السليم في إمكان وقوعه وعدم استبعاده.

فبالمقابل، ليست لدى المنكرين لوقوعه، حجة يستندون اليها في انكارهم إلا الاستبعاد المستند إلى الوهم والظن، كما قال تعالى ﴿وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً﴾[3] إذ ليس هناك علم يقيني بامتناع البعث بعد الموت وعدم إمكانه، وإنما هناك ظن ووهم ناتج عن تكذيبهم بالحق الذي جاءهم من الله تبارك وتعالى، فالله هو الحق وقوله الحق، وليس بعد الحق إلا الضلال المبين، ولذلك فان المكذب بالحق مضطرب ليس لديه

---

(١) الأحقاف: آية ٣٣.

(٢) فصلت: آية ٣٩.

(٣) الجن: آية ٧.

أساس متين يستند إليه قال تعالى ﴿بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج﴾ أي مضطرب غير مستقر.

النموذج الثاني ـ من المسلك الأول:

وقد أوضحت الآيات التالية من سورة، يس، ذلك الإنكار الشديد المستند إلى شبهة استبعاد الأجساد إلى حالتها الأولى بعد أن أصبحت عظاماً رمياً تذروها الرياح.

يقول تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾.

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾.

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1].

---

(١) يس: الآيات من ٧٧ ـ ٨٣.

سبب نزول الآيات:

ذكر المفسرون لهذه الآيات، أن أبي بن خلف أتى إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم يفته ويذروه في الهواء، وهو يقول: يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا؟؟ فقال رسول الله: «نعم يميتك الله تعالى، ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار. فنزلت الآيات من آخر سورة يس.

وفي رواية أن العاص بن وائل السهمي، أتى إلى رسول الله ﷺ بعظم حائل ففته بين يديه، فقال: يا محمد أيبعث الله هذا حياً بعد ما أرم؟؟

قال: نعم يبعث الله هذا، ثم يميتك ثم يحييك، ثم يدخلك نار جهنم» فنزلت الآيات[1] فقد تبين لنا من أسباب النزول اعتراض بعض المشركين على الرسول ﷺ في تقريره البعث، وقد أكدوا انكارهم ذلك بما ضربوه من المثل لله تعالى، فكان ضرورياً أن يرد عليهم انكارهم، وأن يبطل لهم مثلهم، والآيات وان كان سبب نزولها خاصاً، فهي عامة في كل منكر للبعث، لما هو مقرر في الأصول من أن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب،

(١) محمد بن جرير الطبري، التفسير ج ٢٢ ص ٣٠، الطبعة الثانية سنة ١٣٧٣ هـ وابن كثير التفسير ج ٣ ص ٥٨١ ١٩٥٤، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

والألف واللام في قوله ﴿أو لم ير الإنسان﴾ للجنس فيعم كل منكر.

بينت الآيات أن استبعاد الاعادة للأجسام بعد الموت آت من انسان لم ينظر في مبدأ خلقه أولا، إذ لو نظر في نشأته الأولى نظر تبصر واعتبار، لكفاه، خلقه من نطفة، ضعيفـة حقيرة، دليلاً على اعادته بعد موته، فنسيانه لمبدأ خلقه من تلك النطفة هو الذي دعاه لهذا الإنكار، ثم ضربه المثل لله القادر، بقدرة الإنسان العاجز ﴿أَوَلَم يرَ الإنسان﴾ نشأته، أي ألم يعلم ﴿أنا خلقناه﴾ أي ابتدأنا خلقـه وإيجاده ﴿من نطفة﴾ من مني يمنى وما أضعف النطفة وأعجزها ﴿فاذا هو﴾ بعد العجز والضعف انسان قوي ناطق ﴿خصيم مبين﴾ أي بعد تلك الأطوار الضعيفة أصبح يخاصم ويجادل أبين جدال وأبلغ خصام؛ ومن ذلك خصامه وجداله في أمر البعث والجزاء، ينكر قدرة خالقة الذي أنشأه أول مرة، ويدعي عدم قدرته على اعادته ثانياً، ﴿وضرب لنا مثلاً﴾ أي صفة غريبة عجيبة يعارض بها قدرتنا الثابتة بالدليل القاطع على اعادته، فجعل لنا مثلاً ونظيراً من الخلق وقاس قدرتنا على قدرتهم ثم بين تعالى، أن سبب ذلك هو ذهوله وعدم التفاته إلى خلقه الأول فقال: ﴿ونسي خلقه﴾ وكان من حقه ألا ينسى فيستدل به على امكان عوده كما بدأه، ولو تأمل في ذلك لعلم أن القدرة التي سوته أولاً لا يعجزها بأي حال اعادته ثانياً بعد أن صار كما يرى عظماً رمياً

مفتتاً، وأن تلك الرجعة ليست بعيدة على القوى القادرة، وقد قدم قوله ﴿ونسي خلقه﴾ على ضرب مثله تنبيهاً على جهله وغبائه وغفلته، عما في نفسه وبين يديه من الأدلة، وماذا قال في مثله الذي يعتمد عليه في تأييد دعواه؟؟ (قال: من يحي العظام وهي رميم) بالية مفتتة. فقد أتى ذلك المنكر للبعث المستبعد لوقوعه إلى النبي ﷺ آخذاً بيده عظماً رمياً يفته ويذروه في الهواء، قائلاً للنبي ﷺ: أترى يحي الله هذا العظم بعد ما أرم؟؟ فقال النبي ﷺ: نعم ويدخلك النار. وقد دفع سبحانه وتعالى هذه الشبهة بقوله ﴿قل﴾ أمر للنبي ﷺ أي ذكِّر هذا الناسي لفطرته الدالة على حقيقة الأمر وكمال القدرة ﴿يحييها﴾ أي يخلق الحياة فيها ﴿الذي أنشأها﴾ أوجدها من العدم ﴿أول مرة﴾ في بدء الخلق والنشأة، فهو الذي أنشأ هذا العظم الذي تفته بيدك من نطفة ماء ـ لا عظم فيه، فالقادر على انشائه أولا، ثم احلال الحياة فيه لا يعجزه اعادته مرة أخرى، كما قال تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه...﴾

يقول الفخر الرازي: (ومنهم ـ أي المنكرين ـ من ذكر شبهة وان كانت في آخرها تعود إلى مجرد الاستبعاد وهي على وجهين أحدهما أنه بعد العدم لم يبق شيئاً فكيف يصح على العدم الحكم بالوجود؟ (وثانيها) أن من تفرقت أجزاؤه في مشارق العالم ومغاربه وصار بعضه في أبدان السباع وبعضه في جدران الرباع

كيف يجمع؟ بل لو أكل انسان انساناً آخر فكيف الاعادة؟ وقد رد على الشبهة الأولى بقوله ﴿قل يحييها الذي أنشأها أول مرة﴾ يعني كما خلق الإنسان ولم يكن شيئاً مذكوراً، كذلك يعيده وإن لم يبق شيئاً مذكورا.

أما الشبهة الثانية فقد أبطلها بقوله ﴿وهو بكل خلق عليم﴾ ثم ذكر الأجزاء الأصلية في الإنسان، والأجزاء الفضلية، والله عالم بكل ذلك فهو يعيد كل جزء إلى صاحبه ثم يعيد فيه الحياة)[1].

فعلم الله شامل بتفاصيل كيفيات الخلق والايجاد ـ انشاء واعادة محيط بجميع الأجزاء المتفتتة المتبددة لكل شخص من الأشخاص أصولها وفروعها، كما قال تعالى: ﴿قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ﴾ قادر على اعادتها على النمط السابق الذي كانت عليه كما قال تعالى: ﴿بلى قادرين على أن نسوي بنانه﴾ والبنان أدق شيء في الانسان وأصغره.

ثم أتبع ذلك بالأدلة المحسوسة الدالة على كمال القدرة الالهية مبيناً لهم أنه لا وجه لهذا الاستبعاد، إذ كيف يكون ذلك وبين أيديهم من الآيات الكونية الدالة على أن الخالق لا يعجزه شيء ما يكفيهم لو نظروا فيه بعين البصيرة والتأمل.

---

(١) الفخر الرازي. التفسير الكبير ج ٢٦ ص ١٠٩ الطبعة الثانية: الناشر دار الكتب العلمية طهران.

فقال تعالى ﴿الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون﴾..

فهذه آية عظيمة دالة على كمال القدرة الالهية التي توجد الضد من ضده فهذا الشجر الغض الذي يقطر ماء، أحدث منه الخالق القادر هذه النار المضادة له، وهذا أمر أعجب وأغرب من اعادة الغضاضة إلى ما كان غضاً فطرأت عليه اليبوسة والبلى.

كما أن هذه الآية متضمنة للرد على شبهة يوردها المنكر لاعادة الحياة بعد الموت ذلك أن الموت بارد يابس، والحياة طبعها الرطوبة والحرارة، فاذا حل الموت لم يكن أن تحل فيه الحياة بعد ذلك لما بينها من التضاد.

والحقيقة أن الشبهة واهية وغير واردة على موضوع البعث أصلاً، ذلك أن الممتنع هو الجمع بين الضدين في آن واحد، أي بأن يكون الجسم حياً وميتاً في وقت واحد والبعث بعد الموت ليس من هذا الباب. لأنه حياة بعد موت، لا مع موت، فحين ما حل بالجسم الموت ارتفعت الحياة فبقي ميتاً إلى حين وقت البعث، فلما عادت اليه الحياة مرة ثانية ارتفع الموت فليس هناك جمع بين ضدين.

وقد تابع أدلة الرد على المنكرين للبعث والحساب منكراً على الانسان استبعاد وقوع البعث الجسماني وامكانه قائلاً: (أو ليس

الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم) ومتى قدر على ذلك فهو قادر على اعادة أعيانهم ـ ولو اتجه الانسان مع فطرته الصحيحة التي فطره الله عليها، لأجاب بقوله (بلى) أي هو قادر على ذلك لأن هذه الاجابة هي مقتضى ما يعترفون به ولا ينكرونه ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [1].

ولأنه تعالى ﴿هو الخلاق العليم﴾ أي كثير الخلق، وكثرة الخلق ناشيء عن كمال القدرة، وهو (العليم) الذي لا يخفى عليه شيء، فعلمه شامل بجزئيات الأشياء وكلياتها، كما قال تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [2].

وقال تعالى ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [3].

ثم دل على كمال قدرته ونفاذ مشيئته فقال (إنما أمره) أي شأنه، (إذا أراد شيئاً من الأشياء (أن يقول له كن فيكون) أي فيحدث ما أراده من غير توقف على شيء آخر فكيف يصعب على

(١) العنكبوت: آية ٦١.
(٢) سبأ: آية ٣.
(٣) الأعراف: آية ٧.

من هذه قدرته اعادة هذا الانسان بعد بلاه وتمزقه.

روى البخاري في صحيحه عن أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه ذكر رجلاً فيمن سلف أو فيمن كان قبلكم ـ قال كلمة[1] يعني أعطاه الله مالاً وولداً، فلما حضرت الوفاة قال لبنيه: أيّ أبٍ كنت لكم؟ قالوا: خير أب. قال: فانه لا يبتئر[2] ـ أو لم يبتئر عند الله خيراً وان يقدر الله عليه يعذبه، فانظروا اذا مت فأحرقوني حتى اذا صرت فحماً فاسحقوني ـ أو قال فاسحكوني ـ فإذا كان يوم ريح عاصف فاذورني فيها. فقال نبي الله ﷺ: فأخذ مواثيقهم على ذلك وربي، ففعلوا ثم أذروه في يوم عاصف، فقال الله عز وجل، كن. فإذا هو رجل قائم. قال الله: أي عبدي ما حملك على أن فعلت ما فعلت؟ قال: مخافتك ـ أو فرق منك ـ قال: فما تلافاه أن رحمه عندها، وقال مرة أخرى: فما تلافاه غيرها فحدثت به أبا عثمان فقال: سمعت هذا من سلمان غير أنه زاد فيه: أذروني في البحر أو كما حدث»[3].

(١) قوله قال كلمة ـ فسرها بقوله أعطاه الله مالاً وولداً أي الكلمة التي قالها قبل ذكر القصة.

(٢) لم يبتئر ـ فسره قتاده لم يدخر.

(٣) محمد بن اسماعيل البخاري: صحيح البخاري، كتاب التوحيد/باب ٣٥ قول الله تعالى ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾ من فتح الباري ج ١٣ ص ٤٦٦ ـ ٤٦٧ رقم الحديث ٧٥٠٨. ورواه في كتاب الرقاق/باب ٢٥ الخوف من =

فقد دل هذا الحديث على كمال القدرة التي لا يعجزها شيء فكل ما اراده الله عز وجل متوقف على قوله له (كن) فاذا هو كائن كما أراد.

وقد أورد ابن كثير في تفسير قوله تعالى ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ حديثاً رواه الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال « إن الله تعالى يقول يا عبادي كلكم مذنب إلا من عافيت فاستغفروني أغفر لكم، وكلكم فقير إلا من أغنيت، اني جواد ماجد واجد أفعل ما أشاء عطائي كلام وعذابي كلام إذا أردت شيئاً فإنما أقول له كن فيكون »[1] ثم نزه نفسه عما ينسبه اليه الكافرون من العجز فقال ﴿فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء واليه ترجعون﴾ فبيده مقاليد السموات والأرض واليه يرجع الأمر كله، واليه ترجع العباد في يوم المعاد فيجازي كل عامل بعمله.

= الله/من فتح الباري ج ١١ ص ٣١٢، ٣١٣ رقم الحديث ٦٤٨١. ورواه مسلم في كتاب التوبة/باب ٤ في « سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه. رقم الحديث ٢٥. ورواه الإمام أحمد في السند ج ٥ ص ٢٦٩.

(١) ابن كثير التفسير ج ٣ ص ٥٨٢.

النموذج الثالث ـ من المسلك الأول:

وفي سورة الاسراء يذكر الله عز وجل تلك المحاورة بين منكري البعث والرسول ﷺ فيقول تعالى:

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا. قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا﴾.

﴿أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا﴾.

﴿يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[1].

فقد حكى شبهة منكري البعث في الآية الأولى، تلك الشبهة هي استبعاد وقوع المعاد فإن عقولهم لم تتصور إمكان الاعادة ووقوعها، بعد تمزق الأجساد وتفرقها، وقد بين لهم عز وجل أنه لا مكان لهذا الاستبعاد، ولا مجال له مع القدرة الالهية، ولهذا وبّخهم بهذا الأسلوب التعجيزي، فأمر نبيه ﷺ، أن يجيبهم بقوله: (قل) يا محمد مجيباً هؤلاء المنكرين لقدرتنا، على اعادة أجسامهم الضعيفة إلى حالتها الأولى التي أوجدناها عليها، (كونوا حجارة أو حديداً) أو أي نوع يعظم عندكم عن قبول الحياة، لكمال

(١) الاسراء: آية ٤٩ ـ ٥٢.

المباينة، والمنافاة بينهما وبينه، فانكم مبعوثون ومعادون للمجازاة على أعمالكم لا محالة ولكنهم بعدما سمعوا أمعنوا في جحودهم فقالوا: إذا كنا كذلك من حجارة أو حديد، (من يعيدنا)؟ فجاءهم الجواب بما هو مسلم عندهم لو عقلوا (قل الذي فطركم أول مرة). أي هو الذي أنشأكم أولاً، ولم تكونوا شيئاً مذكوراً، هو القادر على اعادتكم ثانياً، وأنتم تعترفون بأنه خالقكم، ومنشئكم ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ..﴾ (١) فكيف تستبعد عليه الاعادة؟؟

غير أنهم لم يعيروا هذا الدليل اهتماماً، ولذا فهم يحركون رؤسهم استهزاء وسخرية قائلين استبعاداً لوقوعه (متى هو؟) أي متى سيكون هذا الأمر الغريب الذي تعدنا به فبين لهم سبحانه أنه قريب، ذلك لأنه آت، وكل آت قريب، ﴿قل عسى أن يكون قريباً﴾ وذلك يوم يدعو الله الخلائق فيستجيبون لتلك الدعوة. قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ (٢) أي إذا أمركم بالخروج منها، فانه لا يخالف أمره ولا يمانع، (وتظنون ان لبثتم إلا قليلا) حين ترون ما وعدتم به، كقوله تعالى ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ (٣) ومثل هذه الآيات في السورة

(١) الزخرف: آية ٨٧.
(٢) الروم: آية ٢٥.
(٣) النازعات: آية ٤٦.

نفسها قوله تعالى: ﴿... وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا. ذَلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا: أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا. أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾[1].

فقد أخبر تعالى في الآية الأولى عن حشر المنكرين للبعث على أقبح صورة جزاء لهم على كفرهم به تعالى، وانكارهم لآياته وتكذيبهم لأنبيائه، ولما استعظموا اعادتهم خلقاً جديداً بعد أن صاروا رفاتا، أي مفتتة أجسادهم، اجابهم بما يقرون به وهو خلق السموات والأرض وهي أعظم من خلقهم، فالقادر على ايجادها قادر على اعادتهم من باب أولى، إذ القادر على خلق الأكبر، لا يعجزه خلق أو ايجاد ما هو أصغر منه في بدائه العقول ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾[2] فقال ﴿أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم...﴾ ومتى قدر على خلق مثلهم فهو قادر على اعادة أعيانهم، كما قال تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ...﴾[3].

---

(١) الاسراء: آية ٩٧ - ٩٩.
(٢) غافر: آية ٥٧.
(٣) الروم: آية ٢٧.

المسلك الثاني: تقديم الدليل، ثم ايراد القضية بعد استقامته ووضوحه:

النموذج الأول:

يقول الله تعالى، من سورة المؤمنون: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ. ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ. ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾[1].

في هذه الآيات قدم الله سبحانه وتعالى، الاستدلال على امكان البعث والجزاء يوم القيامة، بخلق الإنسان في أطواره المتعددة حيث خلقه من طين، والمراد به آدم عليه السلام، ثم جعل نسله، أي ولده من بعده من ماء مهين، كما قال تعالى في سورة السجدة: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ. ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾[2].

وقيل المراد بالانسان، الجنس في ضمن خلق آدم.

---

(١) المؤمنون: آية ١٢ ـ ١٦.

(٢) السجدة: آية ٧ ـ ٨.

ثم شرع يبين تلك الأطوار المتعددة التي مر بها خلق الإنسان إلى أن أصبح بشراً سوياً، عاقلاً ناطقاً، فقال (ثم جعلناه نطفة) ماء، وهو المني المهين أي الممتهن (في قرار مكين) أي مستقر وهو الرحم، ثم بين تحول هذه النطفة من حالة إلى أخرى خلقها علقة، أي دماً جامداً، ثم خلق العلقة مضغة لحم لا تمايز فيها، ثم خلق تلك المضغة عظاماً. بأن جعلها عموداً للبدن على هيئات وأوضاع مخصوصة تقتضيها الحكمة الالهية، ثم كسوة تلك العظام على مقدار ما يناسب كل عضو، ويليق بهيئته حتى يكون خلق الانسان في أحسن تقويم وأجمله، كل ذلك التحول من حالة إلى أخرى يتم في ذلك المكان المظلم الضيق، بقدرة العليم الحكيم ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ..﴾[1].

ثم تحويله إلى خلق آخر مباين للخلق الأول، مباينة ما أبعدها، فقد أصبح إنساناً حياً، سميعاً بصيراً، متكلماً، عاقلاً، بعدما كان جماداً، نقلة هائلة بين النطفة الضعيفة الميتة، وبين الإنسان الحي الناطق، فلا علاقة عقلية، ولا تلازم بينهما اللهم إلا القدرة الالهية، التي تقول للشيء كن فيكون؟ ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾[2].

---

(١) الزمر: آية ٦.

(٢) الروم: آية ١٩.

ولما كانت هذه الأطوار لخلق الإنسان، من أعظم الدلائل على القدرة الالهية والحكمة الربانية، فقد أثنى سبحانه وتعالى على نفسه بقوله ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾.

هكذا يعرض الله تبارك وتعالى، هذا الدليل على المخاطبين، بحيث لا يمكنهم انكاره لأنه من مشاهداتهم، فمن منهم لا يعرف عن كيفية خلق الإنسان شيئاً، كل واحد منهم يعلم من نفسه أنه وجد على هذه الأطوار التي ذكرها القرآن الكريم، كما يعلم ذلك عن طريق مشاهداته، لوجود أبنائه، وأبناء جنسه.

وهكذا بعد أن اتضح الدليل واستقر، وهو أنه تعالى، قادر على الانشاء والايجاد من العدم، أورد قضية البعث بعد الموت في يوم القيامة، فقال: ﴿ثم انكم بعد ذلك لميتون﴾ أي بعد تمام خلقكم. ثم خروجكم من بطون أمهاتكم، واستيفائكم آجالكم (ثم انكم يوم القيامة تبعثون﴾ أحياء من قبوركم، فتحاسبون على أعمالكم، وتنالون جزاءكم، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[1].

---

(١) الأنبياء: آية ٤٧.

٢ - النموذج الثاني: من المسلك الثاني:

يقول تعالى من سورة السجدة: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ. ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ. ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ.

وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ، بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ. قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ. وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [١] يخبر تعالى أنه أحسن الأشياء التي خلقها فأتقنها وأحكمها، كما قال تعالى ﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾ ومن تلك أشياء المخلوقة المتجلية فيها بدائع الصنعة خلق الإنسان، ثم شرع في بيان بدء خلقه فقال ﴿وبدأ خلق الإنسان من طين﴾.

ويعني به خلق آدم عليه السلام كما قال تعالى: ﴿إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين﴾ ثم جعل نسله، أي قدر خلق ذريته من تلك النطفة التي تخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة. مذكراً لهم بنعمه التي منحهم اياها من السمع والبصر

---

(١) السجدة: آية ٧ - ١٢.

والعقول، كل تلك القوى التي قَلَّ شكرهم لله عليها أنشأها من تلك النطفة التي عبر عنها بالشيء الممتهن لحقارته، وبعد ذكره تعالى لنشأتهم الأولى المتمثلة في خلق أبيهم آدم، ثم بيانه لكيفية تناسلهم من بعده ـ وما أنعم به عليهم من القوى الظاهرة والباطنة مما يدلهم على قدرته وحكمته، أورد قضية البعث، إذ لا يعقل ـ إن كانوا يعقلون ـ أن يخلقهم الله ويعدهم هذا الإعداد عبثاً، ذلك ظن الذين كفروا.

فقال: ﴿وقالوا أإذا ضللنا في الأرض﴾ أي اختلطت أجسامنا بعد تمزقها وتفتتها بأجزاء الأرض، من قولهم ـ ضل السمن في الطعام ـ أي اختلط به، ﴿أإنا لفي خلق جديد﴾ أي أإنا لنعود بعد تلك الحال إلى حالتنا السابقة، استبعاداً منهم لذلك الأمر، وهذا الاستبعاد الذي يعبرون عنه، هو بالنسبة لقدرهم العاجزة، إذ قصرت عقولهم فظنوا أن قدرة الخالق كقدرهم كما قال تعالى حكاية عنهم ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ..﴾[1].

ـ وضارب المثل بعضهم لكنهم متفقون على ذلك ـ فسبب الانكار المستند إلى شبهة الاستبعاد ناشيء عن نسيان الخلق الأول ولذا فالمولى عز وجل يذكرهم بتلك النشأة قال تعالى حكاية عنهم ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا أَوَلَا يَذْكُرُ

(١) يس: آية ٧٨

ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [1].

ولو أنهم التفتوا إلى مبدأ خلقهم لعلموا أن القدرة التي أنشأتهم أولاً لا يعجزها اعادتهم ثانياً.

ولما كان استبعادهم لاعادتهم للحياة مرة أخرى بعدما شاهدوا من الأدلة لا مكان له، أتبعه بالإخبار القاطع بوقوعها فقال: (قل) أمر للنبي ﷺ أي قل يا محمد مخبراً ومنذراً منكري البعث (يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون) فهو إخبار قاطع بتلك الاعادة، مستند إلى الدليل السابق، وهو النشأة الأولى، مؤكد بتلك الحالة التي يكونون عليها بعد رجوعهم إلى ربهم، في حالة كونهم معترفين بذنبهم، طالبين الرجوع إلى الحياة الدنيا مرة أخرى، ليصلحوا أعمالهم، بعد أن رأوا الخبر اليقين، قال تعالى حاكياً تلك الحالة عنهم وما يقولونه ﴿ولو ترى اذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم﴾ قائلين ﴿ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً انا موقنون﴾ والله يعلم أنهم لكاذبون في دعواهم اصلاح أعمالهم إذا رجعوا للحياة مرة أخرى. قال تعالى ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ

---

(١) مريم: آية ٦٦ ـ ٦٧.

﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [1].

٣ ـ النموذج الثالث: من المسلك الثاني:

وفي مطلع سورة الرعد نموذج يهز المشاعر ويستثير الوجدان: إذ يحتوي على آيات الله الكونية التي يعترف المخاطبون بأنها أنشئت بقدرة الله القوي العزيز.

يقول تعالى:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ

---

(١) الأنعام: آية ٢٧.

جَدِيدٍ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّـارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾[1].

تبدأ الآيات الكريمة برسم المشاهد الكونية الدالة على القدرة الالهية، السماء وما شملت من أفلاك، والأرض وما حوت من أنهار وجبال، وما أخرجت من ثمار، ثم التعجب من حال من ينكر البعث والحياة مرة أخرى بعد أن شاهد هذه الآيات المعروضة على العقول والأبصار، يقول تعالى: ﴿الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها﴾ وهو إخبار منه تعالى عن كمال القدرة وعظيم السلطان. فبأمره رفع السموات عن الأرض، هذه السموات التي لا يحيط بها البصر ادراكاً، ولا يعلم مقدار سعتها وعظمتها، إلا خالقها رفعها بأمره، ويمسكها بقدرته ان تزول، مستشهداً على ذلك برؤية المخاطبين لها مرفوعة بغير عمد تسندها، محكمة البناء لا شقوق فيها ولا تصدع، فنحن نكرر النظر اليها مرات ومرات، فترجع أبصارنا كآلة من غير أن تدرك شيئاً مخلاً، في هذا البناء الهائل والسقف المرفوع، وإنما تدرك فيه الابداع والاتقان، المنبئين عن الحكمة والتدبير. (ثم استوى على العرش) والعرش من الأمور المغيبة عنا، والله هو وحده العالم بسعته وعظمته وقد استوى عليه استواء يليق بجلاله كما أخبر. وتنقلنا الآيات من مشهد السماء

---

(١) الرعد: الآيات ٢ ـ ٥.

المرفوعة بغير عمد، إلى مشهد التسخير والتقدير (وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى) فقد خلقهما بقدرته وسخرهما بارادته يجريان دائبين لا يفتران، إلى أجلهما المسمى وقد خص كلا منهما بخاصته فجعل الشمس سراجاً وهاجاً، وجعل القمر نوراً، كلاهما ترتبط بها حياة الانسان في نفسه، وفي جميع شئون حياته اليومية والشهرية والسنوية، أمور تلمس القلوب وتخاطب المشاعر بما يحسه الانسان ويدركه كجزء من حياته.

(يدبر الأمر) كله، فله الخلق والأمر، فمن تدبيره خلق السموات وحفظها، ومن تدبيره وتقديره، خلق الشمس والقمر، وتسخيرهما يجريان الى أجلهما المسمى.

(يفصل الآيات) الكونية المشاهدة الدالة على عظيم القدرة ونفاذها، والآيات الدينية المبينة للطريق السوي الذي يلزم المكلف سلوكه والحقائق الغيبية التي لا بد من الايمان بها، واعتقادها. ﴿لعلكم بلقاء ربكم توقنون﴾.

(لعلكم) حين رؤيتكم لآياته الكونية المفصلة، وإدراككم لما فيها من اتقان واحكام، دالين على قدرة من فصلها وبينها (توقنون) بأن وراء هذا التدبير المحكم مدبراً حكيماً، وأن لهذا التفصيل والتوضيح، مفصلا عليماً حكيماً لا بد من لقائه، في الحياة الأخرى، لمجازاتكم على أعمالكم، فذلك اللقاء، وتلك المجازاة،

مما يوحي به ذلك التدبير والتفصيل، فالخلق يكون عبثاً إن لم تكن هناك مجازاة على الاحسان والاساءة. قال تعالى: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم الينا لا ترجعون﴾.

تلك مشاهد العلو الكونية، عرضت على المخاطبين، ذلك العرض الموحي بالقدرة المبدعة من ورائها، ليأخذ منها الإنسان المنكر للبعث، أن خالقها، وحافظها، قادر على اعادته بعد موته.

ثم تأخذ الآيات القرآنية بيد المخاطب، إلى هذه الأرض التي يعيش عليها، قائلة، إذا لم تكتف أيها المرتاب في قدرة خالقك، بما تشاهده ببصرك من فوقك. فالتفت إلى ما تحت قدميك، وما هو مبسوط أمام عينيك، من هذه الأرض التي مدت، فوسعت، وأرسيت فاستقرت، وشقت بالأنهار الجارية، وأنبتت من كل الثمرات، ثم تعاقب الليل والنهار المستمر لما فيه سعادتك وقوام حياتك، كل هذه آيات تدعو الانسان للتفكير فيها وفيما توحي به (إن في ذلك) المتقدم ذكره من رفع السماء بلا عمد وتسخير الشمس والقمر، وخلق الأرض، ومدها وحفظها، وشق أنهارها، واخراج زروعها وثمارها، (لآيات لقوم يتفكرون).

وتمضي الآيات القرآنية، في توضيحها لآيات الله الكونية، فبعد عرضها الاجمالي لما تنبته الأرض، من أزواج الثمار المختلفة.

تعود إلى توضيح جزئية منها، لتضع المنكر للبعث، أمام

القدرة الإلهية، تلك الجزئية التي يشاهدها الانسان ببصره، ويمارس عمليتها بيده، ويتذوق ثمارها بفمه، فهو دليل تبصره العين، وتلمسه اليد، ويذوقه الفم، فأي دليل أقرب وأمس بحياة الانسان، من هذا الدليل الذي يلمسه الإنسان بنفسه، فيقول تعالى موضحاً ذلك: ﴿وفي الأرض قطع متجاورات﴾ بعضها لاصق في بعض لا يفصل بينهما جنس غريب من غير جنسهما، (وجنات) تشمل أنواعاً من الأشجار المختلفة، ففيها الأعناب، والزروع، والنخيل الصنوان وغير الصنوان، هذه الأنواع كلها (تسقى بماء واحد) إما من السماء كماء المطر ـ أو المستخرج من الأرض، كماء الآبار، والعيون وتنبت في تربة واحدة، وصلة الأحوال الطبيعية بها، كالحرارة، والبرودة، واحدة، ومع ذلك، تأتي ثمارها مختلفة الطعوم، وألوانها مختلفة الأشكال، فمن أين جاء لها ذلك الاختلاف في اللون والشكل، وتفضيل بعضها على بعض في الطعم والذوق مع أن كل الأسباب الظاهرة واحدة؟؟

ليس من جواب على هذا السؤال، إلا أن ذلك من فعل الخالق العليم، والمدبر الحكيم، ﴿ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ لآيات، أي دلالات واضحات على كمال القدرة المبدعة، لمن أعمل فكره وعقله، في مخلوقات الله تعالى.

هذه الآيات الكونية، العلوية منها والسفلية، تهدي المتفكر

فيها، المستعمل، لعقله الفطري، الذي فطره عليه خالقه، على أنها قد أوجدت، وأحكمت، ونظمت بتدبير حكيم عليم، قادر، تقتضي حكمته رجوع الخلائق اليه، وملاقاتهم له، وتدل دلالة واضحة على أن من طلب دليلا غير هذه الأدلة، على قدرة الله لاعادته للحياة مرة أخرى انه ممن يعجب من قوله، ويستهزأ من طلبه، وهكذا نرى أن الله تبارك وتعالى، بعد أن عرض هذه الأدلة على المخاطبين المنكرين للبعث، وبعد أن اتضح الدليل لديهم بما لا يدع مجالا للشك في قدرة الخالق على اعادتهم، أورد قضية البعث معجباً رسوله ﷺ من الجاحدين لقدرته تعالى، على اعادتهم خلقاً جديداً، بعد أن تفتت اجسامهم فصارت تراباً، فيقول جل شأنه، (وان تعجب) يا محمد (فعجب قولهم أإذا كنا تراباً أإنا لفي خلق جديد، ولم يكن هذا الانكار الصادر منهم، لعدم الدليل على البعث، وانما كان بسبب كفرهم، المتأصل في نفوسهم، فاستحقوا أن يحكم الله عليهم، بعد أن أقام عليهم الحجة البالغة، بالأغلال في أعناقهم، والسلاسل يسحبون بها في النار المصاحبة لهم، المستمرة معهم، ﴿أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ فيخلدون فيها جزاء لهم على كفرهم وعنادهم، كلما نضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارًا كُلَّمَا

نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (١).

النموذج الرابع: من المسلك الثاني:

يقول تعالى من سورة الحج:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ، ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ. وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ (٢).

إن اسلوب القرآن في مخاطبة الناس لاقامة حججه وبراهينه لا يختص بفئة من الناس ذات صفات معينة، ذلك لأنه يخاطب الفطرة البشرية في عموم أفرادها، وكل فرد منهم يستطيع أن يأخذ من ذلك الخطاب الموجه بقدر ما أوتي من ذكاء وفطنة.

---

(١) النساء: آية ٥٦.

(٢) الحج: آية ٥ ـ ٧.

وهذه الآية الكريمة من سورة الحج تمثل هذا الأسلوب القرآني الواضح فهي تقوم على مقدمات صادقة، ترتبت عليها نتائج قطعية، مع ما تمتاز به من السهولة والوضوح في ادراك ما تضمنته من معان من غير كد ذهني أو إجهاد فكري، وذلك لبعدها عن أقيسة المناطقة، وتعقيدات الفلاسفة.

يقول تعالى موجهاً خطابه للناس جميعاً، والمقصود الذين يتشككون في أمر البعث فيستبعدون وقوعه، بعد أن تفرقت الأجسام وتلاشت فذهبت في الأرض، وصارت تراباً، يقول لهؤلاء ﴿إن كنتم في ريب﴾ أي في شك من قدرتنا على اعادة هذه الاجسام، المختلطة بالتراب، استبعاداً لإمكان ذلك وشكاً في وقوعه، فانظروا في بدء خلقكم الأول فانا خلقناكم من تراب. وذلك في ضمن خلق أبيكم آدم عليه السلام ثم جعلنا خلقكم بعده في صورة أغرب من خلق الانسان من تراب، فقد خلقناكم من نطفة ماء ثم أخذت تلك النطفة أطوارها المتعددة وصورها المختلفة، فقد كان هذا الانسان الجاحد لاعادته مرة أخرى، نطفة ماء، ثم تحولت تلك النطفة الى علقة أي دم جامد ثم تحولت الى مضغة لحم، مخلقة، أي متبينة الخلق مصورة، وغير مخلقة لم يبن خلقها وصورتها، تلك أطوار النطفة التي تمر بها في رحلتها الى أن تصبح جنيناً يتحرك في ذلك القرار المكين (من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة

لنبين لكم) قدرتنا على الخلق والاعادة، (ونقر في الأرحام) من تلك النطف بعد تمام الخلق (ما نشاء الى أجل مسمى) وهو وقت الوضع (ثم نخرجكم طفلا) أي أطفالا تَتَنَسَّمون الحياة، مزودين بجميع الوسائل اللازمة لمواجهة الحياة الجديدة على هذه الأرض من رئة يتنفس بها واذن يسمع بها وعينان يبصر بها وأيد يبطش بها، وأرجل يمشي بها.. الخ ما هنالك من صفات وأعضاء وضعها الخالق العظيم في الإنسان مما يدل دلالة قطعية على أن هذا الإنسان قد أعد اعداده هذا عن علم وحكمة، وبعد خروجه لهذه الحياة رباه خالقه بنعمه الى أن أصبح شخصاً قوياً، (ثم لتبلغوا أشدكم).

(ومنكم من يتوفى) أي فيخترم الله بالوفاة في أجله المعلوم من يشاء، ويعمر من يعمر منكم حتى يبلغ من العمر أرذله، فيرتد عقله وتصوراته ومشاعره الى حالة الطفولة الأولى، فيجهل بعد العلم، ويضعف بعد القوة (ومنكم من يرد الى ارذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً)، تماماً مثل يوم خلق وبرز وجوده لهذه الحياة طفلاً فالآية الكريمة تخاطب المنكر للبعث، قائلة له: إن من كانت هذه قدرته في خلقك وانشائك، في حياتك الأولى، وفي أطوارها المتعددة التي مرت بها أيعجزها إحياؤك بعد موتك، واعادتك بعد فنائك؟؟

كيف يكون ذلك وهو القادر على كل شيء وهو الخلاق العليم.

وبعد أن استكملت الآية الاستدلال بالعالم الانساني في نشأته الأولى، وكيفية تنقله في أطوار خلقه المتعددة.

أتبعه باستدلال آخر يكثر ضربه في القرآن استدلالاً به على البعث ذلك هو احياء الأرض بعد موتها.

فقال تعالى: ﴿وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾.

فهمود الأرض، عبارة عن يبسها واقفارها من النبات بمنزلة الذات المسلوبة الحياة، فهي ميتة يابسة، لا نبات لها.

واهتزازها وربوها وتحركها بالنبات بعد نزول المطر عليها، بمنزلة الحياة تسري في الموات، فتنبت من كل زوج بهيج، وذلك بمنزلة خروج الأموات من قبورهم.

وبعد أن يتقرر الدليل ويتضح لدى المخاطبين بما لا يدع مجالا للشك في قبول النتيجة يورد القضية المستدل عليها فيقول (ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير) فالله هو الموجود بذاته لذاته ومن شأنه احياء الموتى، فهو الذي خلق الموت والحياة، وهو القادر على الخلق بدءاً واعادة، لأنه على كل شيء قدير (وأن الساعة) وهي موعد الحياة الثانية، (آتية لا ريب فيها) لوضوح دلائلها، ثم ختمت الآية بالنتيجة المطلوبة، وهي

القضية التي يرتاب فيها المنكرون للبعث، فقال تعالى: ﴿وان الله يبعث من في القبور﴾، تلك القبور التي تحتوي على أجساد الموتى، التي تفتت، ورمت، واختلطت بغيرها، ذلك أن الله تعالى قادر على إعادتها، ليوفيها الحساب على عملها في الحياة الدنيا.

المسلك الثالث: هو إخبار الله تعالى بوقوع البعث من غير أن يذكر الدليل على ذلك.

ذكرنا في أول هذا المبحث، أن أعظم شبهة يستند إليها منكروا البعث هي استبعادهم اعادة الأجسام إلى ما كانت عليه بعد أن صارت تراباً، واختلط بعضها ببعض: وعرفنا مسلك القرآن الكريم لعلاج تلك الشبهة ودحضها في المسلكين السابقين، وهما: إما أن يورد الشبهة أولا ثم يبين بطلانها بالدليل.

واما أن يذكر الدليل على البعث والاعادة أولا، وبعد وضوحه وتقريره يورد القضية. وهناك مسلك ثالث سلكه القرآن الكريم في قضية البعث، وهو أنه يذكر رأي المنكرين للبعث من غير أن يذكر شبهتهم، بل يذكر دعواهم مجردة عن الدليل، ثم يكرُّ القرآن على هذه الدعوة بالرفض والابطال ويبين أن البعث واقع لا محالة، ويؤيد هذا الوقوع بالقسم منه جل وعلا، ولعله لم يذكر الدليل في هذه الآيات، بل طواه، نظراً لأنه ذكره أكثر من مرة في آيات متعددة، وليس بلازم أن يذكر الدليل عند كل مناسبة،

فان القرآن يفسر بعضه بعضاً.

وسأذكر هنا نماذج لهذا المسلك في القرآن الكريم.

أولا: أقسام المنكرين للبعث بأن الله لا يبعث من يموت.

يقول تعالى في سورة النحل:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ، بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ. لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ. إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (١).

فالآية الأولى تصور لنا هذا الانكار الشديد المؤكد بالأيمان المغلظة بأن الله لا يبعث من يموت أبداً، فنراهم يجزمون بعدم وقوع البعث، بعد الموت وينفونه نفياً قاطعاً بلا شك عندهم ولا تردد، من غير أن يرد في كلامهم ما يتضمن شبهة لذلك النفي، قال تعالى: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت﴾.

ولعل هذا الانكار الصادر منهم مستند الى الشبهة الأولى، وهي شبهة استبعاد أن يعيد الله الموتى مرة ثانية ولكنها لم تذكر هنا لظهورها واستقرارها عند المنكرين.

---

(١) النحل: آية ٣٨ ـ ٤٠.

ولما كان قولهم هذا يتضمن الطعن في الحكمة الإلهية، ونسبة العبث الى الله في خلقه العباد وتركهم سدى، إذ يقتضي ذلك التسوية بين المحسن والمسيء وبين الخير والشر، وهما لا يستويان عند الله، كما قال تعالى: ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون﴾[1] وقال تعالى: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير، والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلا ما تذكرون﴾[2] وقال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾[3].

لذلك فقد رد الله عليهم شبهتهم هذه وأكد لهم أن البعث أمر محتم، لا بد من وقوعه، فهو وعد عليه حقاً، لا بد من انجازه، ذلك لأن الله تعالى قد وعد به، ووعده حق ثابت لا بد من وقوعه، قال تعالى ﴿بلى وعدا عليه حقاً﴾.

وإنما كان البعث حقاً وواقعاً، لأن هذه الحياة الدنيا، ليست هي النهاية بل هي وسيلة الى حياة أخرى، ومعبر يعبر عليه الانسان الى الحياة الباقية، كي يجازى فيها على ما عمله في هذه الحياة (ولكن أكثر الناس) وهم المنكرون للبعث لجهلهم بالله تعالى ﴿لا

---

(١) الجاثية: آية ٢١.
(٢) غافر: آية ٥٨.
(٣) السجدة: آية ١٨.

يعلمون﴾ ما يتضمنه البعث من العدل بين العباد.

ثم بين لهم حكمته في المعاد، فقال تعالى: ﴿ليبين لهم الذي يختلفون فيه﴾ ففي ذلك اليوم يظهر لكل مخالف في شيء (ما) الحق فيما خالف فيه، ويجازي فيه كل عامل على عمله، كما قال تعالى: ﴿ ... لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [1].

(وليعلم) في ذلك اليوم (الذين كفروا) بالله وكذبوا رسله فيما أخبروهم به من البعث والجزاء على الأعمال، (أنهم كانوا كاذبين) في أيمانهم تلك التي أكدوا بها انكارهم للبعث بعد الموت، وأن البعث واقع، والجزاء حق وعدل.

ثم أخبر تعالى عن قدرته على ذلك، وأنه لا يخرج على مشيئته وارادته فقال: ﴿إنما قولنا لشيء﴾ في الأرض أو في السماء ﴿اذا أردنا أن نقول له كن فيكون﴾ ومن ذلك المعاد، فاذا أراد الله وقوعه فانما يأمر به مرة واحدة اذ لا يحتاج أمره بالشيء الى تكرار، كما قال تعالى: ﴿وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر﴾ وقال مخبراً عن تلك القدرة ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾ وقال الشاعر:

---

(١) النجم: آية ٣١.

اذا ما أراد الله أمراً فانما يقول له كن قولة فيكون[1]

ثانياً: نفيهم مجيء الساعة، وزعمهم عدم وقوع البعث:

يقول تعالى من سورة سبأ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ. قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾[2].

ويقول تعالى من سورة التغابن:

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[3].

يخبر تبارك وتعالى، عن إنكار الكفار للآخرة، ذلك الانكار

---

(١) ابن كثير، التفسير ج ٢ ص ٥٦٩.

(٢) سبأ: آية ٣ ـ ٥.

(٣) التغابن: آية ٧.

الناشيء عن عدم إدراكهم لحكمة الله تعالى وتقديره، فحكمته لا تترك الناس سدى، يحسن من يشاء منهم أن يحسن، ويسيء من يشاء ذلك، ثم لا يجازي أحداً منهم على عمله.

ولذلك فهم ينكرون مجيء الساعة التي وعد الله بمجيئها، والتي ينال فيها كل انسان جزاء عمله، فيقولون: ﴿لا تأتيناْ الساعة﴾ ينفون مجيئها نفياً جازماً بدون دليل، مع أن مجيء الساعة، ووقتها من الأمور الغيبية وهم لا يعلمون من الغيب شيئاً.

فيرد الله عليهم انكارهم هذا رداً مؤكداً جازماً، فيأمر نبيه ﷺ أن يقسم بربه على إتيانها ووقوعها قسماً مؤكداً فيقول: (قل) يا محمد مخاطباً هؤلاء الجاحدين للساعة النافين لمجيئها (بلى وربي لتأتينكم) فهو إخبار مؤكد بوقوعها من عالم الغيب، وقد اتبع ذلك بما لله عز وجل من صفة العلم المحيطة والشاملة لما في هذا الكون كله كبيره وصغيره (عالم الغيب لا يعزب) أي لا يغيب (عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين) فمن كان عمله محيطاً بدقائق الأمور بحيث لا يخفى عليه شيء منها، كيف يعجزه إعادة الخلق إلى ما كانوا عليه مرة أخرى؟؟

ثم بين الحكمة من البعث وقيام الساعة فقال: (ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك) المؤمنون العاملون (لهم مغفرة) لما

بدر منهم، (ورزق كريم) لا مَنّ فيه ولا تعب.

كما يجازي الله الكافرين به والمكذبين لرسله الساعين للصد عن سبيله بالعذاب المهين (والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم) والرجز سوء العذاب كما قال قتادة[1].

وفي آية التغابن، يحكي الله تبارك وتعالى، انكار الكفار للبعث بعد الموت وقد عبر عن ذلك الانكار بالزعم، فقال (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا) أي المنكرين منهم للبعث، والزعم يشعر بعدم التأكد والجزم من القائل بما يقوله لعدم علمه من أن قوله هذا يوافق الحق والصواب، ولذلك كان الزعم كنية الكذب، كما يقوله ابن عمر[2] رضي الله عنه.

وقد أمر الله نبيه ﷺ، أن يرد على ذلك الزعم الباطل، ويؤكد نفيه بالقسم بربه على تحقق البعث ووقوعه، ويبين لهم ما يترتب على ذلك البعث من جزاء وهو أنهم سينبؤون بما عملوا، ثم يجازون على أعمالهم التي عملوها في الدنيا، قال تعالى: ﴿قل﴾ يا محمد ﴿بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير﴾.

ويقول ابن كثير في تفسير هذه الآية ﴿... قل بلى وربي

---

(١) أبو السعود بن محمد العمادي الحنفي، التفسير ج ٤ ص ٢٤٣.

(٢) ابن جرير الطبري، التفسير ج ٢٨ ص ١٢١.

لتأتينكم﴾ ما نصه:

(هذه إحدى الآيات الثلاث التي لا رابع لهن، مما أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقسم بربه العظيم. على وقوع المعاد لما أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد، فاحداهن في سورة يونس عليه السلام وهي قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾[1].

والثانية هذه ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾[2].

والثالثة في سورة التغابن وهي قوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[3].

ثالثاً: الإخبار بقيامهم من قبورهم:

يقول تعالى من سورة يس:

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ،

(١) يونس: آية ٥٣.
(٢) سبأ: آية ٣.
(٣) التغابن: آية ٧.

﴿قَالُوا يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ. إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ. فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١).

تصور لنا هذه الآيات هذا المشهد العظيم من مشاهد يوم القيامة، وذلك حين النفخ في الصور المؤذن بانتشار الناس من القبور ﴿ونفخ في الصور فاذا هم من الأجداث﴾ هي القبور ﴿إلى ربهم ينسلون﴾ أي يمشون مسرعين كما قال تعالى: في سورة المعارج ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ (٢). قائلين بعد خروجهم من قبورهم ﴿يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا﴾ أي من قبورنا، التي كنا نرقد فيها، ونعتقد أننا سوف لا نخرج منها أحياء مرة أخرى أبداً، فلما ظهر صدق ما كذبوا به، قالوا: يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا؟ ثم قال الله تعالى: ﴿هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون﴾ وهذا القول... الخ. إما حكاية عن المنكرين للبعث، إذ علموا عند المعاينة أن ما أخبرتهم به الرسل صدق وحق. وإما من قول المؤمنين

(١) يس: آية ٥١ ـ ٥٤.
(٢) المعارج: آية ٤٣.

لهم ذلك، وهذا ما اختاره ابن جرير في تفسيره الآية[1].

ثم بين تعالى ان جمع الخلائق جميعاً في ذلك اليوم من الأمور اليسيرة على القدرة الإلّهية فما هي إلا صيحة واحدة توجه اليهم، فاذا هم في اللحظة محضرون عند خالقهم ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾[2]. كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾[3] في ذلك اليوم يقام ميزان العدل بين العباد فلا تظلم نفس شيئاً، وانما تجازى على عملها الذي أسلفته في حياتها الدنيا، ﴿فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾. هذا مسلك القرآن في اثبات البعث، وسنتبعه بآراء العلماء في ذلك لا للمقارنة، وانما ليتبين للقارىء سهولة أسلوب القرآن الكريم في مخاطبته البشرية على اختلاف مستوياتهم، لقول القائل: فبضدها تتبين الأشياء.

---

(١) ابن جرير الطبري، التفسير، ج ٢٣ ص ١٧.

(٢) يس: آية ٥٣.

(٣) القمر: آية ٥٠.

الفَصْل السَادس

آراَء العُلمَاء في البَعْث

سأتناول هذا الموضوع بالدراسة من ناحيتين:

أ ـ الأولى: ذكر آراء العلماء في حقيقة البعث، هل هو جسماني فقط، أو روحاني فقط، أو روحاني وجسماني.

ب ـ الثانية: بيان كيفية البعث (الاعادة) عند من يقول باعادة الأجسام.

أولا: آراء العلماء في حقيقة البعث:

بعد أن عرضنا مسلك القرآن الكريم في إثبات البعث، وهو المقصود من هذا البحث، فقد رأينا من المناسب أن نذكر أقوال العلماء في هذا الموضوع باختصار، لنرى مدى موافقة هذه الأقوال، أو مخالفتها لما جاء في القرآن الكريم في موضوع البعث، فأقول وبالله التوفيق:

إن الاقوال الواردة في البعث، والمذكورة في كتب العقائد الاسلامية خمسة أقوال:

الأول: ثبوت المعاد الروحاني فقط.
الثاني: ثبوت المعاد الروحاني والجسماني.
الثالث: ثبوت المعاد الجسماني فقط.
الرابع: عدم ثبوت شيء من ذلك.
الخامس: التوقف في هذه الأقسام جميعاً [١].

أما القول الأول: وهو ثبوت المعاد الروحاني فقط، فهو قول الفلاسفة الالهيين، وذلك لأن البعث عندهم، عبارة عن مفارقة النفس لبدنها، واتصالها بالعالم العقلي، الذي هو عالم المجردات، وسعادتها، وشقاوتها، إنما تكون بفضائلها النفسانية ورذائلها [٢].

يقول ابن سينا في كتابه: الاشارات والتنبيهات، النمط الثامن:

والعارفون المتنزهون اذا وضع عنهم درن مقارفة البدن، وانفكوا عن الشواغل، خلصوا الى عالم القدس والسعادة، وانشغلوا بالكمال الأعلى، وحصلت لهم اللذة العليا. وقد عرفتها.

---

(١) الايجي، شرح المواقف ج ٨ ص ٢٩٧، الطبعة الأولى سنة ١٣٢٥ هـ - ١٩٠٧ م مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر.
(٢) الايجي، شرح المواقف ج ٨ ص ٢٩٧.

وأما البله فإنهم إذا تنزهوا خلصوا من البدن الى سعادة تليق بهم، ولعلهم لا يستغنون فيها عن معاونة جسم يكون موضوعاً لتخيلات لهم، ولا يمنع أن يكون ذلك جسماً سماوياً، أو ما يشبهه، ولعل ذلك يفضي بهم آخر الأمر إلى الاستعداد للاتصال المسعد الذي للعارفين[١].

وأما القول الثاني: وهو ثبوت المعاد الروحاني والجسماني معاً، فهو قول منسوب الى الحليمي، والغزالي، والراغب، وأبي زيد الدبوسي، ومعمر من قدماء المعتزلة، وجمهور من متأخري الإمامية، وكثير من الصوفية، فإنهم قالوا: إن الإنسان بالحقيقة هو النفس الناطقة وهي المكلف، والمطيع والعاصي، والمثاب، والمعاقب، والبدن يجري منها مجرى الآلة، والنفس باقية بعد فساد البدن، فإذا أراد الله تعالى حشر الخلائق، خلق لكل واحد من الأرواح بدنا يتعلق به، ويتصرف فيه كما كان في الدنيا[٢].

وأما القول الثالث: وهو ثبوت المعاد الجسماني فقط، فهذا القول منسوب لأكثر المتكلمين النافين للنفس الناطقة. وهو قول أهل السنة.

---

(١) ابن سينا، الاشارات والتنبيهات، النمط الثامن ص ٧٧٤ - ٧٧٨ تحقيق د. سليمان دنيا / ملتزم الطبع والنشر دار المعارف بمصر ١٩٦٠ م.

(٢) الايجي، شرح المواقف ج ٨ ص ٢٩٧.

وأما القول الرابع: وهـو انكـار المعـاد الروحـاني والجسماني جميعاً، فهو قول القدماء من الفلاسفة الطبيعيين.

والقول الخامس: وهو التوقف في هذه الأقسام كلها، فهو المنقول عن جالينوس، فإنه قال: لم يتبين لي أن النفس هل هي المزاج، فينعدم عند الموت فيستحيل اعادتها، أو هي جوهر باق بعد فساد البنية، فيمكن المعاد حينئذ.

هذه هي أقوال العلماء المحكية عنهم في حقيقة البعث، فما مدى موافقتها أو مخالفتها لما جاء به القرآن الكريم في ذلك؟

نقول ومن الله التوفيق:

إن القول الرابع ـ وهو انكار البعث مطلقاً، والقول الخامس وهو الشك في وقوعه، فسنضرب صفحاً عن الرد عليهما ومناقشتهما وذلك لأن مسلك القرآن الكريم الذي سبق أن عرضناه، فيه الكفاية، لدحض شبه المنكريـن لامكـان البعـث، والمتشككين في وقوعه، لأن انكار البعث حلقة متصلة اعتنقها المكذبون لأنبيائهم من كل أمة كما قال تعالى حكاية عنهم، ﴿بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ. قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ. لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَـٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [1].

---

(١) المؤمنون: آية ٨١ ـ ٨٣.

فالشبهة واحدة ورد القرآن على طائفة واحدة، هو رد على كل طائفة منكرة للبعث، أو متشككة في وقوعه، فلو ناقشنا هذين القولين وبينا فسادهما، ووجه الرد عليهما، لاعتبر ذلك تكرار لما سبق. وإنما الذي سنناقشه هنا، هي الأقوال الثلاثة الأخرى، القائلة بالبعث، فهي التي يمكن أن ننظر في مدى موافقتها، أو مخالفتها لما جاء في القرآن الكريم في موضوع البعث، وسنبدأ برأي الفلاسفة حسب ترتيبنا لهذه الأقوال.

أولاً: رأي الفلاسفة:

أما قولِ الفلاسفة الالهيين، إن البعث روحاني فقط، وانكارهم للمعاد الجسماني فلا شك في مصادمته للنصوص الشرعية الواردة في الكتاب العزيز، والثابتة في السنة النبوية، فالمنكرون للبعث الذين رد عليهم القرآن الكريم، لم ينكروا إلا اعادة هذه الأجسام بعد استحالتها تراباً. وأوردوا شبههم استبعاداً لتلك الاعادة، فرد عليهم القرآن الكريم وبين لهم زيف شبهتهم، ووضح أن الاعادة ممكنة.

ثم إن كلامهم هذا يتضمن انكار كل شيء محسوس، كالجنة والنار، والصراط والميزان، وكل الحقائق الأخروية التي أخبر الشارع عنها، ولذلك كفَّرهم العلماء.

وأما قول القائلين: بأن المعاد روحاني وجسماني فإنه مبني على القول بأن الروح جوهر مجرد ليس بجسم، ولا قوة حالّة بالجسم، وإنما تتعلق بالجسم تعلق التدبير والتصرف، وأنها لا تفنى بفناء البدن، وعليه فالمعاد شيئان، جسم - وروح تعاد اليه، ولكن هل الجسم المعاد هو عين الأول أو غيره؟

الكلام الذي نقلناه عن شرح المواقف والذي نسبه إلى الحليمي، والراغب والغزالي وآخرين يوحي بأن الجسم المعاد غير الأول، نأخذ ذلك من قوله حكاية عنهم أو نسبة اليهم: (فإذا أراد الله تعالى حشر الخلائق خلق لكل واحد من الأرواح بدنا يتعلق ويتصرف فيه كما كان في الدنيا).

وهذا القول، وإن كانت نسبته لا تصح إلى الإمام الغزالي، كما يأتي توضيح ذلك. ولا نعلم مدى صحة نسبته إلى الآخرين لعدم المراجع المتوفرة بأيدينا حالياً، فإنه قول قد قيل ومتداول في كتب العقائد، ولذلك فإننا سنبحث الموضوع من حيث هو، لنبين مدى موافقته أو مخالفته لما جاء به القرآن الكريم، بغض النظر عن نسبته إلى قائله، فنقول وبالله التوفيق: إن مشكلة البعث التي عالجها القرآن بطرقه المختلفة، مع المنكرين له المستبعدين لوقوعه، هي إعادة هذه الأجسام بعينها مرة أخرى بعد أن أصبحت عظاماً

بالية مفتتة مختلطة اختلاطاً كلياً بأجزاء الأرض، كما قال تعالى حكاية عنهم:

(١) ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾[١].

(٢) ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[٢].

(٣) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[٣].

فالآيات تحكى أقوالهم الصادرة منهم في انكارهم للبعث، واعادة الحياة بعد الموت مرة أخرى لهذه الأجسام المتفتتة، فلم تتسع عقولهم ومداركهم، لاعادة هذه العظام خلقاً جديداً، بعد أن صارت تراباً، فهم لم ينكروا على الله عز وجل قدرته على ايجاد خلق جديد وانشاؤه لأنهم يعلمون أنه خالق السموات والأرض، وخالقهم، وهم يشاهدون مخلوقاته تحدث باستمرار أمام أعينهم، قال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله﴾. فالخلق والايجاد مستمر، وإنما أنكروا الاعادة لعظام تفتت، كما قال تعالى حكاية عنهم: ﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه، قال: من يحيي العظام وهي رميم﴾. وقد أشرنا في سبب نزولها، أن أبي بن

(١) ق: آية ٣.

(٢) السجدة: آية ١٠.

(٣) سبأ: آية ٧.

خلف جاء إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم وهو يفته ويذروه في الهواء وهو يقول: يا محمد، أتزعم أن الله يبعث هذا؟ قال رسول الله ﷺ: نعم يميتك الله تعالى ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار).

هذا ما أنكروه على الرسول ﷺ واستبعدوا وقوعه، حينما دعاهم إلى الايمان بالبعث والجزاء في اليوم الآخر، ولذلك فقد ردّ الله على شبههم تلك ـ فقال رداً على قولهم من يحي العظام وهي رميم؟ (قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم).

وقال تعالى رداً على قولهم: ﴿أإذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد﴾ بقوله: ﴿قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ﴾.

وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ. بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ [1] وقال تعالى في سورة الحج: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ. وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [2]. وفي القبور تلك العظام المفتتة، فهو القادر على اعادتها.

---

(١) القيامة: آية ٣ ـ ٤.

(٢) الحج: آية ٦ ـ ٧.

ومما يؤكد ذلك ويزيده وضوحاً، من أن المعاد هو عين الأول، لا مثله، قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ. حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ. وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1].

فهذه الآيات تدل صراحة، على أن أعضاء الانسان وجوارحه التي كانت في الدنيا هي نفسها التي تبعث فتشهد عليه يوم القيامة بما اقترف من سيئات متسترا عن أعين الناس، ظناً منه أن الله لا يعلم عمله ذلك، ولم يدر بخلده أن اعضاءه ستشهد عليه يوم القيامة، بكل ما اقترف في الحياة الدنيا، (وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم). ومن رحمة الله وعدله أن لا يؤاخذ عباده الا ببينة تشهد عليهم بما عملوا وان كان هو يعلم السر وأخفى، ولذا فقد جعل مع كل إنسان من يدون عليه حركاته وسكناته، قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[2].

---

(١) فصلت: آية ١٩ ـ ٢٢.

(٢) ق: آية ١٨.

وقال الله تعالى: ﴿كِرَامًا كَـٰتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[1].

وشرط الشهادة، أن يكون الشاهد حاضراً ومطلعاً على ما يشهد به. فدل ذلك على أن هذه الأعضاء التي تشهد على الإنسان، هي الأعضاء الموجودة في الدنيا حين اقترف تلك الجريمة؛ لا أعضاء جديدة وجدت، وإلا لقال صاحبها، لخالقه: إن هذه الأعضاء لم تكن حاضرة معي في الدنيا حتى تشهد علي.

أما نسبة القول ـ بخلق أجسام جديدة غير التي كانت في الدنيا ـ إلى من أشار إليهم شارح المواقف، ومنهم الغزالي، فالذي يبدو أن نسبة هذا القول للغزالي خطأ، ذلك أن قوله صريح في أن المعاد هو عين الأول لا مثله، وما نقل عنه من القول باعادة بدن جديد تتعلق به الروح. كما هو مذكور في كتابه: تهافت الفلاسفة ـ فقد صرح في كتابه ـ الاقتصاد في الاعتقاد ـ أن ذلك على سبيل الالزام منه للفلاسفة بما يعتقدون، لا أنه هو المذهب الحق الذي يعتقده، ولكون الغزالي متهماً في هذه المسألة حتى من اتباعه، فسننقل عنه ما ذكره في كتابه المشار اليه وان طال لبيان الحقيقة ـ يقول تحت فصل ـ في بيان قضاء العقل بما جاء الشرع به من الحشر والنشر.

---

(١) الانفطار: آية ١١ ـ ١٢.

(أما الحشر فيعني به اعادة الخلق، وقد دلت عليه القواطع الشرعية، وهو ممكن بدليل الابتداء فإن الاعادة خلق ثان، ولا فرق بينه وبين الابتداء وإنما يسمى اعادة بالإضافة إلى الابتداء السابق والقادر على الانشاء والابتداء قادر على الاعادة، وهو المعني بقوله: (قل يحييها الذي أنشأها أول مرة) فان قيل فما تقولون؟ أتعدم الجواهر والأعراض ثم يعادان جميعاً، أو تعدم الأعراض دون الجواهر، وإنما تعاد الأعراض؟

قلنا كل ذلك ممكن وليس في الشرع دليل قاطع على تعيين أحد هذه الممكنات، **وأحد الوجهين** أن تعدم الأعراض ويبقى جسم الإنسان متصوراً بصورة التراب مثلاً فتكون قد زالت منه الحياة واللون والرطوبة والتركيب والهيئة. وجملة من الأعراض، ويكون معنى اعادتها أن تعاد اليها تلك الأعراض بعينها أو تعاد اليها أمثالها، فإن العرض عندنا لا يبقى، والحياة عرض، والموجود عندنا في كل ساعة عرض آخر، والإنسان هو ذلك الإنسان باعتبار جسمه، فإنه واحد، لا باعتبار أعراضه، فإن كل عرض يتجدد هو غير الآخر، فليس من شرط الاعادة فرض اعادة الأعراض، وإنما ذكرنا هذا لمصير بعض الأصحاب إلى استحالة اعادة الأعراض، وذلك باطل: ولكن القول في ابطاله يطول.

والوجه الآخر: أن تعدم الأجسام أيضاً، ثم تعاد الأجسام

بأن تخترع مرة ثانية، فان قيل فبم يتميز المعاد عن مثل الأول؟ وما معنى قولكم إن المعاد هو عين الأول، ولم يبق للمعدوم عين حتى تعاد؟؟

قلنا المعدوم منقسم في علم الله إلى ما سبق له وجود، وَإلى ما لم يسبق له وجود، كما أن العدم في الأزل ينقسم إلى ما سيكون له وجود وإلى ما علم الله تعالى أنه لا يوجد، فهذا الانقسام في علم الله لا سبيل إلى انكاره والعلم شامل والقدرة واسعة، فمعنى الاعادة أن نبدل بالوجود العدم الذي سبق له وجود، ومعنى المثل أن يخترع الوجود لعدم لم يسبق له وجود، فهذا معنى الاعادة، ومهما قدر الجسم باقياً ورد الأمر إلى تجديد أعراض تماثل الأول حصل تصديق الشرع ووقع الخلاص عن اشكال الاعادة وتمييز المعاد عن المثل، وقد أطنبنا في هذه المسألة في كتابنا التهافت ومسلكنا في ابطال مذهبهم تقرير بقاء النفس التي هي غير متحيز عندهم، وتقدير عود تدبيرها إلى البدن سواء كان ذلك البدن هو عين جسم الانسان أو غيره، وذلك الزام لا يوافق ما نعتقده، فإن ذلك الكتاب مصنف لابطال مذهبهم، لا لإثبات المذاهب الحق [1]. وقد أشار إلى هذا المعنى في كتابه الاحياء ج ٤ ص ٢١٣.

وأما القول الثالث: وهو أن المعاد جسماني، فقط، فهو مبني

---

(١) محمد أبي حامد الغزالي، كتاب الاقتصاد في الاعتقاد ص ٩٦، الطبعة الأولى سنة ١٣٢٠ هـ تصحيح مصطفى القباني الدمشقي.

على القول بأن الروح جسم لطيف سار في البدن، فالمعاد وهو كل من الروح والبدن جسم، فيكون المعاد جسمانياً فقط، ودليل أن الروح جسم قوله ﷺ في صحيح مسلم: (إن الروح اذا قبض تبعه البصر). وفي رواية أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (ألم تروا الانسان اذا مات شخص بصره، قالوا بلى. قال: فذلك حين يتبع بصره[1] نفسه). وقوله تعالى: ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾[2].

فدل ذلك على أن الروح جسم يرى بالعين. كما أن الدخول في الأبدان ينافي التجرد، لأن المجرد يكون داخلاً في البدن - لا بكونه جزء منه ولا قوة حالّة فيه، وإنما هو عبارة عما ليس بجسم، ولا قوة حالة بالجسم، بل المجرد لا مكاني فلا يقبل إشارة حسية)[3].

وهذا القول الذي هو اعادة الجسم بعينه ثم حلول الروح فيه هو الذي دل عليه القرآن، وبين أنه واقع لا محالة، وذلك لأنه هو الذي استبعد المنكرون للبعث امكانه.

الناحية الثانية: هل الاعادة عند القائلين باعادة الجسم، عن

---

(١) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الجنائز / باب / في اغماض الميت والدعاء له إذ حضر. و / باب / في شخوص بصر الميت يتبع نفس، رقم الحديثين ٩٢٠، ٩٢١ جـ ٢ ص ٦٣٢، ٦٣٥، ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي.

(٢) الفجر: آية ٢٩.

(٣) كمال الدين محمد بن محمد بن أبي شرف القدسي، شرح المسايرة ص ٢٦٣.

عدم محض، أو عن تفريق؟

للعلماء في كيفية الاعادة بعد الموت مذهبان:

المذهب الأول: أن تنعدم أجزاء البدن انعداماً كلياً، بحيث لا يبقى لها أثر أصلاً، ثم ان الله تبارك وتعالى يعيد تلك الأجزاء بعينها بعد فنائها، ويوجدها ايجاداً ثانياً، كما كانت أولاً، ذلك أن الايجاد الثاني للبدن بعد عدمه الطارىء عليه، كالايجاد الأول، من حيث إنه ليس ممتنعاً لذاته، ولا لشيء من لوازم ذاته، قال تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده﴾. فالموجود ثانياً، هو الموجود أولاً أعيد بعينه، على وفق علمه تعالى، فهو بكل خلق عليم، وقد استدل القائلون بهذا الرأي بآيات من القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿كل شيء هالك الا وجهه﴾.

وقوله تعالى: ﴿كل من عليها فان﴾.

على معنى أن الهلاك والفناء ـ اعدام عين الشيء وزواله، لا تغير صورته التي كان عليها في الدنيا الى صورة أخرى مباينة لتلك الصورة.

المذهب الثاني: أن الأجزاء التي يتألف منها البدن، لا تنعدم، وإنما تتفرق فتكون متصورة بضورة التراب مثلاً، وإنما الذي يزول عنها الحياة، واللون، والهيئة والتركيب.

فإذا جاء يوم المعاد، جمع الله سبحانه وتعالى بقدرته تلك الأجزاء المتفرقة وألفها ثم اعادها كما كانت في الدنيا، وذلك أن الأجزاء قابلة للجمع، والله سبحانه وتعالى عالم بجميع الأجزاء لأي بدن من الأبدان. لعموم علمه واحاطته بكل شيء علماً، قال تعالى: ﴿قد علمنا ما تنقص الأرض منهم﴾ وقال تعالى: ﴿وهو بكل خلق عليم﴾ [1].

وقد استدل القائلون بهذا.. القول من القرآن الكريم بقصة ابراهيم عليه السلام، في إحياء الطير إذ كان جمعاً لأجزائها بعد تفرقها. فإن إبراهيم عليه السلام قطع تلك الطيور أجزاء، كما أمره الله تبارك وتعالى، وخلط بعضها مع بعض، ثم فرقها على رؤوس الجبال المجاورة له، ثم دعاها، فاجتمع كل جزء إلى الجزء الآخر وتألفت تلك الأجزاء طيوراً، كما كانت أولاً، ثم جاءته حيةً تسعى.

موقف القرآن:

إذا نظرنا في كتاب الله الكريم، نجد آيات كثيرة تدل على القول بتفرق الأبدان ثم اعادتها إلى حالتها التي كانت عليها، فمن تلك الآيات قصة إبراهيم عليه السلام في إحياء الطير، السابق

---

(١) الايجي. شرح المواقف جـ ٨ ص ٣٩٥، الغزالي، الاقتصاد في علم الاعتقاد ص ٩٦.

ذكرها ونص الآية كما يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى؟ قَالَ: أَوَلَمْ تُؤْمِن؟ قَالَ: بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي، قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(١).

فدلت الآية على أن احياء هذه الطير واعادة أجسامها كان بجمع أجزائها المتفرقة، وضم بعضها إلى بعض، فإن واهب الحياة أمر إبراهيم أن يدعو تلك الطيور، فاجتمع كل جزء مع الجزء الآخر، ثم جاءته حية تسعى.

ثانياً: قصة ـ الذي مر على القرية الخاوية على عروشها، وقد استبعد اعادتها إلى ما كانت عليه بعد مشاهدته لما حل بها. إذ قال: ﴿أنى يحيي هذه الله بعد موتها﴾. وقد أراه الله تعالى آياته الدالة على قدرته رؤية عيان ومشاهدة، فأماته مائة عام ثم بعثه، وأراه كيف يجمع العظام بعضها إلى بعض وهي أجزاء حماره المتفرقة عنه يميناً وشمالاً، ثم كسوتها لحماً بعد اجتماعها، واعادة الحياة إليها، يقول تعالى مخبراً عن تلك الواقعة:

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ، قَالَ كَمْ لَبِثْتَ

---

(١) البقرة: آية ٢٦٠

﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١).

وهناك آيات تحكي عن المنكرين للبعث، وصفهم للحالة التي يصيرون اليها، كتمزق أبدانهم قطعاً، وتحلل أجزائها واختلاطها بأجزاء الأرض، وصيرورتهم عظاماً مفتتة، وأخرى تصف تصورهم بصورة التراب.

ومن تلك الآيات قوله تعالى:

١ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (٢).

٢ ـ ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾ (٣).

٣ ـ ﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه؛ قال من يحيي العظام وهي رميم﴾ (٤).

---

(١) البقرة: آية ٢٥٩.
(٢) سبأ: آية ٧.
(٣) السجدة: آية ١٠.
(٤) يس: آية ٧٨.

٤ ـ ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعُۢ بَعِيدٌ﴾[1].

فهذه الآيات جميعاً تحكى عن الجاحدين استبعادهم لاعادتهم بعد تفرق أبدانهم وتحولها عن هيئتها وتركيبها، وزوال صورتها الأصلية البشرية الى الحالة التي وصلت اليها إذ أصبحت أجزاء مختلطة بغيرها، وأبلغ تغير هو تحولها إلى صورة التراب بحيث لا يستطيع الإنسان تمييز أجزائها من أجزائه، وليس! في هذا دليل على الاعدام النهائي المطلق، وإنما هو دليل على التغير الكامل، لأنهم صاروا تراباً والتراب شيء موجود. وهو أصلهم الذي أنشئوا منه، ثم أعيدوا إليه، وأخيراً يخرجون منه تارة أخرى، يقول تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[2].

وهناك آيات أخرى هي نص صريح في موضوع الجمع، من الله تبارك وتعالى، يقول تعالى في سورة الحج، بعد ذكره دليل الاعادة:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ، وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ. وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾[3].

ومعلوم أن الذي في القبور أجزاء الموتى بعد أن تفتت،

---

(١) ق: آية ٣.

(٢) طه: آية ٥٥.

(٣) الحج: آية ٦، ٧.

واختلطت بأجزاء الأرض فالله قادر علي تمييزها، ثم تأليفها وإعادتها إلى حالتها الأولى.

وفي سورة القيامة آيتان صريحتان في جمع أجزاء الانسان المتفرقة، بل إنهما أقوى دليل على ذلك، وأبلغ دليل في تصوير القدرة الالهية. يقول تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾(١).

فقد صرحت الآية بجمع عظام الانسان المتفرقة، كما نصت على تسمية بنانه، وقد كشفت العلوم الحديثة عن هذا السر. إذ تبين أن البشرية بأسرها، قد ميز الله العليم القادر بين جميع أفرادها، بميزة لا يمكن أن يشترك فيها اثنان منهم، حتى الأب مع ابنه، تلك الميزة هي اختلاف البنان، تلك الخطوط الدقيقة في أنامل كل انسان، فقد ثبت علمياً اختلاف بصمات أفراد البشرية في هذا العالم كله ـ أي اختلاف بنانهم.

وإذا كان الأمر كذلك، وقد أخبر تعالى ﴿أنه قادر على جمع عظام الانسان واعادة بنان كل فرد بهيئته وشكله وصورته، فكيف يستبعد الجاحد على من هذه قدرته، اعادته إلى الحياة مرة أخرى.

وبالتالي فالآية نص صريح في جمع الأجزاء المتفرقة حتى أصغر جزء منها، ودليل على أن بدن الانسان يتفرق ولا ينعدم.

(١) القيامة: آية ٣.

الراجح من القولين:

وبعد عرض هذه الآيات من القرآن الكريم، يتبين لنا أن الأولى بالترجيح هو القول بتفرق بدن الإنسان، لا اعدامه، ذلك التفرق الذي تذهب معه الصورة الأصلية لأجزاء بدن الإنسان وتتغير تغيراً كلياً، بحيث تصبح متصورة بصورة التراب، وهذا ليس معناه عدماً فان التراب موجود، وهو أصل مادة الانسان، فمنه وجد، واليه يعاد، ومنه يخرج مرة أخرى، قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[1]. إلا ما نصت السنة الصحيحة على بقائه بعينه، وعدم تحوله عن صورته.

أولاً: عجب الذنب: الذي منه يركب خلق الانسان، فقد ثبت في الصحيحين بقاؤه بعينه وأن الأرض لا تاكله أبداً. ففي صحيح البخاري. عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (ما بين النفختين أربعون. قالوا: أربعون يوماً؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت. ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل، ليس من الانسان شيء الا يبلى، الا عظماً واحداً وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة)[2].

---

(١) طه: آية ٥٥.

(٢) محمد بن اسماعيل البخاري.

وفي رواية مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن في الانسان عظماً لا تأكله الأرض أبداً. فيه يركب يوم القيامة. قالوا: أي عظم هو؟ يا رسول الله. قال: «عجب الذنب»)[1].

ثانياً: - أجساد الأنبياء فقد حرم الله على الأرض أن تأكلها.

فقد روى النسائي وأبو داود من حديث أوس بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة فيه خلق آدم عليه السلام، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا على من الصلاة فان صلاتكم معروضة عليّ. قالوا: يا رسول الله، وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت؟ أي يقولون قد بليت. قال: ان الله عز وجل.. قد حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء عليهم السلام)[2].

---

(١) صحيح البخاري. كتاب التفسير، باب يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً، رقم الحديث ٤٩٣٥، من فتح الباري جـ ٨ ص ٦٨٩، ومسلم في كتاب الفتن / باب ما بين النفختين، رقم الحديث ١٤١ جـ ٤ ص ٢٢٧١ - ترقيم عبدالباقي.

(٢) النسائي، سنن النسائي المجتبي، كتاب الصلاة / باب فضل يوم الجمعة جـ ٣ ص ٧٥ الطبعة الأولى ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤. قال المناوي في فيض القدير، قال الحاكم على شرط البخاري: انتهى، وليس كما قال، فقد قال الحافظ المنذري =

ويقول ابن القيم في مفتاح دار السعادة ما ملخصه:

« ما خلقه الله سبحانه وتعالى فقد أوجده لحكمة في ايجاده، فإذا اقتضت حكمته اعدامه جملة واحدة، أو تغييره وتحويله من صورة إلى صورة بدله وغيره وحوله، ولم يعدمه جملة، قال: ومن فهم هذا فهم مسألة المعاد. وما جاءت به الرسل فيه، فإن القرآن والسنة، إنما دلا على تغيير العالم وتحويله وتبديله لإجعله عدماً محضاً واعدامه بالكلية، فدل على تبديل الأرض غير الأرض والسموات، وعلى تشقق السماء وانفطارها وتكوير الشمس، وانتشار الكواكب، وسجر البحار، وإنزال المطر على أجزاء بني آدم المختلطة بالتراب، فينبتون كما ينبت النبات، وترد تلك الأرواح بعينها، إلى تلك الأجساد التي أحيلت، ثم أنشئت نشأة أخرى... فهذا هو الذي أخبر به القرآن والسنة، ولا سبيل لأحد من الملاحدة الفلاسفة وغيرهم إلى الاعتراض على هذا المعاد الذي جاءت به الرسل بحرف واحد.

وإنما اعتراضاتهم على المعاد الذي عليه طائفة من المتكلمين أن الرسل جاؤوا به، وهو أن الله يعدم أجزاء العالم العلوي والسفلي كلها فيجعلها عدماً محضاً، ثم يعيد ذلك العدم وجوداً، ويا ليت

= وغيره ليس له علة دقيقة أشار اليها البخاري وغيره وغفل عنها من صححه كالنووي في الرياض والأذكار جـ ٢ ص ٥٣٥ رقم الحديث ٢٤٨٠.

شعري أين في القرآن والسنة أن الله يعدم ذرات العالم وأجزاءه جملة ثم يقلب ذلك العدم وجوداً.

وهذا هو المعاد الذي أنكره الفلاسفة، ورمته بأنواع الاعتراضات، وضروب الالزامات، واحتاج المتكلمون إلى تعسف الجواب وتقريره بأنواع المكابرات، وأما المعاد الذي أخبرت به الرسل، فبريء من ذلك كله، مصون عنه لا مطمع لعقل في الاعتراض عليه، لا يقدح فيه شبهة واحدة وقد أخبر سبحانه أنه يحيي العظام بعد ما صارت رميماً، وأنه قد علم ما تنقص الأرض من لحوم بني آدم وعظامهم، فيرد ذلك إليهم عند النشأة الثانية، وأنه ينشيء تلك الأجساد بعينها بعدما بليت نشأة أخرى، ويرد اليها تلك الأرواح... الخ[1].

وإذا كنا رجحنا القول بأن الاعادة عن تفريق، لا عن عدم محض، وأن الله عز وجل يفرق أجزاء الأجسام، ثم يعيدها، فما هو الجواب على ما استدل به القائلون بانعدام الأبدان، من قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[3].

---

(١) ابن القيم، مفتاح دار السعادة جـ ٢ ص ٣٥.

(٢) القصص: آية ٨٨.

(٣) الرحمن: آية ٢٦.

يرى القائلون بتفرق الأبدان أن الاستدلال بهاتين الآيتين على انعدام الأبدان كلية ضعيف، ذلك أن التفريق هلاك كالاعدام، لأن هلاك الشيء هو خروجه عن صفاته التي كان عليها وزوال التأليف والتركيب الذي به تصلح الأجزاء لأفعالها وتتم به منافعها. ومثل الهلاك الفناء عرفاً، فإن البدن اذا تغير بحيث أصبح تراباً، فقد صار في حكم المعدوم من حيث تغير صورته، وكل ما يمتاز به من مقوماته، وقد قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿كل من عليها فان﴾، إنه اخبار من الله تعالى أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون، أجمعون، وكذلك أهل السماوات الا من شاء الله، ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم فإن الرب تعالى، هو الحي الذي لا يموت، قال: وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿كل شيء هالك الا وجهه﴾ [1]. فعلى هذا التفسير يتضح أن المقصود من الآيتين هو موت الأحياء جميعاً وتغير صورهم، بل وصور الأشياء جميعاً، كما تقدم توضيحه في كلام ابن القيم.

والله أعلم...

---

(١) ابن كثير، التفسير جـ ٤ ص ٣٧٢، ٣٧٣.

خاتمة البحث

وبعد فلقد تبين لنا من خلال هذا البحث، أن الأساس الذي يقوم عليه صلاح الفرد الذي هو لبنة في المجتمع، هو العقيدة الصحيحة والايمان الراسخ بالله تعالى خالق هذا الكون ومدبر أمره، واثبات أنه الواحد الأحد الذي لا يستحق العبادة أحد سواه، إذ هو خالق العباد ورازقهم، ومن حقه ان يحمد ويشكر على ما أنعم وأعطى، فكيف يتوجه العبد بحقه إلى غيره بل يجب أن يخص بالعبادة وحده ﴿اياك نعبد واياك نستعين﴾.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ، مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ، إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ (١).

ومن أجل ذلك كان كل نبي يبدأ دعوته قومه بتحقيق هذه الغاية، وهي الإيمان بالله وحده، والتصديق بوجوده، ووجوب صرف كل أنواع العبادة اليه.

---

(١) سورة الذاريات آية ٥٦ - ٥٨.

لأن العقيدة الصحيحة السليمة هي الأساس الأول الذي يبني عليه جميع فروع الشريعة.

ثم يتبع الايمان بالله تعالى، الايمان بجميع الحقائق الاخرى التي جاءت عن الله تعالى، كالإيمان بعالم الملائكة وهم خلق من مخلوقات الله، منهم من وكلوا بحفظ الانسان ومراقبته واحصاء اعماله، قال تعالى:

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ، كِرَامًا كَٰتِبِينَ، يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (١).

ومنهم من يتولى وحي الله الذي انزله الى رسله وغير ذلك، وعموماً الإيمان بوجودهم وأنهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلوم ما يؤمرون.

ثم الايمان بما أنزل الله من كتب فيها هداية البشرية وسعادتهم في الدنيا، وفلاحهم وفوزهم في الآخرة.

والإيمان بأن الله تعالى قد اختار من بني آدم أفضلهم خلقاً، وأعلاهم مكانة فخصهم برسالته الى عباده، ليرشدوهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم في أمر دينهم ودنياهم.

---

(١) سورة الانفطار آية ١٠ - ١٢.

ثم الإيمان بالبعث والجزاء على الاعمال التي وقعت من المكلفين في هذه الحياة الدنيا، ذلك أن الايمان باليوم الآخر له أهمية في صلاح المجتمعات واستقرار أحوالها، فانه لا سعادة لمجتمع لا يؤمن أفراده باليوم الآخر ويوم الجزاء والحساب.

وإذا كان الالحاد قد اتصف به افراد على مر العصور والدهور بغير دليل، وكان الالحاد يشمل انكار وجود الله تعالى، أو انكار البعث، والحقائق الأخرى الدينية، فانه لم يخل عصر من العصور من وجود من ينتحلون هذه الفكرة؛ ويقومون على نشرها.

بل إن هذه الظاهرة قد أصبحت في العصور المتأخرة، ولا سيما في العصر الحاضر، على مستوى الجماعات، بل على مستوى الحكومات، فقد أصبح الالحاد ديناً يدرس في الجامعات، ودستوراً للدولة، ومذهباً عاماً يراد نشره في جميع أقطار الأرض، تنفيذاً لما توعد به ابليس عليه لعنة الله آدم وذريته، فقد قام أنصاره وأعوانه ومن ركض عليهم بخيله ورجله بنشر هذا المبدأ، فصار الالحاد عند هؤلاء رسالة عامة، أوجبوا على أنفسهم تبليغها إلى جميع أفراد البشرية.

ويلمس الإنسان أن هذه الافكار الخارجة عن حدود الدين قد تسربت إلى اذهان بعض من هم في ديار المسلمين وإلى عقول الاغرار منهم، فأصبحت توجد جماعات تتبنى هذه الفكرة،

وتحاول تشكيك شباب المسلمين في عقيدتهم بربهم، وتزلزل - إيمانهم بخالقهم، ومن باب أولى تشكيكهم في الرسالات السماوية، منكرين لها.

أو أنها غير صالحة لهذا العصر، عصر الحضارة والتقدم العلمي، وتشكك فيما اشتملت عليه هذه الرسالات، من أمور غَيبيَّة، كالإيمان بالملائكة، والايمان بالبعث والحساب والجزاء.

وفي عرضنا لما جاء في كتاب الله تعالى في مبحث الإيمان بوجوده جل شأنه تعالى، رأينا ان في هذا الكتاب الذي انزله العليم الخبير بخلقه، فيه ما يكفي لدحض كل شبهة توجه إلى هذه العقيدة، ففيه الدليل العقلي المنطقي المستند الى الامور المحسوسة والمشاهدة، التي لا يمانع في نتاجها ولا ينكر مدلولها الا المكابر العنيد المنحرف عن فطرته البشرية.

ومن المعلوم أن من ينكر وجود الله، لا يمكن ان يحاج بالقرآن على أنه من عند الله لأنه لا يؤمن بوجوده، ولكن بالامكان مناقشته ومجادلته بأسلوبه المنطقي المستند إلى الأدلة المادية بناء على ما عرضه القرآن في هذا الكون، فان الكون كله مملوء بالآيات الدالة على خالقها، ومبدع صنعتها قال تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1].

(١) سورة لقمان آية ١١.

كما تبين لنا من خلال هذا البحث أن طريق القرآن التي سلكها لإثبات وجود الله، هي أسهل الطرق وأقربها إلى متناول الناس جميعاً، لا فرق في ذلك بين انسان وآخر، لأنه خطاب موجه إلى الفطرة البشرية، ممن يعلم خصائصها ومميزاتها، وكل فرد من البشر يدرك هذا الخطاب، ويفهم هذه الآيات الموجودة في هذا الكون المشاهد بما أمدّه الله به من الحواس والعقل.

وفي مقابل طريقة القرآن هذه، رأينا صعوبة الطرق الأخرى، فطريقة المتكلمين لإثبات وجود الله تعالى، لا يُدْركها إلا الخاصة من الناس، وبعد التعب الشديد، وكد الذهن، فضلاً عن انها اعتمدت على مقدمات لم تثبت بعد، كنظرية الجوهر الفرد، وأن العرض لا يقوم بالعرض، بل لقد أثبت العلم الحديث بطلان نظرية الجوهر الفرد هذه.

وأما طريقة الفلاسفة، فهي وان أثبتت واجب الوجود بطريقة واضحة، الا أن واجب الوجود هذا لم يكن هو «الله» سبحانه وتعالى، الذي جاء وصفه في القرآن الكريم، من انه الخالق لهذا العالم بمشيئته واختياره، والعالِم بكل ما فيه صغيراً كان أو كبيراً، كما أنهم وصفوا «واجب الوجود» بصفات لا تلتقي مع ما جاء في القرآن الكريم، كقولهم: (انه عقل وعاقل ومعقول).

والمتتبع للأدلة التي جاءت في كتاب الله لإثبات وجوده تعالى

وقدرته وانه الخالق لهذا العالم كله وحده لا شريك له يجد أن تلك الأدلة المثبتة لهذا النوع من أنواع التوحيد، المقصود منها اثبات الوحدانية له تعالى، وأنه هو الاله الحق الذي يستحق أن يعبد وحده، وأن من اعترف له بالخلق والايجاد يلزمه أن يعبده وحده، كما قال تعالى: ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون﴾ (١).

ولذا فان من اعترف بتوحيد الربوبية، وأشرك في توحيد الألوهية لم يعتد بايمانه هذا ولا ينجيه هذا الاعتراف من عذاب النار، لأنه لا يدخله في عداد المؤمنين بالله وحده.

وقد بين القرآن الكريم ان الكفار الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ ونزل عليه القرآن، ان إيمانهم ذلك المتمثل في اعترافهم بأنه خالقهم وخالق العالم جميعاً. كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ (٢). غير نافع لهم، بل نص الله على كفرهم، لأنهم جعلوا معه آلهة أخرى كما حكى الله عنهم ذلك بقوله: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ (٣).

---

(١) سورة النحل الآية: ١٧.

(٢) لقمان: آية ٢٥.

(٣) سورة ص الآية: ٤، ٥.

ولذلك جاء في بحث توحيد الألوهية معالجة هذه القضية وهي اخلاص العبادة لله وحده بكل الأساليب المختلفة التي مرت في فصل اثبات الوحدانية في الألوهية.

كما بين لنا القرآن الكريم، أن النبوة تفضل من الله ورحمة، اختص الله بها من شاء من عباده، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ (١) فليس في استطاعة بشر اكتسابها، كما يرى ذلك الفلاسفة، الذين فتحوا الباب للمتنبئين برأيهم الذي يقول: «ان النبوة مكتسبة، ويمكن حصولها عن طريق المجاهدة».

ولذلك كان من الخطأ الواضح وصف الأنبياء بالأوصاف التي شاعت بين الكتاب المعاصرين كوصفهم عليهم السلام بالعبقرية أو نبوغ الشخصية، لأنهم أسمى من ذلك، وأعلى مكانة، فهم يتلقون وحي السماء ويأخذون علمهم عن الله تعالى، وقد بين القرآن الكريم أوصافهم ومنزلتهم عند ربهم سبحانه وتعالى، وأنهم الأمناء على تبليغ ما كلفوا بابلاغه، الحريصون على هداية أممهم وبذل النصح لهم، وارشادهم لما فيه خيرهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة.

كما أوضح القرآن الكريم أن وجود هذا الانسان على هذه الأرض ليس عبثاً، وإنما أوجده الله تعالى لغاية وحكمة، قال

---

(١) سورة الانعام الآية: ١٢٤.

تعالى: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً..﴾

أي ليس الأمر كذلك، بل هناك هدف، وهناك غاية لهذه الحياة، فلا بد أن يكون بعد الرحلة لهذا الانسان في هذه الحياة الدنيا من الرجوع إلى الله تعالى، يوضح ذلك مسلك القرآن في اثبات البعث، فآية سورة الحج وهي قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ... ﴾(١).

قد أوضحت رحلة هذا الانسان من مبدأ خلقه إلى أن يعود إلى ربه فالمؤمن بالله تعالى يجب عليه أن يدرك:

من أين أتى؟
ولماذا وجد؟
وإلى اين يسير؟
ولا يقول كما يقول عمر الخيام:

لبست ثوب العمر لم أستشر وحرت فيه بين شتى الفكر
وسوف انضو الثوب ولم أدر لماذا جئت أين المقر؟

لأن القرآن الكريم قد أعطى الاجابة الواضحة على هذه الأسئلة

---

(١) سورة الحج آية ٥.

جميعاً، فبين أن الانسان خلق من تراب ثم من نطفة.

كما بين أنه وجد لعبادة الله وحده، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (١).

العبادة بمفهومها الواسع ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (٢).

وأوضح له ان الرجوع إلى الله تعالى فإليه المصير، واليه المآب.

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (٣).

فإذا لم يكن هناك بعث وحياة بعد الموت للجزاء، فان الخلق يكون عبثاً، والله عز وجل منزه عن ذلك قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ (٤).

وقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ (٥).

---

(١) سورة الذاريات آية ٥٦.

(٢) سورة الانعام آية ١٦٢ - ١٦٣.

(٣) سورة المؤمنون آية ١١٥.

(٤) سورة ص آية ٢٧.

(٥) سورة الانبياء آية ١٦.

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الفهارس

١ - ثَبْتُ المَرَاجِعِ
٢ - فِهْرِسْتُ المَوْضُوعَاتِ

١ ـ ثبت المراجع

★ القرآن الكريم.

١) الابانة في اصول الديانة. أبي الحسن الأشعري. الطباعة المنيرية بالأزهر.

٢) احياء علوم الدين. للغزالي. مطبعة مصطفى الحلبي، بمصر.

٣) الاسلام ومشكلات الحضارة. سيد قطب. الطبعة بدون تاريخ.

٤) الاشارات والتنبيهات. ابن سينا، تحقيق سليمان دنيا، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٧ م.

٥) أصول الدين. عبد القادر البغدادي. استانبول، مطبعة الدولة، ١٣٤٦ هـ.

٦) أعلام الموقعين. ابن القيم. ط ١. مطبعة السعادة، ١٣٧٤ هـ.

٧) اغاثه اللهفان من مصائد الشيطان. ابن القيم، تحقيق محمد سيد الكيلاني. طبعة ١٣٨١ هـ.

٨) الاقتصاد في الاعتقاد. الغزالي. ط ١. المطبعة الادبية بمصر، ١٣٢٠ هـ.

٩) الله يتجلى في عصر العلم. نخبة من العلماء الامريكيين، ترجمة الدكتور الدمرداش، ط ٣. سنة ١٩٦٨ م.

١٠) ايثار الحق على الخلق. ابن الوزير، مطبعة الآداب، بمصر، ١٣١٨ هـ.
١١) البداية والنهاية. ابن كثير، الطبعة الأولى، الرياض، مكتبة النصر، ١٩٦٦ م.
١٢) البيان والتبيين. الجاحظ. المطبعة التعاونية اللبنانية، ١٩٦٨ م.
١٣) تاريخ العرب قبل الاسلام. جواد علي. الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٧٠ م.
١٤) ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان. ابن الوزير، ادارة الطباعة للجمعية العلمية الازهرية. بدون تاريخ.
١٥) التسهيل لعلوم التنزيل. ابن جزى الكلبي. ط ١. سنة ١٣٥٥هـ.
١٦) تفسير ابن كثير. القاهرة، احياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي.
١٧) تفسير ابي السعود. تحقيق عبدالقادر عطا. الرياض، مكتبة الرياض الحديثة.
١٨) التفسير الكبير. الفخر الرازي. ط ٢. طهران، دار الكتب العلمية.
١٩) التمهيد. الباقلاني، بيروت، المكتبة الشرقية، ١٩٥٧ م.
٢) جامع البيان. ابن جرير الطبري. ط ٢. سنة ١٣٧٣ هـ.
٢١) جواهر الآداب. أحمد الهاشمي، ط ١٩. القاهرة، مطبعة السعادة، ١٣٧٩ هـ.
٢٢) خصائص التصور الاسلامي. سيد قطب. ط ٢. القاهرة، مكتبة وهبة، ١٩٦٥ م.
٢٣) رسالة التوحيد. محمد عبده.ط ١١. ١٣٦٥ هـ.
٢٤) روح المعاني. الآلوسي. بيروت، دار احياء التراث العربي.
٢٥) سنن أبي داود. ط ١. القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٧١ هـ.

٢٦) سنن الترمذي. ط ١. سنة ١٣٨٧ هـ.
٢٧) سنن النسائي مع المجتبى. ط ١. سنة ١٣٨٣ هـ.
٢٨) شرح الطحاوية. ابن أبي العز. ط ٣. المكتب الاسلامي.
٢٩) شرح العقيدة الاصفهانية. شيخ الاسلام ابن تيمية، تقديم حسنين مخلوف، طبعة ١٣٨٥ هـ.
٣٠) شرح المسايرة. محمد بن محمد المعروف بابن شريف القدسي، القاهرة، مطبعة السعادة.
٣١) صحيح البخاري مع فتح الباري. ابن حجر العسقلاني، المطبعة السلفية، ١٣٨٠ هـ.
٣٢) صحيح مسلم. مسلم بن الحجاج القشيري، ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي. ١٣٧٥ هـ.
٣٣) العقيدة الواسطية. شيخ الاسلام ابن تيمية. القاهرة، مطبعة الإمام.
٣٤) الفتاوى. شيخ الاسلام ابن تيمية. ط ١. الرياض، مطابع الرياض، ١٣٨٢ هـ.
٣٥) الفصل في الملل والاهواء والنحل. ابن حزم. القاهرة، مطبعة محمد علي صبيح، ١٣٨٤ هـ.
٣٦) الفقه الأكبر. الإمام أبي حنيفة. القاهرة، مطبعة دار الكتب الكبرى، ١٣٢٧ هـ.
٣٧) الفلسفة الاسلامية وصلتها بالفلسفة اليونانية، محمد السيد، وعوض الله حجازي، ط ٢. سنة ١٣٧٩ هـ.
٣٨) في ظلال القرآن. سيد قطب. ط ٣. بيروت، دار احياء التراث العربي، ١٩٦١ م.
٣٩) فيض القدير. المناوي. ط ١. سنة ١٣٥٦ هـ.

٤٠) القاموس المحيط. الفيروز آبادي. القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى.
٤١) قصة الايمان بين الفلسفة والعلم والقرآن الكريم. نديم الجسر. ط ٣. بيروت، المكتب الاسلامي، ١٣٧٩ هـ.
٤٢) الكشاف. الزمخشري. الطبعة الاخيرة. القاهرة، الحلبي، ١٣٨٥ هـ.
٤٣) الكشف عن مناهج الأدلة. ابن رشد. ط ٣. القاهرة، المطبعة العربية، ١٣٨٨ هـ.
٤٤) لسان العرب. ابن منظور. بيروت، ١٣٨٩ هـ.
٤٥) اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع. أبي الحسن الأشعري. القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٥٥ م.
٤٦) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين. أبي الحسن الندوي. ط ٧. سنة ١٣٨٧ هـ.
٤٧) محاضرات في النصرانية. محمد أبو زهرة. ط ٢. سنة ١٣٨٥ هـ.
٤٨) مختصر السيرة. عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب. القاهرة، المطبعة السلفية، ١٣٧٩ هـ.
٤٩) مدارج السالكين. ابن القيم. تحقيق محمد حامد فقي. بيروت، سنة ١٣٩٢ هـ.
٥٠) المرشد السليم في المنطق الحديث والقديم، عوض الله حجازي. ط ٤. القاهرة، دار الطباعة المحمدية، ١٩٧٠ م.
٥١) المستدرك. الحاكم. الرياض، مطبعة الرياض.
٥٢) المسند. الإمام أحمد بن حنبل.
٥٣) مشكاة المصابيح. محمد بن عبدالله الخطيب التبريزي، تحقيق ناصر الدين الالباني. ط ١. سنة ١٣٨٠ هـ.

٥٤) مصير البشرية. ليكونت ديونوى، ترجمة الاستاذ / أحمد عزت طه وآخر، دون تاريخ.
٥٥) المغني في أبواب التوحيد والعدل. القاضي عبدالجبار. القاهرة، مطبعة الحلبي، ١٣٨٥ هـ.
٥٦) مفتاح دار السعادة. ابن القيم. الرياض، مكتبة الرياض.
٥٧) المفردات في غريب القرآن. الراغب الاصفهاني، تحقيق محمد سيد كيلاني. الطبعة الاخيرة، القاهرة، الحلبي، ١٣٨١ هـ.
٥٨) الملل والنحل. الشهرستاني، تحقيق عبدالعزيز الوكيل. القاهرة، الحلبي، ١٣٨٧ هـ.
٥٩) مناهج البحث العلمي. عبدالرحمن بدوي. القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٦٨ م.
٦٠) مناهج البحث عند مفكري الاسلام. علي سامي نشار. ط ٣. القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٦ م.
٦١) منهاج السنة النبوية. شيخ الاسلام ابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم. القاهرة، مطبعة المدني، ١٣٨٢ هـ.
٦٢) منهج البحث العلمي عند العرب. جلال محمد موسى. ط ١. بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٢ م.
٦٣) منهج التربية الاسلامية. محمد قطب. ط ٢. دار دمشق للطباعة والنشر.
٦٤) المنطق الحديث ومناهج البحث. محمود قاسم. ط ٥. القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٨ م.
٦٥) المواقف. الإيجي. ط ١. القاهرة، مطبعة السعادة، ١٣٢٥ هـ
٦٦) النبأ العظيم. محمد عبدالله دراز. ط ٢. سنة ١٣٨٥ هـ.

٦٧) النبوات. شيخ الاسلام ابن تيمية. الرياض، مكتبة الرياض الحديثة، ١٣٤٦ هـ.
٦٨) النجاة في الحكمة المنطقية والطبيعة الالهية. ابن سينا. ط ٢. ١٣٥٧ هـ.
٦٩) الوحي المحمدي. محمد رشيد رضا.

★ ★ ★

٢ - فهرست الموضوعات